

إبليس في النُصُور الإسلاميَّة

بين الحقيقة والوهم

مع
تحقيق كتاب "الرد على مسائل المجبرة
عن وسوسة إبليس وسائر الشياطين"

لأحمد بن يحيى

(ت ٣٢٥هـ)

إمام حنفى سيّد عبد الله



الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
جميع الحقوق محفوظة



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت
(من شارع الطيران) - مدينة نصر
تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ١٨٤٥٩ لسنة ٢٠٠٠
الرقم الدولي : 977-5727-85-5

إهداء

إلى والدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وبعد

تعرضت الأمة الإسلامية لكثير من النكبات والهزائم المريرة على طول تاريخها .. وكانت تستجمع قواها مرة بعد أخرى وتلملم شملها وتعود أفضل مما كانت .. حدث ذلك بعد الفتنة الكبرى ، وبعد سقوط بغداد واجتياح التتار لمعظم أجزاء العالم الإسلامي وتدميره .. ومن قبل ذلك حدث على يد صلاح الدين في حطين .. فقد مزقت الدويلات الصليبية على ساحل الشام وحدة الأمة ولكن إلى حين .. ففي حطين ثبت أن سلامة هذه الأمة في وحدتها .. وقوتها في راب الصدع وتجميع القوى .. وأقرب الأمثلة على ذلك ما حدث في حرب رمضان العصور .. لم يكن للأمة أن تنتصر إلا بعد أن عالجت أسباب الهزيمة .. فحرب ١٩٦٧ لم تكن دراساً في الهزيمة العسكرية ، بل كان درساً قاسياً في الهزيمة الداخلية على كل المستويات الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية حتى المستوى النفسى .. ولكن بعد أن التفت المسلمون إلى داخلهم وعالجوا أمورهم .. كان النصر المبين .

واليوم تتعرض الأمة إلى العديد من الهجمات الشرسة التي تستهدف أمنها .. ومن وراء ذلك اليهود ومن وراء اليهود الغرب بأسره .. اليوم جاءت إلى بلادنا شياطين العالم لتمزقه .. فما حدث في العراق من عامين حدث مثله في جنوب لبنان الأيام الماضية .. وما حدث في الجزائر حدث شبه له في أفغانستان ! . التشرذم والتمزق والعمالة والاستعمار .

إن التفرق شيطان لا بد من محاربته .. علينا أن نواجه أنفسنا .. فنتبائل من الذى وراء عدم اجتماعنا حتى على مستوى جامعة الدول العربية ، لناخذ قراراً ولو شكلياً نحفظ به ماء الوجه .. من الذى وراء عدم اجتماع المنظمة الإسلامية ، لناخذ قراراً على المستوى الإسلامى فى مواجهة ما يحدث فى الشيشان ١١٩

لبنان وجه العملة البارز لما يحدث فى كل الأراضى المحتلة ، من غارات غاشمة بالليل والنهار على قرى الجنوب ، تحت ادعاءات كثيرة باطلة لا أساس لها من

إسرائيل .. والمستهدف تمزيق الأمن العربى .. ولا يكفى أن تكون مصر هى الدولة الوحيدة التى تقف بشجاعة على الصعيد السياسى والعسكرى للمواجهة مع إسرائيل وأمريكا ؛ لأنهم يعتقدون أن السلام مرحلة وجولة يكسبون بها أو من خلالها تحقيق أهدافهم فى الشرق الأوسط .. على العرب أن يدركوا أن هذه هى قاصمة الظهر التى تأذن بزوال دولتهم إن لم يتحدوا حقيقة ، بلا زيف أو مخادعة سياسية .

ومصر مستهدفة بشدة من قبل اليهود والغرب ، لعدة أسباب يعرفها الجميع ، منها التاريخ والحضارة وجغرافية المكان والثقل الثقافى والسياسى .. ولحكمة قادتها السياسيين .. فقد مضى أكثر من ربع قرن ، لم تستدرج لحرب مع إسرائيل ولا مع غيرها .. بدأت تتنفس الصعداء وتخرج من أزمتها المتلاحقة ، والتى كان سببها الحروب الخمس التى خاضتها فى نصف القرن الأخير .. فقد استهدفت استنزاف مقدراتها الاقتصادية والعسكرية ..

واستهدف أمنها الداخلى عن طريق عملاء عديدين ، هم فى الحقيقة شياطين من البشر تحركهم يد اليهود والغرب من الخارج .. فما حدث فى الأقصر ، على سبيل المثال لا الحصر ، كان عمالة واضحة ، وكذلك ما حدث فى الكشع مؤخراً .. ومحاولة تحريك الفتنة الطائفية بأى شكل وهو هدف وغرض استعمارى واضح .. هو من قبيل العمالة .. لهز أمن مصر قلب العالم العربى والإسلامى .. فإن تزعزع أمنها استطاع الغرب النيل من كل العالم العربى والإسلامى بلا استثناء ..

من الذى يمول جماعات الإرهاب المسلح ؟ .. من الذى يفتح لهم أحضان عواصم الغرب لندن - وباريس - وواشنطن - تحت مسمى الحرية ؟ .. شياطين العالم وقادة البشر .. من الذى يغزو مصر ثقافياً بسيل من القنوات المشفرة وغير المشفرة وصحف الفضائح والجنس .. فملاً الفضاء بقنوات الجنس لزعزعة البناء الاجتماعى لمصر ؟ .. شياطين العالم وقادة الشرف فيه .. من الذى يحاول تشويه الإصلاح الاقتصادى بمصر والفصل بين روعة التنظيم وصحة التطبيق ؟ .. قادة الشر وشياطين الفساد فى العالم ..

لقد تعرضت الأمة قديماً لإفساد نهضتها .. عن طريق حجب مناهج الإصلاح عن التطبيق .. وهز الثقة فى المصلحين .. إن بطانة الفساد من العلماء والسياسيين المنتفعين دائماً - أقصد بهم الطابور الخامس للغرب فى بلادى - بالمرصاد لكل تيارات

التنوير والإصلاح - أقصد التنوير لا التغريب - واليوم علينا أن نصارع ، بإخلاص وصدق ، من أجل عودة الوعي وعودة الروح .. أقصد الوعي الجمعى للأمة .. وروح الوحدة للأمة .. فلا أمة بلا وحدة .. ولا وحدة بلا روح ..

واعتقد أن أولى لبنات الإصلاح فى الطريق إلى الوحدة الكبرى هو تصحيح عقائد المسلمين فى العالم العربى .. الذين خلفتهم عهود طويلة ركاماً إنسانياً وغشاء لاغناء فيه ، فلهشوا بلا خبرة خلف فكر متخلف ، لا علاقة له بالإسلام عقيدة وفكراً وسلوكاً . وما أقدمه اليوم هو دراسة عن عقيدة المسلمين فى إبليس والجن ، ومدى فهمهم لعقيدة التوحيد .. وكيف اصطدمت هذه العقيدة بالخرافات الموروثة عن إبليس والجن ، وقراءة فى الفكر الذى تراكم على مدى القرون حول هذه العقيدة ... وهو حق مشروع لآى باحث مسلم .. والذى من شأنه إشاعة روح اليأس والهزيمة والتواكل .. والاعتقاد دائماً أن النصر من حظ دولة الشيطان على دولة الحق والإيمان ! ..

إن الحرب مع الجماعات المسلحة لم تنته بعد ؛ لأنها خلفت جماعات تكفر المجتمع وتدعوا إلى العزلة والجمود ، ونستقطب آلافاً من شباب المسلمين لا يقرأون ولا يطلعون على وسائل المعرفة المختلفة ! .. فالتليفزيون حرام وكذلك الراديو والذش والجرائد وكل ما هو نافذة أو أداة للمعرفة حرام ! .. فصاروا شباباً بلا وطن وبلا معرفة وبلا وعى .. ظاهريهم يعبر عن الاغتراب ، وباطنيهم خواء تحفهم الاوهام والجهالات ، إنهم شياطين تحارب الأمة وتفسد وحدتها وتهيئتها لآى غزو خارجى .. ما أقسى أن تنحل الأمة من الداخل ، تحت ضغط العزلة وعدم التفاعل والانفعال بقضاياها ، من قبل شبابها ! ..

وليس هؤلاء فحسب بل هناك جماعات أخرى انتشرت للفساد الاخلاقى والانحلال ، ويعتبرون أنفسهم طليعة التقدم والتمدن فى بلادنا ! .. وكان التقدم لا يكون إلا بالجنس والمخدرات والدعارة والعزى ونبذ القيم والحضارة ؛ والعيش فى مواخير الرذيلة ! .. أقرب هؤلاء من ذهنى الآن جماعات الهيز والدسكو وعبدية الشيطان وشاربى المخدرات ومروجيه .

أوليس كل هؤلاء شياطين تعمل على دحر قوة الأمة والفت فى جسدها ! .. ماذا

بقي للأمة إن ضربت في العراق أو لبنان أو ليبيا أو السودان أو الصومال ، فكانت عاجزة حتى عن التعبير عن أساها أو رفضها أو شجبها !!؟

ثم ماذا بعد عقائد موروثة لا أساس لها من الصحة في تصور المسلمين للجالس على عرش العالم هناك يذيق الأمة صنوفاً من الويلات والعذاب .. بل يتدخل في تصريف أمورها ليلاً ونهاراً ، في اليقظة وأثناء النوم ، في الصلاة أو في خارجها .. إنه الوهم والزيف والباطل والخرافة .. وعبادة ألف صنم ووثن من دون الله .

لاشك أن لليقظة والصحو الدينية الرشيدة والوعى الإعلامى الدينى أثر بارز في تحريك وجدان الأمة نحو الوحدة ونحو تصحيح العقائد ، وتكتيل وتكثيف عواملها في نفوس أبناء الأمة ، فالأمة في حاجة إلى إصلاح دينى في إطار العقيدة والقيم والحضارة .. لأن الغزو الثقافى ومحاولة تدعيم فكر الجبر والتواكل وإشاعة روح الانهزام من قبل الغرب مستمرة على قدم وساق ..

قابلت عالماً في التاريخ في إحدى الجامعات الأمريكية .. هو في الحقيقة موظفاً لجهاز المخابرات الأمريكية ، واحد المهتمين بالشرق الأدنى ومصر على قمة اهتماماته .. جاء من أمريكا خصيصاً ليدرس كتاباً عن القبور وزيارتها .. تعجبت كثيراً ، ولذلك سألته عن ذلك ، فأجاب بأن من أهدافهم تسليط الضوء على الإسلام الاصولى والسلفى .. فلما أعلنته بعدم فهمى .. أوضح لى أن الإسلام عندهم ليس واحداً ولكنه عدة أشياء .. فهناك الإسلام الاصولى والسلفى والإخوانى والقبورى والصوفى .. فهو أشكال وأنماط وصنوف مختلفة .. ونحن نحاول بعث مسائل الخلاف من قبر التراث حتى تلوكلها عقول المسلمين .

كان الرجل واضحاً .. ولم يتوار خلف أى قناع عند حديثه معى .. ولما علم أنى أحاول بعث الإسلام الفكرى الواعى ، من أجل نهضة الأمة ومواجهة الصراع المحتدم على العلم والثقافة .. والبحث عن المنهج فى التاريخ والمنهج فى الواقع ، والوحدة فى التاريخ والوحدة فى الواقع .. ورسم خطوات واضحة لعودة الأمة ، تجنبنى ولم أره بعد ذلك ! .. إن التراث الإسلامى مشحون بالنفيس والرخيص فى الوقت ذاته، وبعث الغث على حساب الرهان على الإسلام الآن؛ وكثير من الدارسين يقعون فى المنظور الأحادى عند القراءة وعند التفكير ، وهنا يقع الخلط بين ما هو ثابت وما هو متغير .

لن تبعث أمة العرب إلا إذا استيقظت مصر وأفادت على كل المستويات، ولن تبعث أمة الإسلام ؛ إلا إذا دعتها مصر إلى ذلك - بما لها من ثقل علمي وسياسي وحضاري وإسلامي .. ومصر على أولويات دولة الشيطان .. ولن تتركها تستفيق بسهولة .. فيا مصر حكومة وشعباً .. تألفي .. توحيدي .. استجمعي قواك الإيمانية ثم الاقتصادية .. والإعلامية .. إلخ .. فالعالم كله ينتظر لتعيدى له أمنه الذي فقده .. بعد أن سقط الغالم في براث القطب الواحد، وتلاشت التعددية السياسية والثقافية والاقتصادية؛ فصار الفقراء فريسة للأغنياء، والعالم الثالث سوقاً لامرئيكاً .. وتحكم فينا صندوق النقد الدولي والمنظمات الاستعمارية العالمية ..!

ابحثوا عن شيطان العالم الأكبر ، تجدوا خيوط الإرهاب الدولي مجتمعة هناك .. وابعثوا في خطط جماعات الإرهاب المسلح ، تجدوا السبب واضحاً في محاربة مصر ..

ليس من الصدفة إغراق السوق الثقافي بغشاء من التراث العربي والإسلامي .. وغشاء من كتب الجنس وفضائح الفنانين والسياسين .. إن الجامع يؤذن والحانة مفتوحة .. والمرأة تعبر من أمامي تلبس الحجاب ، فتصطدم بأخرى كاسية عارية .. والكاسيت يذيع شريطاً للشيخ عبد الباسط .. وبجواره بائع القصب يذيع شريطاً من شرائط الغناء الجنسي ، الذي تروج له دكاكين الكاسيت والإنتاج المشبوهة!!! .. وهو تعبير عن اللامبالاة والتجاهل والصمم ، وفقدان الحلم القومي الواحد .

عندما سكنت الأصوات الجميلة ، وتأخرت العقول المستنيرة ، سقطت الأمة .. وعلينا جميعاً أن نتجمع في صفوف المواجهة ، بقوة وحزم وإصرار على البعث .. فهل يعود البعث من جديد ؟!

إمام عبدالله

القاهرة في ٢٥ / ٢ / ٢٠٠٠

أولاً الدراسة

إبليس في التصور الإسلامي

بيك

الحقيقة والوهم

تأليف

أ / إمام حنفى عبد الله

المبحث الأول

في بيان حقيقة إبليس

ويشتمل على أربعة فصول،

الفصل الأول : إبليس والمعصية .

الفصل الثاني : خلق الله إبليس لطاعته .

الفصل الثالث : كيد إبليس في الواقع .

الفصل الرابع : في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم .

الفصل الأول
إبليس والمعصية

الفصل الأول

إبليس والمعصية

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢١) .

ذكر القصص والمحدثون روايات كثيرة في خلق آدم ومعصية إبليس لربه وخروجه من الجنة ثم حسده لآدم ووسوسته له حتى خرج هو وزوجه من الجنة هو الآخر ، واغلب هذه الروايات عبارة عن إسرائيليّات وأكاذيب وخيالات نسجها القصص وروجوها ؛ لرغبة الناس في سماعهم ورغبتهم في مزيد من المعرفة عن قصة الخلق ونشأة الوجود والكون والحياة .

فمن يكون إبليس وما اسمه ومن أي شيء خلق ، وما مدى صدق هذه الروايات التي تروى عنه وعن الجنة ١٩ .. كل هذه تساؤلات لم يقدم القدماء الإجابة عنها ، لأسباب كثيرة ، منها نهم العامة في معرفة هذه القصة ورغبتهم في القصص والحكاية ، وطبيعة الشعوب العربية التي تعودت على السماع في أنديةها وتجمعاتها .

وهناك في هذه الروايات أوشاب مختلفة من التأثير بالديانات الشرقية وعقائد المجوس والمناوية والثنوية ، بالإضافة إلى ما ذكرته التوراة وحكاية اليهود زيادة عما فيها ، فقد أضاف اليهود لتورائهم الكثير من الحكايات عن بدء الخلق وتاريخ الإنسان والمخلوقات ، حتى غفل بعضهم فحكى ما لم ير ولم يسمع عنه موسى ، عليه السلام ، أو يهودى على الإطلاق ١٠ .. فقصوا خبايا النفوس وما كان يحدث بين الجان وفي الغرف والأماكن المغلقة ؛ وقيل في المثل إن كنت كذوباً فكن ذكوراً ١١ .. إلا أن اليهود أثمة التزوير والتحويل والافتراء .. لم يستحقوا .. لأن للحياة أهله وهم لا يعرفونه !

القصص ؛ يروى أن إبليس من الجن واسمه الحارث وخلق من نار السموم ، وهذه المعلومات منها ما يمكن التثبت من صدقه ، عند عرضه على الكتاب ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (٢) .

(٢) سورة الكهف : آية ٥٠ .

(١) سورة البقرة آية ٣٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۚ ﴾ (١٥) .^(١)

وقال تعالى : ﴿ وَالْجَانُّ خَلْقُهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ۚ ﴾ (٢٧) .^(٢)

واختلف المتكلمون في إبليس ، هل هو من الملائكة أم لا ؟

(١) فقال قائلون : هو منهم ، ولكنه أخرج عن جملتهم ، لما استكبر على الله ، عز وجل .

(٢) وقال قائلون : ليس هو من الملائكة .^(٣)

ويروى ابن جرير حديثاً عن ابن عباس يحكى فيه أصل إبليس واسمه وكيف انضم إلى الملائكة وتربى معهم ، ثم يذكر الحديث نصاً ، يبرر به كيف بدأ الشر في الوجود ، فقد كان إبليس سيِّد طائفة من الملائكة دخلت في معركة مع الجن فسحقتهم وكان النصر لهم .. فقتلهم إبليس ومن معه ، حتى الحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فلما فعل إبليس ذلك اغتر في نفسه فقال : قد صنعتُ شيئاً لم يصنعه أحد ، قال : فاطلع الله على ذلك من قلبه ، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه .. يقول - أى الله عز وجل - : إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه ، من كبر واغترار .. إلخ وهكذا . إلا أن ابن كثير يعلق على هذه الرواية ناقداً لها : هذا سياق " غريب " . وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها ، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور^(٤) . وهو يشير إلى تفسير السدى .. وهو مطبوع تحت عنوان « تنوير المقباس في تفسير ابن عباس » .

وبعقب ذلك رواية أخرى عن ابن مسعود ، وعن أناس من أصحاب النبي ، ﷺ ، عن بدء الخلق وكيف خلق الله آدم واعتراض الملائكة ، وما بدى من إبليس من الاغترار والكبر ، ويعلق عليها تعليق الناقد البصير ، فيقول : فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدى ، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة ، فلعل بعضها مدرج وليس من كلام الصحابة ، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة ؛ والله أعلم .^(٥)

(١) سورة الرحمن آية ١٥ .

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ١١٤ / ٢ .

(٣) ابن كثير ٨٢ / ١١ .

(٤) سورة الحجر آية ٢٧ .

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٨١ / ١ .

وبأخذ على الحاكم روايته مثل هذه الإسرائيلية في مستدركه ، الذى استدرك فيه على الشيخين ما لم يروياه من الصحيح على شرطهما ، فيقول : والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ، ويقول على شرط البخارى . هكذا كان على وعى لخطورة مثل هذه المرويات ، ومع أنه ذكر ما سبقه إلى ذكره ابن جرير فى تفسيره^(١) ، حتى ليعتبر علماء التفسير تفسير ابن كثير مختصراً لتفسير ابن جرير ، خلا من كثير من الحشو والروايات الخرافية ، إلا أنه ذكر بعضها كذلك ، ونبه عليه فى أغلب الأحيان .

ولتعليل كيفية دخول إبليس عالم الملائكة ، نجد رواية جاهزة لذلك عن سنيد بن داود بسنده قال : كانت الملائكة تقاثل الجن فسبى إبليس ، وكان صغيراً ، فكان مع الملائكة يتعبد معها ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا ، فابى إبليس^(٢) .

ولكن محمد بن كعب القرظى يرى رأياً جبرياً خالصاً فى ربه فيقول بانه : « ابتداء خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة ، فصيره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر . وهذا الكلام – والعياذ بالله – يفترض أن الله خلق من خلقه عبداً ، ليكفروا به ويعصوه ويضلوا عباده ، وبالتالي فقد خلقهم للنار ابتداء . . . ولا أدري لم يقول فريق من الناس هذا الكلام ١٩ . . . غير أن المؤاخذة على من يصُرحُ أو يروى – دون نقد – لمثل هذا الاتجاه الغاشم ، الذى ينقض أسس التوحيد الإسلامى من الجذور .

عموماً علل المفسرون رفض إبليس للسجود لآدم ، كما أمر الله ، بانه حسد منه وكبر ، وهو صحيح ، فإبليس خلقه الله لطاعته ، كما خلق عباده ، وركب فيه حرية الاختيار ، دون أى جبر له على معصيته ، فاختر معصيته ، تعالى ، واختار آدم طاعته ، وذلك حسداً منه لآدم ، وكبراً أن يسجد كما أمره ربه .

ووقف العلماء عند قضية هل يعطى الله من يعصيه من الكرامات وخوارق العادات مثل ما يعطى أنبياءه وأوليائه ، فقال من نرى صحة رأيه : إن ذلك جائز على سبيل

(١) السابق ٨٣/١ .

(٢) انظر تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل أى القرآن تحقيق الاستاذ محمود شاكر ط . المعارف القاهرة .

الاستدراج والإمهال ، وقياساً على ما أعطى الله لابن صياد والدجال من خوارق المعاديات للفتنة والابتلاء^(١) .. وقد كان الشافعي يفرق بين الكرامة والاستدراج ، بعرض حال صاحبها على الكتاب والسنة ، فإن كانت لصاحب دين وتقوى عاملاً بالكتاب والسنة فهي له كرامة ، أما الآخر فهي له فتنة واستدراج^(٢) : «إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة»^(٣) . وهو معيار سليم وصائب للتمييز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . ولا اعتبار لخلاف المعتزلة مع أهل السنة في الكرامة؛ لأنها ثابتة بالكتاب والسنة ، واجمع السلف على ثبوتها في حق أولياء الله الصالحين ، ويجريها على أيديهم^(٤) .

إلا أن حديث المعجزة والكرامة أخذ منعطفاً آخر بعد الصدر الأول ، فغالي الرواة في ذكر معجزات النبوة لدعم قضية الإيمان في نفوس العوام؛ وغالي الصوفية في مسألة الكرامة ، والتي من أبرز خواصها الإخفاء ، حتى صارت في عداد الخرافة والكذب الصريح .

ويروى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي ذر ، قال : قلت يا رسول الله أرايت آدم أنبيأ كان ؟ .. قال : «نعم ، نبياً رسولاً يكلمه الله قبيلاً ، وقبيلاً يعني : عياناً» .. وهو كلام لا يصح ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٥) .. وهو من قبيل نقد المتن لتعارضه مع محكم الكتاب ، ولا حاجة لنا إلى دراسة السند ، لجواز صحته مع كذب المتن .. والمكذب هنا الراوى وليس النبي ، وهو أحد طرق نقد الحديث عند المحدثين ، وقد اتفق أهل السنة والمعتزلة على صور الوحى عدا المشافهة لنص الآية^(٦) . أما نبوة آدم ، عليه السلام ، فقد خالف فيها بعض العلماء ، والصواب أنه رسول ونبي ، ولا اعتبار لحجة الخصوم ، لقوة النص القرآني في دعم القول بنبوته .

(١) انظر على سبيل المثال الإيجي : للوقوف ، ص ٣٧٠ والباقلاني : البیان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والمارجعات .. والجويني : الإرشاد ، ص ٣١٦ - ٣٢١ .

(٢) البيهقي : الاعتقاد ١ ص ١٩٥ .

(٣) الباقلاني : السابق ١ ص ٤٥ .

(٤) شرح المقاصد ١٣٩/٢١ - وما بعدها .

(٥) سورة الشورى آية ٥١ .

(٦) انظر القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف ١ ص ٣٠٩ .

ويدلنا على تعقب المحدثين للرواية أن ابن جرير ذكر في نوع الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه ست روايات ، أربعة منها عن ابن عباس في أنها الكرم أو الحنطة أو البر أو السنبل ، وثلثين عن أبي مالك ووهب بن منبه أنها النخلة أو شجرة التين . . . وأمام حيرة الإمام الجليل ، ابن جرير الطبرى ، وضع ضابطاً لما تمنينا أن يستخدمه في تفسيره باستمرار في مواجهة الكم الهائل من الروايات الخرافية أو الموضوعية على رسول الله ، ﷺ ، والتي رد على من انتقده فيها بأنه رواها بأسانيداً ، وهو على علم بمعرفة المحدثين بقيمتها الحقيقية أو بمدى صحتها من وضعها ، غير أنه قد فاتته أن هذا التفسير سيعبر إلى عصور تجهل نقد الحديث وعلومه بالكلية ، وسيؤتى الإسلام من هذا الجانب بين مكذب لحديث رسول الله ، ﷺ ، ورافض له ، لجهله بالحديث رواية ودرايه ؛ وبين عوام يروجون للخرافات فإذا سألوا ردوا الأمر إلى تفسير الطبرى . . .

أقول وضع الطبرى في مواجهة هذه الروايات ضابطاً رائعاً وهو : « والصواب في ذلك أن يقال : إن الله ، عز وجل ثناؤه ، نهى آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعمين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة . . . وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به ، والله أعلم » (١) . ويقصد ابن جرير أن هناك علماً كقشور القمح أو كالطعام الفاسد ؛ لتفاهته لا ينبغي اجتراحه أو شغل الناس به .

ويقول ابن كثير في قصة آدم وإبليس ونزولهما من الجنة معلقاً على روايات الرواة : وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيد ، وأبى العالية ، ووهب بن منبه وغيرهم - ههنا - أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته .

ويبدو أن القدماء من القصاص كانوا يعجبون بإرضاء رغبات وميول العوام ، الذين يعنون بمثل هذا الأمور والتي تناسب عقولهم الكلييلة وأنظارهم الضعيفة ، وهى لهم مادة سمر معتبرة .

(١) انظر ابن كثير ، ٨٥/١ .

ولك أن تتأمل ما يذكره ابن كثير عن ابن جرير مختصراً في تفسيره ، عن قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٧) من أن الأمر آنف وكل شيء قرره الله قبل خلق الخلق ، فعلاً له وإرادة ماضية ، وقضاء وقدر لا يرد ، فمن عصاه عصاه بإرادته ورغبته في عصيانه ، ومن أطاعه أراد له الطاعة ، محبة فيه وتنفيذاً لما سبق وكتبه عليه في اللوح (٢٨) .

وهذا كلام ينقض آيات الكتاب ويهز عرش التوحيد والعدل ، ولا أرى كيف نقرأه كل يوم دون الوقوف – مجرد الوقوف – لفهمه والتنبيه عليه ١٩ . والرواية مهتزة فأبو إسحاق السبيعي يروي عن مجهول أشار إليه بقوله : عن رجل من بنى تميم وهو اسم لقبيلة الرجل وليس اسماً له ، قال : أتيت ابن عباس فسألته . . . وهذه الرواية لا تعينني في شيء والذي يعنيني التي تلتها ، حيث قال : وفي رواية قال – أي السبيعي – أخبرني مجاهد عن عبيد بن عمير ، أنه قال : قال آدم : يارب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبتة عليّ قبل أن تخلقني أو شيء ابتدئته من قبل نفسي ؟ قال : بل شيء كتبتة عليك قبل أن أخلقك . قال : فكما كتبتة عليّ فأغفر لي .

وفي هذا الحديث وأضرابه إشارة إلى أن المسلمين قديماً قد انقسموا إلى قائلين بالاختيار وقائلين بالجبر ، والاولون هم الأكثرون ؛ أما القلة التي روجت للجبر فاعلها من القصاص والرواة الذين قصرت عقولهم عن فهم الدين ، والحق يأتي عندهم بعد اكذابينهم ولا اعتبار لمدعى .

لم يأكل آدم من الشجرة إلا بعد أن أقسم له إبليس أن ما نهاهما الله عنه ، من الأكل من الشجرة ، لم يكن على سبيل التحريم ، وأنهما لا يستحقان بذلك عقوبة أصلاً ، بل يستحقان بذلك الجزاء الحسن وفوز الأبد ، قال ، تعالى ، حاكياً عن إبليس أنه قال لهما : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢٩) وقاسمهما إني لكم لمن الناصحين (٣٠) فلأهما بغرور (٣١) فلما نسي آدم ، عليه السلام ، عهد الله إليه في أن إبليس عدو له ، أحسن الظن بيمينه (٣٢) .

(١) سورة البقرة آية ٣٧ .

(٢) راجع القاضي عبد الجبار : المغنى ٦/ ٢١٨ - ٢٥٥ . والماتريدي : التوحيد ١ ص ٢٢٦ ، وما بعدها .

(٣) سورة الاعراف الآيات (٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) .

(٤) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤١ / ١٠ .

لقد كان كل فعل إبليس هو محاولة التأثير في قرار آدم واختياره ، بعد أن عقد العزم على طاعة ربه ، فلما نسى عصي ربه .. فلما عاودته طبيعة الخير والطاعة ، طلب من ربه التوبة والمغفرة .

وهكذا يتبين لنا أن الروايات التي أذاعها القصاص والمحدثون عن قصة خلق آدم وإبليس وما حدث بينهما، فيها كثير من الخرافات والأساطير التي روجها اليهود ، وتمكنت هذه الإسرائيلية من توجيه أذهان المسلمين نحو عقائد لا تصح في دينهم ولا سند لها، مثل كون إبليس خلق للمعصية والفجور ، ولو أراد أن يتوب فلن يجد إلى ذلك سبيلاً .. وأن آدم كان مجبوراً في عصيانه لربه .. أو أن لإبليس قدرة على الوسوسة والتأثير في خواطر آدم وزوجه ! ..

وهذا يجعلنا نوجه الحديث في الفصل القادم نحو خلق إبليس ، وهل خلقه الله لطاعته أم لمعصيته ، وكيف تصرف في الحقيقة .

* * *

الفصل الثاني

خلق الله إبليس لمأمنه

الفصل الثاني

خلق الله إبليس لطاعته

قال تعالى - فى سورة الاعراف - فى ثنايا حكايته لخلق آدم ومعصية إبليس : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ١١٦ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ١١٧ ﴾ (١).

فقد بينت الآية ووضحت أن إبليس خلق فى الأصل لطاعة الله وامتنثال أوامره وعبادته ، لا لمعصيته ومعاندته والإفساد بين العباد . فقضية أن يسجد أولاً يسجد كانت له هو باختيار مطلق حر جبله الله عليه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (١) ١١٩ ولا يمكن أن يسأله ، تعالى ، بيان سبب امتناعه عن سجوده وهو الذى منعه وجبره .. فإبليس كان قادراً على أن يطيعه إذ عصاه ؛ ولأن هناك سبباً داخله منعه - يخصه هو دون غيره - كان لابد من معرفته ، فلربما كان السبب له علاقة بحرية الاختيار والقدرة والاستطاعة عليه ، ولكنه كان فى النهاية راجعاً إلى كبره وصلفه على أن يطيع أوامر مولاه وخالفه والسجود - امتثالاً وخضوعاً له - لعبده آدم إذا أمره ؛ فقال ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ (١) ، وكيف يسجد الأفضل للمفضول ؟! .. هذا ما ظنه وهو قائم على اعتقاد خاطئ عنده أن النار خير من الطين وأشرف ..!

وهو قياس خاطئ كذلك ؛ لأنه نظر إلى عنصره وإلى عنصر آدم ، ورأى أن عنصره الذى خلق منه خير من عنصر آدم ، ولم ينظر إلى تشریف الله لآدم حين خلقه بيديه ، ولا تشریفه له حين أمر الملائكة بالسجود له تشریفاً وتعظيماً ..

ثم كيف قطع وجزم بأن النار خير وأشرف وأفضل من الطين ؟! .. فلربما كان الطين أفضل من النار فى أصل العنصر وهو لا يدري ، وأكثر نفعاً وفائدة من النار .. ولذلك ينبغى عدم الاعتماد على ظواهر الأشياء عند الحكم عليها ، لمخادعة هذه الظواهر للنظر إليها ، وكذلك سبر غورها لمعرفة كنهها ؛ والتأكد من صحة القياس وصوابه عند ضرورة القياس ؛ ونفى شهوات النفس وميولها ورغائبها عند الحكم على الأشياء ؛

(١) سورة الاعراف الآيات (١١ - ١٢) .

واعتماد الخبرات السابقة ، واحترام من تأكد لدينا صدق نصحه وتوجيهه وإرشاده ، وكل ذلك عانده إبليس فى الظاهر والباطن ، فكان حكمه مغالطاً للحقيقة والواقع .

ولنا وقفة مع مفهوم السجود فقد اختلف العلماء حوله هل كان لله أم لآدم ؟ .. فقال بعضهم أنه كان له تعالى ، لخلقه عبده آدم على هذه الصورة .. فقال : اسجدوا لى لعظمة خلقى لعبدى آدم .. وهؤلاء قالوا أنه لا يجوز السجود لغير الله مطلقاً .. أما كيف كان السجود ؟ .. فقد قالوا أنه كان إيماء أو أنه كان بمعنى الخشوع والامتثال ، يقول الزمخشري : « السجود لله ، تعالى ، على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكرمة ، كما سجدت الملائكة لآدم ، وأبو يوسف وإخوته له ، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه » (١) .

لقد كان إبليس فى منزلة رفيعة شريفة فى الجنة ينعم فيها برضا ربه عليه ، ولكنه عصاه وتكبر وذهب مغاضباً ، لحسده آدم وكبره فى نفسه ؛ وهذه الآفات لا ينبغي أن تكون فى عباد الله المتقين ؛ ومن يقتربها وجب أن يخرج من رضا الله إلى سخطه ومن جنته إلى عذابه ، قال ، تعالى : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٢) ، فالكبر أخرجه وحوله من منزلة المكرمين إلى درجة الأذلاء المحتقرين .

وكان لإبليس - ومتاح له - فرصة بعد أخرى ليتوب إلى ربه ويعود إلى كنف طاعته ، إلا أن كبره منعه ، فى حين سأل آدم ربه التوبة - بعد أن عصاه - فتأب عليه ؛ وهنا ينبغي الوقوف لبيان أن آدم وإبليس ، كانت لدهما فرصة متساوية للتوبة والإنابة ، فاغتنمها آدم ؛ ولم يمنع الله إبليس من التوبة ، ولو تأب إليه لتاب عليه ؛ ولكنه أثر الهوى والكبر ولعبت به شهوات نفسه فلج فى عناده ، وبدلاً من أن يتوب قال لربه : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْتَوْنَ ﴾ (١٣) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٤) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٥) ثُمَّ لَأَنْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١٦) .

(١) الزمخشري : الكشاف ، ١/ ١٣٧ .

(٢) سورة الاعراف الآية ١٣ .

(٣) سورة الاعراف الآيات (١٤ - ١٧) .

أن يخرج إبليس من الجنة ويتحول من دار الكرامة إلى دار المهانة ومن منزلة التشريف إلى الذلة والصغار ، هذا ما زاد حنقه وغيظه ؛ وعول السبب - فى ذلك كله - على آدم الذى عرف تاريخ ميلاده وقرا سيرته هو وذريته ، ونسى أن السبب الحقيقى من عنده هو ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ ^(١) لقد فسد داخله ففسدت تصرفاته ونظراته للأشياء ؛ وتعجل شأن نفسه وقطع عليها طريق العودة إلى كنف الطاعة ؛ وطلب من ربه أن يطيل فى عمره إلى يوم القيامة ، والذى كان يعرفه ، وأن لا يقضى عليه الموت إلى ذلك الحين ، فأجابه الله إلى طلبه وسأله ؛ وعادته الفرصة مرة أخرى وامهل لعله يتوب ؛ ولكنه أبان عن سوء قصده ونيته ؛ فاقسم على ربه ، بما قضى عليه وقدر من المهانة والذلة والاحتقار ، أن يفعل ببني آدم ما يلحقهم بالعذاب والذلة يوم القيامة .

وهو قريب من رسم خطة فى الفساد ، ومنهج فى إضلال عباد الله ؛ خلقه الله لطاعته فأثر معصيته ، وخلقه للإيمان فكفر وسمى فى الأرض فساداً ؛ فقال : لا ترصدن لهم عند كل صراط مستقيم لإضلالهم ، وسافعل جهدى ووسعى حتى يكفروا بك ، فيجب عليهم ما وجب على بسوء فعلى ! .

ولا ينبغي التسرع فى فهم هذه الآية ، فهذا مجرد كلام نافه من عبد تافه ضعيف ذليل أبان عن كمده وغيظه - فرقة ، أو إرغاء ، أو تهويش - يقول ابن كثير : « وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق الواقع ^(٢) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَرْبُطُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ ^(٣) .

فإبليس ليس فى يده تقديم شئ أو تأخير ، أو هداية أحد أو إضلاله ، وكأنه تعالى يقول له ﴿ اذهب فأرني ما بوسعك أن تفعل ﴾ .. معنى : أنت يا إبليس أعجز من أن تفعل شيئاً مما تقول . ووافق ابن قتيبة ما سبق من تاويل هذه الآية فقال : تاويله أن إبليس لما سأل الله ، تبارك وتعالى ، النظرة فأنظره ، قال : لا غوينهم ولا ضلنهم

(١) سورة الاعراف الآية ١٣ .

(٢) ابن كثير ٢٢٩/٢١ .

(٣) سورة سبا : (٢٠ - ٢١) .

ولا منيهم ولا أمرتهم فليبتكن آذان الأنعام، ولا أمرتهم فليغيرن خلق الله، ولا تخذن منهم نصيباً مفروضاً^(١).

وليس هو - في وقت هذه المقالة - مستيقناً أن ما قدره الله فيهم يتم؛ وإنما قاله ظاناً، فلما اتبعوه وأطاعوه، صدق ما ظنه عليهم أى فيهم؛ ثم قال الله: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم من يؤمن، أى المؤمنين من الشاكين^(٢).

وهكذا يتبين لنا باليقين أن الله خلق إبليس لطاعته وعبادته؛ ومنحه القدرة على ذلك، وكلفه ما هو فى وسعه وطاقته؛ وكرمه تكريماً كبيراً حين أطاعه بأن جعله سيداً أو رئيساً أو كبيراً لطائفة من الملائكة ياتمرون بأمره فى الجنة، وحاز من الولاية منزلاً رفيعاً؛ ولأن التكليف ابتلاء، واختبار فى أن يطيع العبد ربه أو لا يطيعه سألته، عز وجل، أن يمثل لأمره بالسجود لآدم.. فأبى وعصى وأبدى من منكر القول والفعل ما استحق عنه الطرد من رحمة ربه.

ولعله كان أمام إبليس نماذج من الخلق عصوا ربهم فعذبهم الله، وكان إبليس أحد جنود الملائكة الذين قاموا بطاعة الله فى إهلاكهم.. فتعجب من عصيانهم رب الأرباب.. وتسائل عن أسباب الكفر والعصيان الذى وقعوا فيه، وعرف أنه الكبر والعناد ورد أمر الله وعدم الامتثال له..

وهذه هى الآفات النفسية التى كانت متوارية فى إبليس، أظهرها كرده وغيظه من آدم وحسده له.. فاقسم على التمدادى فى المعصية بدلاً من طلب المغفرة؛ وما كان قسمه إلا ظناً وافق ما فعله كثير من عباد الله من أولاد آدم.

* * *

(١) فى سورة النساء الآيات (١١٧ - ١١٩) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِىَ إِنْ أُنْتُ أَنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝ (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْإِنْعَامِ وَلَأَمُرَّنَّهُمْ فَلْيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝ (١١٩)﴾.

(٢) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص ١ ص ٣١٠.

الفصل الثالث كيد إبليس في الواقع

ويشتمل على خمس نقاط:

- ١- كيد إبليس .
- ٢- مس إبليس .
- ٣- نزع إبليس .
- ٤- إبليس والرسول .
- ٥- إبليس وعيسى، عليه السلام .

١- كيد إبليس

إن خطوات الشيطان فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٦٨) (١) هى معاصيه ؛ وكل معصية لله فهى من خطوات الشيطان ؛ وهى نزغاته وخطوؤه وخطاياها ؛ فمن فعل كفعله وسار على منهجه كان تابعاً له ، ولذلك كان السلف يذهب إلى أن النذر فى معصيته هو من خطوات الشيطان التى ينبغى التكفير عنها (٢) .

ويُفسرُ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٦٩) (٣) فى ضوء قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ (٤) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (٥) (٥) ؛ فهو مجرد طلب وسعى وليس فيه جبر أو قهر ؛ وهو مجرد إيهاء من شياطين الإنس - لا الجن - لنطعم الخبيث من الطعام ونشرب الخبيث من الشراب ؛ والظاهر أن شياطين الإنس هى التى تسعى فى هذا الأمر وتحتال على من تريد حتى تغويه . فالصحبة السيئة فى البيئة الفاسدة هى التى عصت ربها وامتلئت لأمر شيطانها فمالَت وغوت ، وكل من ينقاد لها مثلها تماماً .

وهكذا قال فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٦٩) (٦) .

أى طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله (٧) . ولا يعقل ممن حذرنا من خطوات الشيطان وطريقه أن يسلطه أو يقدره علينا من أى سبيل ! .. قال الزمخشري : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٨) ، فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية (٩) .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ

(٥) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٦) سورة الأنعام : ١٤٢ .

(٧) ابن كثير ٢/٢٠٥ .

(٨) الزمخشري ، الكشاف ، ٢/٧٣ .

(١) سورة البقرة آية ١٦٨

(٢) ابن كثير ١١/٢١٨ .

(٣) سورة البقرة آية ١٦٩ .

(٤) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

الْقُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴿ (١) ، لقد أقام الله أسس الجزاء في الإسلام على أساس الثواب والعقاب ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ (٢) ، ولذلك كان صادقاً في وعده ووعيده ، بلا إيجاب عليه ولا فرض ، فهو القادر على إنفاذ جزائه تصديقاً لما أمر ، وهو أيضاً القادر على التجاوز والعفو تفضلاً لمن أراد ، ولا تعارض بين العدل والعفو؛ لأنهما من إله واحد أحد ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾ (٣) .

والدنيا تسحب أبناءها خلفها بإغرائهم وبما أبدوه من ميول ورغبات في إشباع غرائزهم ، فغايبتهم اللذة والمنفعة وإشباع الهوى ، والشيطان على قارعة الطريق يزين لهم الباطل ويهون عليهم شأن المعصية ، ويزهدهم في وعد ربهم ويطمعهم في عفوه ، بعد أن حذرهم - تعالى - الوقوع تحت طائلة عقابه .

فهل يعقل ، بعد أن قص ربنا علينا خصومة إبليس لآدم وذريته ، وبعد ما كان وأبدي من بغضاء وحسد لأبينا ولنا ، أن نتبعه ونتولاه وهو القائد للهلاك والضلال !!؟

فتذكر ، ما نسيتم من شأنه ، واحذروا أن يضلحكم في عقائدكم أو أعمالكم؛ وأبدوا له العداء سافراً كما أبداه لكم؛ ولا يكون ذلك إلا بالإيمان والمعرفة وإرساء قاعدة الولاء والبراء ووزن إبليس وحزبه بميزان الحق ، وبغضهم (٤) في الله والحذر منهم في كل وقت وحين ، ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ (٥) ، واعتبار اتباع الشيطان ظلماً وأصحابه ظالمين ﴿ ... بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٦) ﴾ (٦) .

(١) سورة فاطر آية ٦

(٢) سورة الزلزلة الآيات ٧ - ٨ .

(٣) سورة الانبياء آية ٢٣ .

(٤) انظر الزمخشري ٥٩٩/٣ .

(٥) سورة الاعراف آية ٢٧ .

(٦) سورة الكهف آية ٥٠ .

٢ - من إبليس

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا التَّبَعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ التَّبَعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا... ﴾ (١) .

يقول ابن كثير : « أى لا يقومون من قبورهم - يوم القيامة - إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخطيط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً » . (٢)

والتخبط عبارة عن الضرب على غير استواء واتساق ، أما المس فهو الخبل والجنون (٣) ؛ فالمتعاملون بالربا المستحلون له لا يقومون يوم البعث إلا كقيام المصروع الذى تخبله الشيطان وصرعه ؛ وهو تشبيه جاء على ما تعارفه العرب فى لغتها من إضافة الصرع وكل شئ قبيح إلى الشيطان ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُعُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٤) .. واختار الرازى أن المراد بمس الشيطان : « دعاؤه إلى طلب الملذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن استجاب له كان متخبطاً فى أمر الدنيا ، فتارة يحجره الشيطان إلى الهوى وتارة يحجره الملك إلى الهدى . واكل الربا مفرط فى حب الدنيا فإذا مات على ذلك الحب صار حجاباً بينه وبين الله تعالى ، فالتخبط الذى كان حاصلًا له فى الدنيا بسبب حب المال أورثه خبطاً فى الآخرة » .

فالناس يخرجون من قبورهم مسرعين ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (٥) ؛ إلا أكلة الربا فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ويسقط ؛ لأنهم أكلوا الربا فى الدنيا ، فأرباه الله فى بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم ، فهم يدهضون ويسقطون ويهردون الإسراع فلا يقدرّون .

وقال الزمخشري : تخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . كما قال : إنهم يزعمون مس الشيطان للإنسان : « وهذا أيضاً من

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥ .. وتفسير الطبرى ٢٧/٣ - ٦٨ .

(٢) ابن كثير ١١/٣٥٠ .

(٣) انظر المعجم الوسيط ١١/٢١٥ مادة خبط ٢١٥/٢١٥ مادة مس .

(٤) سورة الصافات آية ٦٥ .

(٥) سورة المعارج آية ٤٣ ، وانظر تفسير الطبرى ٢٩/٥٥ ، والاجداث : القبور .

زعمائهم، وأن الجنى يمسسه فيختلط عقله... ورايت لهم فى الجن قصص واخبار وعجائب وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات...^(١).

وفى الآية بيان أن هناك من الناس من يمسسه الشيطان بالجنون^(٢)، وهو صحيح مشاهد فى حق من غفل عن ذكر الله وعن الصلاة، فتتوزعه الأهواء وتشتت شمله الأفكار فتذهب قوى عقله ويصير مجنوناً.

وقد أعجبني التفسير الصوفى لهذه الآية إذ صرفها إلى محض جزاء القدرة الإلهية بنفس العبد العاصى الخارج عن حدود الأدب؛ إذ أقبل على المعصية بعد معرفة حكم الله فيها معلناً تجاوزه لأمر ربه، وقد سقطت هيبة هذا الأمر فى الظاهر بعد سقوطها فى الباطن، فاستحق التأديب باضطراب أحواله، وكذلك الصوفى يحدث له ما يحدث لأكل الربا إن تعدى حدود الأدب، وتفلت عليه نفسه فأجازت له ما يسو من الخواطر الشاردة أو الفاسدة فيحدث له ما قال عنه شيخ الصوفية وإمام الطريقة سابر أغوار الحقيقة: «من أعرض عن الأمر، ورخص لنفسه، بما يسو له خاطره من التأويل، فلا استقلال لهم فى الحال ولا انتعاش فى المآل؛ خسروا فى عاجلهم، ولم يربحوا فى آجلهم».

ومن انتبه بزواج الوعظ، وكبح لجام الهوى، ولم يطلق عنان الإصرار، فله الإمهال فى الحال؛ فإن عاد إلى مذموم تلك الأحوال، فلينتظر واشك الاستشصال وفجأة النكال^(٣).

وهو فهم رائع يحتمله النص فى إطار التفسير النفسى لخبايا النفس الإنسانية فى القرآن وعند الصوفية بعيداً عن الخرافة والتسطيح.

(١) الزمخشري: الكشاف، ١/ ٣٢٠.

(٢) الطبرى ٦٨/ ٣

(٣) القشيري: لطائف الإشارات ١١/ ٢١١

٢- نَزْغِ إبليس

قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (٥٢) ﴿ (١) .

النزغ النخس .. ونزغ الدابة : نسخها وحشها على الجرى . ويقال : هذا من نزغه الشيطان : أى وسوس له وزين له ما يريد فحركه إلى فعله .

والنزغ يأتى مصدراً ويأتى بمعنى ما يوسوس به الشيطان من سوء كالأفراط فى الغضب .. ونزغ بين الرجلين : أفسد بما يوقع بينهما من العداوة والبغضاء (٢) .

وتفسير الآية أن الله ، تعالى ، أوحى إلى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الاحسن والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك ، نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم ؛ وعداوته ظاهرة بنية، ولهذا نهى أن يشير الرجل الى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده أى فرما أصابه بها (٣) .. ويستوى فى هذا النزغ شيطان الإنس والجن (٤) .. وقال الزمخشري مثل ذلك : « النزغ : اعتراض ، يعنى يلقى بينهم الفساد ويفرى بعضهم - على بعض ليقع بينهم المشارة والمشاقة » (٥) ، ولا يحدث لهم ذلك إلا إذا بعدوا عن منهج ربهم وطريقه وجعلوا كتابه وأحكامه وراءهم ظهيراً . فالشيطان عدو للطهارة والأطهار ، والوحدة والقوة والذكر .

وهذا ما تفعله إسرائيل دائماً وأبداً، تعمل على إفساد ذات البين، وتمزيق الصف العربى، وكأنها رسول الشر فى المنطقة العربية...! وحق لها ذلك طالما أنها تستشعر من نفسها تفوقاً عسكرياً وذرياً ، أو تفوقاً اقتصادياً عن طريق حليفاتها الكبرى سيدة العالم...!

(٢) انظر للمعجم الوسيط ٩٢١/٢١ مادة نزغ .

(١) سورة الإسراء آية ٥٢ .

(٣) انظر فى ذلك ما رواه مسلم والترمذى ، والحاكم فى مستدركه ، مسلم ١٦٩/١٦٩ (كتاب القهر والصلابة) ، والترمذى ٤٠٣/٤ (كتاب الفتن ، باب ٤) حديث (٢٦١٢) ، وأحمد ٢٥٦/٢ - ٣١٧ - ٢٢٦/١ ، والطحاوى ج

(٥٢٠ و ٨٨٤) ، والسيوطى فى الجامع الصغير ١٦٤/٢١ ، وهو صحيح .

(٥) الزمخشري الكشاف ٦٧٢/٢ .

(٤) ابن كثير، ٥٢/٣ .

٤ - إبليس والرسول

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٢) ﴿ (١) .

يعلق ابن كثير على قصة الغرانيق وما قيل فيها على السنة المفسرين قائلًا : « ولكنها في طرق كلها مرسله ولم أرها مسنده من وجه صحيح .. قال ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ (٢٠) ﴿ (٢) قال : فلقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن تترجى ، قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ .. ﴾ (١) .

وقال ابن أبي حاتم بسنده (٣) كذلك عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر ، وكان رسول الله ﷺ اشتد عليه ماناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم ، فكان يتمنى هداهم .

فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ (٢٠) ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ (٢١) ﴿ (١)لقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى تترجى ، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة وذلت بها السننهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ،

(١) سورة الحج آية ٥٢ .

(٢) سورة النجم الآيات من ١٩ - ٢٠ .

(٣) وأخرجه كذلك البزار والطبرانى وابن مردويه .

(٤) سورة النجم الآيات من ١٩ - ٢١ .

غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه ، فعجب الفريقان - كلاهما - من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ .. إلخ .. : وهذا - ايضاً - مرسل ، وكذلك ما ذكره القصاص واصحاب المغازي والسير : « وكلها مراسلات ومنقطعات » .

وقد ذكر البخاري في كتاب التفسير ، باب : « فاسجدوا لله واعبدوا » حديثاً جاء خاتمة لما رواه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب ، فرفع الحديث إلى ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : « سجد النبي ﷺ بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » (١) .

وروى عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة ، والنجم ، قال : « فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيت أنه بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف » (٢) .

علق الكرماني على من قال بأن سجود المشركين كان لمالقى الشيطان في أثناء قراءة رسول الله ﷺ قائلاً : لا صحة له عقلاً ولا نقلاً (٣) .

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح أن ما جاء في قصة الغرائيق له أصل ؛ لأنه روى من ثلاثة طرق كلها مراسيل ، ولكن منها ما هو على شرط الصحيح ، ولكنه أثر تأويل القصة ؛ وأحال أخذها على ظاهرها ؛ لأنه يستحيل ، عليه الصلاة والسلام ، أن يزيد في القرآن - عمداً - ما ليس منه ، وكذا سهواً ، إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته ؛ وللعلماء تأويلات عديدة منها القوى ومنها ما لا يصح ، من ذلك أن ما جرى كان في سنة من النبي ﷺ ، أصابته ؛ فلما علم بذلك أحكم الله آياته .

وبعضهم قال بأن الشيطان الجاه ﷻ لما قال ، وهو مصادم للعصمة والنبوة من كل وجه ؛ فلو كان للشيطان قوة على ذلك لما بقى لأحد قوة في طاعة ؛ وقال آخرون أن ما ذكره النبي كان على سبيل التوبيخ للكفار ، وأخذ بهذا الأخير القاضي عياض في « الشفاء » ، والباقلاني .

(١) ، (٢) انظر الفتح ٨٤ / ٤٨٠ كتاب التفسير حديث ٤٨٦٢ - ٤٨٦٣ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ٨ / ٤٨١ .

غير أن الحافظ ذكر وجهاً وصفه بالقوة والاستحسان ، وهو أن الشيطان تخين سكتة من سكتات النبي ﷺ فنطق بما نطق ، بعد أن حاكى صوت النبي ونغمته ، وتبعه في استحسانه ابن العربي وعزا ذلك للطبري^(١) ؛ وهو وجه لا يخلو من نقد وضعف لما فيه من تسلط عدو الله على نبي الله ؛ وقدرته على التمثيل والوحى مما يقدرح في الكتاب ، ثم أتى له ذلك والله من يبلغ على لسان نبيه المعصوم ١١

وقد برر الزمخشري هذه الرواية مصاحباً لمن يشبثها فيقول : « إن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت ، مكن الله الشيطان ليلقى في أمانيتهم مثل ما ألقى في أمانيتك ، إرادة امتحان من حولهم ، والله ، سبحانه ، له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ، ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد في عقاب المذنبين . »^(٢) والتساؤل الذي يرد على الزمخشري أنه من قال أن ما يفعله الشيطان تمكين من الله له ، ثم هل يمكن الله لأعدائه من أوليائه ؟ وما فائدة هذا التمكين إذا كان الله سينسخ ما يلقي الشيطان - الذي مكنه من قبل - ويحكم آياته ؛ معلناً قدرته وعظمته علمه وخلقه وأمره ١١٩ ..

ادعى صاحب « الانتصاف » أن مجموع طرق هذا الحديث يقوى بعضها بعضاً ، وعلق على ابن عياض حيث قال : إن من ذكر من المفسرين وغيرهم - أى لهذه الرواية - لم يسندوها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار .

وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره ، وفيه ما فيه مع وقوع الشك ، قلت : أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلاً . فإن الجميع ثقات ، وأما الشك فيه ، فقد يجيء تأثيره ولو فرداً غريباً ، لكن غايته أنه يصير مرسلأ ، إنما هو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة ، أما هو حجة إذا اعتضد عند من يرد المرسل ، إنما يعتضد بكثرة المتابعات ، بتتبع ثقة رجالها .

وأما طعنه فيه اختلاف اللفاظ ، فلا تأثير للروايات الضعيفة الواهية في الرواية القوية . فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة ، أى يعتمد على الرواية المتابعة ، وليس فيها ولا فيما تابعها اضطراب ، والاضطراب في غيرها ، فيكفى لأنه ضعيف

(١) الفتح ٨١ / ٢٩٢ - ٢٩٤

(٢) الزمخشري : الكشف ١٦٥ / ٣١

برواية الكلبي، ويكفى ما عداها ؛ وأما طعنه فيه من جهة المعنى، فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصحاح التي لا تؤخذ بظاهرها، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين^(١).

ومع أن هذا المصنف يأخذ بالظاهر دائماً وينقد القائلين بالمجاز والتأويل، إلا أنه هنا بعد أن أثبت الحديث؛ قبل التأويل.

لقد آثرت ذكر ما سبق لبيان أن سبلاً من الروايات تراحم على الشغب وتشويه هذا الدين؛ وخاض العلماء في معصيات من الخرافة وصار للهزل سوق؛ وخاض الجميع في التفسير والتأويل والتصديق والتكذيب لمثل هذا الكلام... ولا تفسير لذلك عندي إلا تضيق الحكام على العلماء، فحرموهم من ممارسة حرية التفكير في السياسة أو الإصلاح الاجتماعي أو الاقتصادي أو حتى الديني في كثير من الأحيان، فلم يبق لهم إلا هذه الشقشقات الغريبة على الدين والإغراق في اللفظية، التي أدت بدورها إلى التوقف عند القشور، أو تعمد تحقيق الخرافة ثم تأويلها...!

وأحياناً يذكر المفسرون نهافت مثل هذه الروايات، فاسمع البغوي يتسائل قائلاً في تفسيره: «كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله، تعالى، لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه...»^(٢) ونحن معه نتسائل ولا نجد إجابة سوى أن إغراقاً وسبلاً من المفتريات قد داخلت الحديث، ومع أن المحدثين تمكنوا من نقدها، إلا أن هناك ما يحتاج للنقد بشدة في ضوء منهج النقد الداخلي للنص... أو نقد المتن الذي عرفه علماء الحديث وأصلوا له، ولكنهم لم يستخدموه بكثرة لتنقية حديث رسول الله ﷺ، من كثير من النصوص التي لا تصمد للنقد، إن عرضت على الكتاب الكريم والسنة المطهرة، أو على أصول التوحيد والدين؛ أو ما اشتهر عن الصحابة، أو ما صح من قواعد العقل، حيث أن العقل، الصريح لا يتناقض - إن سلمت أدواته - مع النقل الصحيح، والله أعلم.

(١) المصدر السابق، بعنه بالهامش.

(٢) ابن كثير ٣١ / ٢٥٤، والزمخشري ٣٣١ / ١٦٤.

٥ - إبليس وعيسى

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الدَّمَكَرُ كَلَّا لَأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٣٦) (١).

أى عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام ، فاستجاب الله لها ذلك (٢) . وأعيذها بك : أمنعها وأجيرها بحفظك ، من العوذ ، وهو أن تلتجئ إلى غيرك وتتعلق به . يقال : عاذ فلان بفلان إذا استجار به ؛ ومنه العُوذة ، وهى التميمية والرقية (٣) .

ذكر البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من بنى مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان ، غير مريم وابنها . ثم يقول أبو هريرة ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٣٦) (٤) .

وقال الحافظ ابن حجر : قوله : « غير مريم وابنها » . تقدم فى « باب إبليس » بذكر عيسى خاصة ، فيحتمل أن يكون هذا بالنسبة إلى المس ، وذاك بالنسبة إلى الطعن فى الجنب ، ويحتمل أن يكون ذاك قبل الإعلام بما زاد ، وفيه بعد لأنه حديث واحد ، وقد رواه خلاص عن أبى هريرة بلفظ « كل بنى آدم قد طعن الشيطان فيه حين ولد غير عيسى وأمه ، جعل الله دون الطعنة حجاباً فأصاب الحجاب ولم يصبهما » (٥) .

والذى يظهر أن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر ؛ والزيادة من الحافظ مقبولة ، وأما قول بعضهم يحتمل أن يكون العطف التفسيري ، والمقصود الابن ، كقولك : اعجبني زيد وكرمه فهو تعسف شديد (٥) .

وقد طعن الزمخشري فى معنى هذا الحديث وتوقف فى صحته فقال : « إن صح هذا الحديث فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها ، فإنهما كانا معصومين ، وكذلك من كان فى صفتها ، لقوله تعالى ﴿ لَاغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا

(٢) ابن كثير ١ / ٣٨٥ .

(١) سورة آل عمران آية ٣٦ .

(٣) انظر صفوة البيان لمعانى القرآن ، ص ٧٩ .

(٤) البخارى ٦١ / ٥٤١ حديث (٣٤٣١) ، وكذلك ٨ / ٦٠ حديث ٤٥٤٨ ورواه مسلم وأحمد .

(٥) الفتح ٦١ / ٥٤٢ .

عبادك منهم المخلصين ﴿١﴾ قال : واستهلال الصبي صارخاً من مسّ الشيطان تخييل لطعمه فيه ، كأنه يمسّه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا ممن أغويته ﴿٢﴾ .

وأما صفة النخس كما يتوهمه أهل الحشو فلا ؛ ولو ملك إبليس على الناس نخسهم ؛ لامتلات الدنيا صارخاً ﴿٣﴾ !

ورغم تعرضنا لهذا الحديث فيما بعد .. إلا أن هناك دائماً من يرى قبولاً ورضاً عندما تصح لديه رواية تدعو للتجسيم أو التشبيه أو تترك المسلمين في بلبلة وحيرة ، ثم يأتى فيتفنن فى الجمع بين المتقابلات أو يروج للآراء الفاسدة المتناقضة ! .. فيجوز لديه الحق والباطل والتوحيد والشرك والإيمان والكفر ، ويؤخر العقل وأسس الشرع لما بعد ذلك .

ومن ذلك قول صاحب « الانتصاف » عن الحديث : « أما الحديث فمذكور فى الصحاح متفق على صحته ، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه ، عليه السلام ، بتحمله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع فى فلسفة منتزعة فى إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض .. وما أرى الشيطان إلا طعن فى خواصر القدرية حتى يتخيل ، كما قال فى هذا الحديث ، ثم نظره بتخييل ابن الرومى فى شعره ؛ جراءة وسوء أدب ، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً ، لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب ، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لا يمكن - على بعد - أن يكون تمثيلاً .

وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخيل ، إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل ، ﴿٤﴾ .

وهذا الرجل أشعري يدين بالجبر وينبذ الاعتزال الذى يتبنى فكرة التوحيد والعدل وحرية الإنسان فى الاختيار والفعل ؛ ومع أن كلامه فى مجمله ضرب من الهذيان والسباب ؛ إلا أن لنا عليه تعليق بعد ذلك . ولو علم أن الدين فوق المعتزلة والاشعرية وصراع المذاهب ، وأنه مسئول عما يقول يوم القيامة ، لما قال ما قال ، ومن الذى طعن الشيطان فى خاصرته ، الذى يريد لدينه أن يبرأ من الخرافة .. ولتوحيدده أن يسلم من الشرك وأفعال الشيطان أم من يجعل الشيطان شريكاً لربه !! ..

(٢) انظر فتح البارى ٨٤ / ٦٠ ، والزمخشري ٣٥٧ / ١١ .

(١) انظر الزمخشري : الكشف ٣٥٧ / ١١ .

(٣) الزمخشري : الكشف ٣٥٦ / ١١ .

الْفَضْلُ الْإِسْلَامِيُّ

في ذكر الجنة وثوابهم وعقابهم

ويشتمل على نقطتين:

- ١ - الجن وثوابهم وعقابهم .
- ٢ - الجن قبل وبعد البعثة .

١ - الجن وثوابهم وعقابهم

عقد البخارى فى صحيحه باباً عن الجن ، ومن قبل عقد باباً عن إبليس وجنوده ؛ وذلك لاهمية الموضوع فى الإسلام عقيدة ومعرفة .. وبنى الحافظ الكبير ابن حجر العسقلانى على ذلك مقالته عن الجن ، ورأى علماء المسلمين وغيرهم فى وجودهم وطبيعتهم ؛ ومصادر معرفتهم ، وتكليفهم ؛ وحياتهم ، وجزائهم ..

قال الإمام البخارى : باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم . لقوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾ (١) . وقال مجاهد ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِيبًا ﴾ (٢) : قال كفار قريش : الملائكة بنات الله وأمهاتهم بنات سروات الجن ، قال الله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ (٣) : سيحضرون للحساب . ﴿ جُنَّةٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾ (٤) عند الحساب .

- وروى بسنده عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة الأنصارى عن أبيه انه أخبره ان أبا سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال له : وإنى أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شئ إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ ، (٥) .

وتتضمن ترجمة البخارى شيئين هو إثبات وجود الجن وكونهم مكلفين .

- أما الأولى : وهو إثبات وجودهم : فقد اختلف فيه أهل الملة مع الزنادقة والفلاسفة والقدرية الذين أنكروا وجودهم رأساً ، وهذا هو ما ذكره الجوينى إمام

(١) سورة الانعام الآيات ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٥٨ .

(٣) سورة الصافات : نفسها .

(٤) سورة يس الآية ٧٥ .

(٥) البخارى ، ٦ / ٣٩٥ حديث ٣٢٩٦ .

الحرمين في كتابه «الشامل» .. وهو يقصد الفلاسفة غير الإسلاميين أصحاب فلسفة الإشراق وعلى رأسهم الكندي والفارابي وابن سينا ، لأن هؤلاء يؤمنون بوجودهم ويعلمون أن إنكار وجود الجن جحد لكتاب الله وما ينبغي أن يعتقده المسلم ضرورة .. ولكن الذي يحير هو من يقصد الإمام الجويني ت ٤٧٨ هـ بالقدرية ١٩ .. هل هم المعتزلة أم الجهمية أم منكروا القدر الذين يقولون أن الأمر أنف ، وإنما هي أدوار موزعة حسب ما قضى الله وقدر ، والنتائج معروفة سلفاً وأهل الجنة والنار ماضون لما قدره الله عليهم .. أم يقصد بالقدرية أهل العدل والتوحيد من الزيدية والمعتزلة ، وكل من قال من السلف بحرية الإنسان والاستطاعة قبل التكليف ، والتكليف قدر الوسع والطاعة .. من يقصد الجويني من كل هؤلاء ١٩ ..

ويعقب الجويني على مقالته : ولا يتعجب ممن أنكر ذلك من غير المشرعين ، إنما العجب من المشرعين مع نصوص القرآن والأخبار المتواترة قال : وليس في قضية العقل ما يقدح في إثباتهم . قال : وأكثر ما استروح إليه من نفاهم حضورهم عند الإنس بحيث لا يرونهم ولو شاءوا لأبدوا أنفسهم ، قال : وإنما يستبعد ذلك من لم يحط علماً بعجائب المقدورات ^(١) .

وظاهر حديث الجويني أن هناك من الإسلاميين من ينكر وجود الجن مع أن النصوص متواترة في شأنهم .. ومع جواز وجودهم وإمكانه عقلاً .. وعلة المنكرين هو أن الإنسان لا يراهم مع وجودهم ١ .. وهو جائز لأنهم من عنصر النار ، والنار عنصر لطيف .. وكما لا نرى الملائكة لا نرى الجن .. ولا غرابة في ذلك .

وقد أشار القاضي أبو بكر الباقلاني صاحب كتاب «التمهيد» ت ٤٠٣ هـ إلى أن من هؤلاء من يثبت وجودهم وينفيه .. فهم مترددون .. كما أن منهم من يثبتهم وينفي تسلطهم على الإنس ^(٢) .

ويبدو أن القاضي من القائلين بتسلط الجن على الإنس ، ولا أدري ما النص الذي صرح فيه الله ، عز وجل ، في محكم التنزيل بأنه سلط على بني آدم الجن ، فتركوا ما خلقوا له من طاعة وعبادة ، واشتغلوا بالتسلط على بني آدم إغواء ووسوسة ١١

أما عن طريق إثباتهم هل هو السمع أم العقل أم هما جميعاً .. فقد أشار إلى ذلك القاضي عبد الجبار المعتزلى الشهير ت : ٤١٥ هـ فقال : « الدليل على إثباتهم السمع دون العقل ، إذ لا طريق إلى إثبات أجسام غائبة ، لأن الشئ لا يدل على غيره من غير أن يكون بينهما تعلق ، ولو كان إثباتهم بإضطرار لما وقع الاختلاف فيه ، إلا أنا قد علمنا بالاضطرار أن النبي ﷺ كان يتدين بإثباتهم ، وذلك أشهر من أن يتشاغل بإبراده » (١) .

فمن أنكر الجن أو تأول فيهم تأويلاً يخرجهم به عن هذا الظاهر ، فهو كافر مشرك حلال الدم والمال (٢) .

يقول ابن حزم : « لم ندرك بالحواس ، ولا علمنا وجوب كونهم ولا وجوب امتناع كونهم فى العالم أيضاً بضرورة العقل ، لكن علمنا بضرورة للعقل إمكان كونهم ، لأن قدرة الله تعالى لا نهاية لها ، وهو ، عز وجل ، يخلق ما يشاء ، ولا فرق بين أن يخلق خلقاً عنصرهم التراب والماء ، فيسكنهم الأرض والهواء والماء ، وبين أن يخلق خلقاً عنصرهم النار والهواء ، فيسكنهم الهواء والنار والأرض ، بل كل ذلك سواء ممكن فى قدرته » (٣) .

ويشير ابن حزم إلى أن معرفة وجود الجن مما يجوز عقلاً لإمكانه ، وهو كلام نظرى إذ كيف يستدل العقل على هذا الإمكان بدون سمع ١٩ .. وهو يخلط بين الممكن فى حق الله والممكن فى عقولنا .. أما بالنسبة له فهو لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو خالق الأكوان بمعجائبها .. وأما بالنسبة لنا فوجود الجن أو عدم وجودهم فهو قضية نصي وسمعية ، وقد جاء الوحي بإثبات وجودهم .. وكان النبي يدين بذلك .

والصواب ما ذكره بعد ذلك : « لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله ، عز وجل ، بصدقهم ، بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحملة للطبائع ، بنص الله ، عز وجل ، على وجود الجن فى العالم ، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم » (٤) .

(٢) ابن حزم : الفصل ٥١ / ١١١ .

(٤) المصدر السابق .

(١) المصدر السابق .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٥١ / ١١١ .

أما في صفة الجن وطبيعتهم فيقول القاضي أبو بكر الباقلاني قال بعض المعتزلة :
الجن أجساد رقيقة بسيطة ، ووافق الأشاعرة المعتزلة في مقالتهم : وهذا عندنا غير
ممتنع إن ثبت به سمع .

ونقد أبو يعلى بن الفراء المعتزلة فقال : الجن أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة ، يجوز
أن تكون رقيقة وأن تكون كثيفة خلافاً للمعتزلة في دعواهم أنها رقيقة ؛ وإن امتناع
رؤيتنا من جهة رقتها .

ولكن الحافظ ابن حجر رد عليه بأن الرقة ليست بممانعة عن الرؤية ، ويجوز أن
يخفى عن رؤيتنا بعض الأجسام الكثيفة إذا لم يخلق الله فينا إدراكها .. وهذا الكلام
غير مفهوم ، وملئ بالغموض .. إن الحياة خلقها الله ، عز وجل ، وخلق قوانينها ..
فهل من قوانين الإدراك والإحساس عدم رؤية المخلوقات الكثيفة ورؤية المخلوقات
اللطيفة كالهواء مثلاً ١٩

وما رواه البيهقي صاحب «الاسماء والصفات» ت ٤٤٩ هـ عن الإمام الشافعي
ت ٢٠٥ هـ في كتابه «مناقب الشافعي» من أفضل ما قيل في رؤية الجن حيث يقول :
«من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته إلا أن يكون نبياً .. وهذا من أجود ما رأيت
من آراء في المسألة» (١) .

ولكن الحافظ يعلق على مذهب الشافعي في المسألة فيقول : «وهذا محمول على
من يدعى رؤيتهم على صورهم التي خلقوا عليها ، وأما من ادعى أنه يرى شيئاً
منهم بعد أن يمتطوّر على صورشتي من الحيوان فلا يقدر فيه ، وقد تواردت
الأخبار بتطورهم في الصور» .. وهذا الكلام مردود عليه بدوره ؛ لأن الجن في صور
الحيوان لا يمكن معرفة هويتهم وأنهم جان .. إلا بالتخمين والتنجيم !

فما يصوره لنا الحافظ هو الجنون المعقول أو معقولية الجنون ، وبكل بساطة علينا
تقبله بلا نص أو قليل من عقل .. فما هي تلك الأخبار التي تواردت بذكر تطورهم
في الصور ١١٩

(١) وقد نقله ابن كثير كذلك في مقدمة تفسيره عند تفسيره للفاخرة بالجزء الأول .

وقد كان أقرب لأصول الدين والمعقول ما ذكره علماء الكلام ، الذين قال بعضهم بأنه يستحيل انتقالهم من صورتهم التي خلقهم الله عليها ، فقالوا بأن الامر مجرد تخييل فقط . يقول ابن حزم : « وإذا أخبرنا الله ، عز وجل ، أننا لانراهم - فى قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ^(١) - فمن ادعى أنه يراهم أو رآهم فهو كاذب ؛ إلا أن يكون من الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ؛ فذلك معجزة لهم ، كما نص رسول الله ﷺ أنه تغلب عليه شيطان ليقطع عليه صلاته ، قال : « فأخذته فذكرت دعوة أخى سليمان ، ولو لا ذلك لأصبح موثقاً يراه أهل المدينة ، أو كما قال ، عليه السلام ؛ وكذلك فى رواية عن أبى هريرة للذى رأى إنها هى معجزة لرسول الله ﷺ وسلم ، ولا سبيل إلى وجود خبر يصح برؤيتهم ، حتى بعد موت النبى ﷺ وسلم ، وإنما هى منقطعات ، أو عمن لا خير فيه » ^(٢) ..

وهذا رأى مقبول أحسن فيه ابن حزم ، وهو محدث وفقيه ومتكلم جاء فى وقت كان ملوك وأمراء الطوائف فى الاندلس يتصارعون ويتنابدون فيما بينهم على أشبار من الأرض ، وتركوا الجهاد وراءهم ظهرياً وقربوا أهل الخرافات والبدع ، وأبعدوا أصحاب الدين والعقل والورع ، فكان ما كان من سقوط دولة الإسلام ، لما سقطت دولة القرآن والإيمان .. وهذا حالنا الآن إن لم نتدرك الأمر ولم نقم كتاب الله بيننا ، وطرحنا الخلاف والتعصب والطائفية والجهل ، وتألفنا على تصور واحد للوحدة الإسلامية يجمعنا .

وقال فريق آخر من المتكلمين ، حاول استرضاء القائلين بانتقالهم فى صور الإنس والحيوانات ؛ بأنهم ينتقلون ، لكن لا باقتدار على ذلك بل بضرب من الفعل إذا فعله انتقل ، كالسحر وأيدوا رأيهم بالاثار الصحيح الذى أخرجه ابن أبى شيبة .. أن الغيلاني ذكروا عند عمر فقال : « إن أحداً لا يستطيع أن يتحول عن صورته التى خلقه الله عليها ، ولكن لهم سحرة كسحرتكم ، فإذا رأيتم ذلك فاذنوا » . ^(٣)

وهذا الكلام فيه إثبات للنص والمعقول ، ثم نقض له عن طريق كلام لا دليل عليه

(١) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٢) ابن حزم : الفصل ٥١ / ١١١ ، ١١٢ .

(٣) المصدر السابق : الفتح ٦١ / ٣٩٦ .

من نص أو معقول .. ولعل هناك بواعث تاريخية واجتماعية وشعبية هي التي شاركت في تدعيم تصور ما للجن في عالم الوجود ، ويمكن بحث ذلك في الادب العربي الخيالي ، في ألف ليلة وليلة وحكايات وروايات العرب عن الجن وصنيعهم ، وهو ليس موضوع بحثنا الآن .

وقد ذكر الأشعري في كتابه «المقالات» تساؤلاً عن حقيقة رؤية الشياطين، وإجابة أهل الإسلام عليه فقال :

واختلفوا في الشياطين: هل يُرون في الدنيا أم لا ؟

(١) فقال قوم: لا يجوز؛ إلا أن يريهم الله، سبحانه ، نبياً ، أو يجعل رؤيتهم علماً ودليلاً على نبوة نبي، وقد يقدر، سبحانه، أن يرى عباده الملائكة والشياطين من غير أن يقلب خلقهم، وقد يرى الإنسان الملائكة في حال المعايضة .

(٢) وقال قائلون: لا يجوز أن يُروا بحال ؛ إلا أن يقلب الله خلقهم ويخرجهم عما هم عليه .

(٣) وقال قائلون: جائز أن يُروا في الدنيا من غير أن يقلب الله خلقهم ، ومن غير أن يجعل ذلك دليلاً على نبوة نبي .

(٤) وذهب إلى إنكار الجن والشياطين ذاهبون، وزعموا أنه ليس في الدنيا شيطان ولا جن؛ غير الإنس الذين نراهم ^(١) .

يقول ابن حزم : « وهم أجسام رقاق صافية هوائية لا ألوان لهم وعنصرهم النار ، كما أن عنصرنا التراب .. والنار والهواء عنصران لا لون لهما ، وإنما حدث اللون في النار المشتعلة عندنا لامتزاجها برطوبات ما تشتعل فيه من الحطب ، والكثان والأدهان وغير ذلك ، ولو كانت لهم ألوان لرأيناها بحاسة البصر ؛ ولو لم يكونوا أجساماً صافية رقاقاً هوائية ؛ لأدركنا بحاسة اللمس » ^(٢) .

واختلف العلماء في أصل الجن فقال بعضهم إنهم ولد إبليس ؛ فمن كان كافراً

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين ، ١١٤/٢ .

(٢) ابن حزم : الفصل ٥١ / ١١٢ .

سمى شيطاناً ، وقال آخرون : إن الشياطين فحسب هم أولاد إبليس ، أما من عداهم فليسوا من ولده .. والصواب أنهم نوع واحد خلقوا مرة واحدة ويموتون مرة واحدة ، وإبليس منهم بنص القرآن ولكنه كفر وعصى وتكبر فسمى شيطاناً ، وكل من نذ عن الإيمان والطاعة منهم سمي كذلك .

كما اختلف المتكلمون حول كون الملائكة من الجن أم ليسوا بجن ..

(١) فقال قائلون : هم جن^(١) ؛ لاستتارهم عن الأبصار ، ومن هذا قيل للجنين إنه جنين .

(٢) وقال قائلون : ليسوا بجن^(٢) .

أما هل هم مكلفون أم لا ؟ .. : وافق أهل القبلة من السلف والمعتزلة بأنهم مكلفون بنص الكتاب ، قال عبد الجبار : لانعلم خلافاً بين أهل النظر في ذلك . إلا ما حكى زرقان عن بعض الحشوية أنهم مضطرون إلى أفعالهم وليسوا بمكلفين .. وهذا الرأي من الحشوية يتناسب مع طبيعة تفكيرهم في الدين وميولهم إلى الشذوذ عن أهل القبلة والابتداع في الدين أصولاً وفروعاً .. حتى إنه لا يحكى الشاذ من التشبيه والتجسيم أو الجبر على الله إلا من هؤلاء القوم . يقول ابن حزم : «إنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة ، موعودة متوعدة متناسلة يموتون»^(٣) .

والدليل على أنهم مكلفون قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٤) ، فهم مخلوقون للطاعة والامتثال لشرع الله ودينه ..

قال الأشعري واختلف الناس في الجن : هل هم مكلفون أم مضطرون ؟

(١) فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم : هم مأمورون منهيون ، قد أمروا ونهوا ؛ لأن الله ، عز وجل ، يقول : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٥) وإنهم مختارون .

(١) انظر الأشعري : المقالات ، ١١٥ / ٢ .

(٢) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ٥٤ / ١١١ .

(٣) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٤) سورة الرحمن آية ٣٣ .

(٢) وزعم زاعمون أنهم مضطرون مأمورون ؛ وكذلك اختلافهم فى الملائكة وفى أنهم مأمورون أو مختارون على سبيل اختلافهم فى الجن (١) .

وفى قصة الجن قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴾ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴿ (٢) . فهم مكلفون وجوباً ، ومجازون على عملهم حقاً وصدقاً ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ (٣) .

فهل من يدعى بعد ذلك أنهم مخلوقون للوسوسة والإغواء ومضطرون فى أفعالهم وأنهم جلبوا على الشر عقلاء مصيبون ١٩ .. قال القاضى عبد الجبار : « الدليل للجماعة ما فى القرآن من ذم الشياطين والتحرز من شرهم وما أعد لهم من العذاب ، وهذه لا تكون إلا لمن خالف الأمر وارتكب النهى ، مع تمكنه من أن لا يفعل والآيات والأخبار الدالة على ذلك كثيرة جداً .. وهذا صحيح تماماً .

فهل يكون من الجن أنبياء بعثوا فيهم ؛ .. اختلف العلماء فمنهم من أجاز ومنهم من منع ذلك ؛ ولكن جمهور العلماء على أن رسل الإنس رسل للجن فى نفس الوقت ، أما ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ آيَاتِي ﴾ (٤) فمحمول على أن رسل الجن يسمعون الوحي من رسل الجن ويبلغون به قومهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٥) ﴿ (٥) .

ولكن ابن حزم (٦) له تفصيل فى المسألة هو أن لهم رسل منهم ، حتى جاء

(١) الأشعرى : المقالات ١١٣/٢١ .

(٢) سورة الأحقاف الآيات ٢٩ - ٣٢ .

(٣) سورة الجن : ١ ، ٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٣٠ .

(٥) سورة الأحقاف : الآية ٣٠ .

(٦) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٤٠ / ٤٥ .

النبي، ﷺ ، فصار نبياً للإنس والجن جميعاً .. وهذا من خصائص البعثة المحمدية
أنها لجميع الخلق، وكان كل نبي يأتي لقومه خاصة .. قال الإمام الجويني ^(١) في
«الإرشاد» : «وقد علمنا ضرورة أنه ﷺ ادعى كونه مبعوثاً إلى الثقلين» .

أما عن طبيعة ما كلفوا به ، فهم مكلفون بالترحيد وأركان الإسلام ، وأما ماعداه
من الفروع فاختلف فيه ، لما ثبت من النهي عن الروث والعظم وأنهما زاد الجن ،
وسياتى فى السيرة النبوية حديث أبى هريرة وفى آخره : «فقلت ما بال الروث
والعظم؟ قال هما طعام الجن» الحديث ، فدل على جواز تناولهم للروث ، وذلك حرام
على الإنس ^(٢) .

هذا نص كلام الحافظ ، فهل ترى فيه شيئاً معقولاً يرضى الله ورسوله ؟ هل يتصور
مسلم عاقل أن الله جعل فى نجاسات الإنسان طعاماً لمخلوقات أخرى ، عاقلة مكلفة من
طبيعة غير طبيعة الإنسان ولا تتفق معه فى خلق أو أصل أو تكوين أو عناصر طينية ..
أن تكون النجاسة طعامها ، والله ، عز وجل ، تعبدها بالطهارة وبماتعبد به الإنسان ..
من الذى خصص التكليف وقيده فى الأصول دون الفروع .. هل هذا الحديث وأمثاله
يصلح أن يقيد تكليفاً ؟

ما أريد التأكيد عليه أن فى تراثنا الفكرى والدينى ، أشياء عزيزة نعتز بها وفكراً -
يبدو أنه فكر - لا يجوز أن يطرح من أصله لغثاته ، أما أن يوجد من يجعل منه ديناً
فهو ماجنى على نفسه وأمته ، وربنا حسبننا وحسبه .

غاية ما فى الموضوع أن الكلام عن أكل أو شرب الجن مجرد اجتهاد لا دليل
عليه ، وماورد فى السنة عن أنهم يأكلون مع الإنسان ، إن لم يسم - كقوله ﷺ :
«ما زال الشيطان يأكل معه فلما سمى استقاء ما فى بطنه» ^(٣) هذا عن الذى أكل
أمامه ولم يسم إلا فى آخر الطعام .. وهو مجرد تصوير لاينبغى أن يأخذ على
حقيقته ، لأنه يعنى أن الشيطان متلبس بالإنسان وهو ما لا يحسه أحد ولو كان يأكل

(١) الجويني : الإرشاد ، ص ٢٩٦ .

(٢) الفتح ، ٦١ / ٣٩٧

(٣) رواه أبو داود ٣١ / ٢٤٧ حديث رقم (٢٧٦٨) فى (كتاب الأطعمة ، باب النسيبة على الطعام) ، وأبو داود ؛
٣ / ٣٤٧ حديث (٢٧٦٨) .

معه لشعر بذلك .. واتفاق الطبيعتين بين ما هو طين ونار في الأكل من طعام الأرض ونقض لحديث الروث والعظام وروى ابن ماجه عن جابر عن رسول الله ، قال : « لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال »^(١) .

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله ، سمع النبي ، يقول : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر الله عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء »^(٢) ، وفي حديث الأعرابي والجارية .. قال : « إن الشيطان ليستحل الطعام الذي لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه جاء بهذا الأعرابي يستحل به ، فأخذت بيده ، وجاء بهذه الجارية يستحل بها فأخذت بيدها ، فوالذي نفسي بيده إن يده لفي يدي مع أيديهما »^(٣) .

وقد نهى النبي ، عن الأكل والشرب بالشمال تأديباً ومخالفة للشيطان : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله »^(٤) .

يقول الطيبي : « أي يحمل أوليائه من الإنس على ذلك ، ليضاد به عباد الله الصالحين .. فإن الشيطان يحمل أوليائه على ذلك » .. وقال القرطبي : « ظاهره أن من فعل ذلك تشبه بالشيطان ، وأبعد وتعسف من أعاد الضمير في شماله على الآكل » .. وصرح ابن العربي بإثم من أكل بشماله ، واحتج بأن كل فعل ينسب إلى الشيطان حرام ..

ولكن ابن حجر يعلق على كلام الطيبي قائلاً : « وفيه عدول عن الظاهر ، والأولى حمل الخبر على ظاهره ، وأن الشيطان يأكل حقيقة ، لأن العقل لا يحيل ذلك ، وقد ثبت الخبر به فلا يحتاج إلى تأويله »^(٥) .

(١) ابن ماجه ١٠٨٨ / ٢٤ (كتاب الأطعمة ، باب الأكل باليمين) حديث (٣٢٦٨) .

(٢) أبو داود ٣٤٦ / ٣٤ (كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام) حديث (٣٧٦٥) ، ومسلم ١٩٠ / ١٣٤ .

(٣) أبو داود ٣٤٦ / ٣٤ ، حديث (٣٧٦٦) .

(٤) مسلم ١٩٠ / ١٣٤ (كتاب الأشربة ، آداب الطعام ..) ، ومسلم في مسنده

(٥) انظر ابن حجر : الفتح ٩٤ / ٤٣٣ .

والعقل لا يحيل أن تطعم الجن وتشرب ، ولكن من قال أنهم يطعمون طعام البشر.. ولو كان الجن يأكلون طعامنا لانتهى من الأرض كل مزروع يأكله البشر كما أنه يناقض حديث أنهم يأكلون العظم والروث .. لقد أخطأ الحافظ في حمله على الظاهر .

روى ابن عبد البر عن وهب بن منبه أن الجن أصناف فخالصهم ربح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون ، وجنس منهم يقع منهم ذلك ، ومنهم السعالى والغول والقطرب ..

روى ابن حبان والحاكم : «الجن على ثلاثة أصناف : صنف لهم أجنحة يطفرون فى الهواء ، وصنف حيات وعقارب وصنف يحلون ويظعنون» (١) ..

كما ذكر العلماء أنهم يتناكحون ﴿لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ أَنْسَ قُلُوبُهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ (٢) ، ويحاسبون فمنهم من يدخل الجنة وينعم فيها ، ومنهم من يدخل النار ويعذب فيها . كما اختلف المتكلمون حول هل يجوز أن ينقلب الشياطين فى صور الإنس أو فى غير ذلك من الصور إذا أرادوا ذلك أم لا ؟

(١) فقال قائلون : جائز أن ينقلبوا إلى أى صورة شاءوا من الصور ؛ فيكون الشيطان مرة فى صورة إنسان ومرة فى صورة حية .. وهذا ما سناقشه فيما بعد .

(٢) وقال قائلون من المعتزلة وغيرهم : ذلك غير جائز، ولم يجعل الله سبحانه إليهم أن ينقلبوا متى أرادوا .. وهذا مانراه صواباً وحقاً (٣) .

(١) رواه الطبرى والحاكم والبيهقى فى الأسماء عن ثعلبة الحنسى ، وقال السيوطى صحيح ، الجامع الصغير ١١ / ١٤٥ ، والبيهقى : الأسماء والصفات ١ ص ٤٩٢ .. قال النلاوى : «صحيح الإسناد» : فىض القدير ٣ / ٣٦٥ ، وأبو نعيم : حلية الأولياء ، ٥ / ١٣٧ .

(٢) سورة الرحمن آية ٧٤

(٣) انظر مقالات الإسلاميين ٢ / ١١٤ .

٢- الجن قبل الإسلام وبعده

ثبت بالقرآن الكريم تسمع الشياطين على الملائكة الأعلى ومحاولتهم استراق السمع وخطف شيء منه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ (٢) .

فالقرآن يذكر أن الجن والشياطين يعيشون في الهواء وطبقات الجو العليا بعيداً عن الأرض ، ولكنهم ينزلون أحياناً إليها ، ومنهم من يحاول استراق السمع على عالم الملائكة أو الاتصال به ، ومحاوله استراق شيء من الوحي ، فما يكون نصيبه إلا الرمي بالقذائف الحارقة والشهب النارية من كل جانب ؛ فتقتله وفي قتله عبره لغيره من مردة الجن الذين يفكرون في المحاولة مرة أخرى .

أما من يفلح في خطف شيء من الوحي أو غيب السماوات ، وهو أمر الله في الأكوان ، فجزاؤه الرمي بشهاب مسلط عليه لا يفلته . إذاً لا شيء يفلح الشيطان في قنصه أو خطفه ، وكل ما يلقونه إلى الكهان هو مجرد وهم وتخيل لا أكثر ، يظنه الكهان من غيب السماوات وهو ليس كذلك ، وما جاء في سورة الجن على لسانهم يوضح الصورة أكثر ، ويبين طبيعة هذه العلاقة التي كانت موجودة بين بعض مردة الجن وكهان العرب واليهود قبل البعثة المحمدية وفي زمن الفترة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَشَا شَدِيدًا وَشَهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ (٣) .

(١) سورة الحجر الآيات ١٦ - ١٨ .

(٢) سورة الصافات الآيات ٦ - ١٠ .

(٣) سورة الجن الآيات ١ - ٩ .

هذا النص يصور حالة الجن في عالمهم بعد عيسى، عليه السلام، وتفشى عقيدة التثليث في النصراني؛ فيبين أن بعض شياطين الجن، أو إبليس على وجه الخصوص، ساهم في تأصيل عقيدة التثليث بين الجن، كما وجد من شياطين الإنس من ينشرها بين الناس، لتشويه نقاء التوحيد؛ فأمن بعض الجن بما لبسه عليهم هذا السفه الناشئ عن التوحيد، فلما اهتمدوا إلى التوحيد بإيمانهم بمحمد، ﷺ، ودعوته والوحي المحفوظ المنزل من ربه، جاء اعتذارهم عن زمن طويل كانوا فيه مصدقين للمقالة النكراء، وما روجه السفهاء منهم بينهم.

فالله، عز وجل، منزّه عن الصاحبة والولد، فما حاجته، تعالى، للصاحبة أو للولد وهو الغنى ذو الجلال والإكرام المتصف بصفات الكمال؟.. وكذلك يقول القرآن على لسان الجن أن هذه المقالة جاءت تبعاً لما حسبناه لا يقع من الإنس والجن، وهو الكذب على الله والشرك به وإلحاق النقص عليه، تعالى عن تصورهم فيه علواً كبيراً فصدقناهم.

وهذا يجعلنا نقف وقفة مع المنهج الإسلامي في تصور التوحيد، فهو قائم على عدم اتباع الأجداد وتقليدهم، وكذلك التحقق والتثبت في تلقي الأخبار، فالتصديق بلا تحقيق غرة وغفلة، وتشجيع للسفهاء والكذبة وناقصي العقول في ترويج عقائدهم الخرافية والوهمية بين الناس، والتأصيل لها وإحاطتها بهالة من الطقوس والطوطميات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

أما عن علاقة الكهان بالجان فيقررونها في هذه السورة، وكانت قائمة في الجاهلية.. طمعاً من بعض الكهان في استخدام الجان، أو ظناً من بعض العرب في البوادي أن للجان مراكز ومواطن تجمع يتجمعون فيها، لهم فيها قوة وسطوة فكانوا يعودون بهم، مما جراً الجان على الإنسان المتعوذ به، فمارسوا المحرمات وبشوا الشرك بين الناس بتأثيرهم.

وكان القرآن ونور الدعوة المحمدية والتوحيد، هو خلاصهم من أسر الجن فاستعاذوا بالله الواحد الأحد القهار مالك الملك، من شر الشيطان الرجيم وكل مارد لعين من الجن.

أما التسمع على غيب السموات فمع نزول القرآن منع الجن من أماكن التلصص والاستراق وتعقبتهم الملائكة بالتعذيب والإحراق بالشهب والصواعق وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ إِنَّا نَعْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وقد اختلف المتكلمون قديماً حول هل يخبر الجن الناس بشئ أو يخدمونهم؟ .. على مقالتين :

(١) فقال النظام وأكثر المعتزلة وأصحاب الكلام : لا يجوز ذلك ؛ لأن في ذلك فساد دلائل الانبياء ، لأن من دلالتهم أن ينبتوا بما نأكل وندخر .

(٢) وقال قائلون : جائز أن يخدم الجن الناس ؛ وأن يخبروهم ما لا يعلمون (٢) .

وانتهى عهد كان الجن يقذفون للكهان - ظناً وإيهاماً - بغيب السموات وما يحدث في عالم الأكوان بين الناس وبينهم ، ولأنهم مرده كانوا يبشون لهم الكذب ويختلقونه اختلاقاً ويلقونه إليهم .

أما مع نور الإسلام فسقطت هذه الأوهام والخرافات ، وأقر الجن بذلك وبينوا أنهم كالإنس تماماً مكلفون بالإيمان والطاعة ، وأن الله ابتلاهم بأنهم يختارون ، ومنحهم القدرة على الاختيار ولم يسلط عليهم من الأعمال شيئاً يمنعهم أو يقهرهم فلا يؤمنون ، فهم عقلاء مستطيعون ، والتكليف واجب في حقهم وداخل في مقدرتهم ، قال تعالى في بيان الصورة الكلية لعالم الجن على لسانهم :

﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ (٣) وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشَرًا أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (٤) وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴾ (٥) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ (٦) .

جاء في تفسير الزمخشري أن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال ، فلما بعث رسول الله ﷺ ؛ كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة ؛ حتى تنبه لها الإنس والجن ؛ ومنع الاستراق أصلاً .

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ٢ / ١١٠ .

(٣) سورة الجن الآيات ٩ - ١٢ .

- وعن معمر: أنه كتب للزهري: أكان يرى بالنجوم في الجاهلية؟

قال: نعم. قلت: أرايت قوله تعالى ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ فقال: غلظت وشدت أمرها حين بعث النبي ﷺ.

- وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس، رضي الله عنهما؛ بينما رسول الله ﷺ جالس في نفر من الانصار إذ رمى بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟

فقالوا: كما نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم^(١).

وقوله: (ملئت) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة؛ وكذلك قوله ﴿نَقْعُدُ فِيهَا مَقَاعِدُ﴾ أي: كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب؛ والآن ملئت المقاعد كلها، وهذا ذكر ما حملهم على القرب في البلاد حتى عشروا على رسول الله ﷺ، واستمعوا قراءته^(٢).

فكل شيء في قبضة الله وتحت سيطرته، والجن أعجز من أن يشتغلوا بغير عبادته، ومن فسق منهم فهو في شقاء، كما نجد من فسق أو كفر من بني آدم في شقاء وضنك دائبين؛ وهم في بحث دائم ودأوب عن الهدى والحق والخير، ومن وفق له بحمد الله، تعالى، عليه لما فيه من سعادة الدنيا والآخرة له، قال، تعالى، على لسانهم:

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۖ (١٣) وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرُّوْا رَشَدًا ۖ (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۖ (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۖ (١٦) لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۖ (١٧)﴾^(٣).

والنجس والرهق يقول فيه الزمخشري: أي جزاء ولا رهق؛ لأنه لم ينجس أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما.

(١) مسند أحمد ٢١٨/١١.

(٢) الزمخشري: الكشاف ٦٢٦/٤١.

(٣) سورة الجن الآيات ١٣ - ١٧.

وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أى يجتنب المظالم . ومنه قوله ، عليه الصلاة والسلام : «المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم» ^(١) .

ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن ينجس بل يجرى الجزاء الأوفى ، ولا أن ترهقه ذلة ، من قوله ، عز وجل : «وترهقهم ذلة» ^(٢) .

أما تفسير قوله تعالى : ﴿لنفتنهم فيه﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه .

ويجوز أن يكون معناه : وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التى كانوا عليها قبل الاستماع ، ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم ، لنفتنهم فيه لتكون النعمة سبباً فى اتباعهم شهواتهم ، ووقوعهم فى الفتنة ^(٣) .

هذا هو التصور القرآنى لطبيعة الجن وما هم عليه ، على وجه الحقيقة واليقين ، بعيداً عن الوهم والخرافة والاساطير ؛ وهم فى شغل بأمر أنفسهم وما جاءهم من الحق على لسان محمد ﷺ ؛ من أن يفتنوا بنى آدم ويضلّوهم ، والقرآن بدد ظلام الجهل ووهم الكذب فى العقول ، ولذلك لا يليق بمسلم واعى ؛ يتلقى صفاء ونقاء التوحيد من كتاب ربه الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أن يعتقد غير ذلك فى الجن ، فهم عباد أمثالنا مكلفون فى عوالم غير عالمنا ، ومن اتصل منهم بنا أو كان مارداً ناداً عن مجموعهم ، أو حتى حاول إيذاء الإنسان ، فالله حسبنا من دونه ، وما علينا إلا بالاستعانة بخالقه ، تعالى ، عليه : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) ^(٤) .

* * *

(١) أخرجه ابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد .. وفى كشف الخفا ٢١/٣٩٠ ، والبرازح (٢١) وابن

حبان ، ح (٢٦) ، والحاكم ، ١١/١ ، والهيثمى ٥٤/١ .. وابن ماجة ، ٢/١٢٩٨ ح (٣٩٣٤) .

(٢) الزمخشري : الكشاف ، ٤/٦٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ٤/٦٢٩ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .

المبحث الثاني

أحوال إبليس مع الإنسان

ويشتمل على ستة فصول:

- الفصل الأول : أفعال إبليس بين الحقيقة والمجاز .
- الفصل الثاني : والله خير حافظاً .
- الفصل الثالث : وهم لا بد من رده .
- الفصل الرابع : ليس لإبليس سلطان على الحياة .
- الفصل الخامس : الشيطان يجرى مجرى الدم .
- الفصل السادس : دولة إبليس .

الفصل الأول أفعال إبليس بين الحقيقة والمجاز

- ١- هل سحر النبي ﷺ ؟
- ٢- هل يعقد الشيطان على قافية المسلم ؟
- ٣- هل يبول الشيطان في أذن المسلم ؟

المبحث الثانى

أحوال إبليس مع الإنسان

عقد البخارى باباً عن صفة إبليس وجنوده فى كتاب بدء الخلق ؛ وتعود أهمية هذا الباب فى كونه جمع فيه سبعة وعشرين حديثاً عن إبليس وأفعاله وكيفية الاستعاذة به .. وهو يمثل جزءاً من التصور الإسلامى عن إبليس لا بد من بيانه ومعرفته .. وليس المقصود حكاية ما ذكره البخارى من أحاديث فى هذا الباب فقط .. ولكن ذكر موقف العلماء من هذا التصور ووضعه فى مكانه اللائق به .. فكل حديث من هذه الأحاديث يمثل إضافة هامة فى فهم موقف السلف الأول من هذه القضية ، وكيف استقبلوا حديث رسول الله ﷺ فهل كان إبليس قوة خارقة لا حجم لها .. وهل تصوره مسلطاً على الإنسان حتى على رسول الله ﷺ والوحى .. فقد رووا أنه ﷺ قد سحر ، وأن الشيطان ألقى فى الوحى ما هو شرك خالص .. فهل هذا صحيح ، وإن كان صحيحاً فهل له تاويل وتوجيه عرفه السلف ؟

إن المسلمين ليسوا فى حاجة إلى مزيد من الإرشاد فى قضية الإيمان ولا يعانون نقصاً فى إيمانهم ، ولكنهم - حقيقة - يعانون نقصاً فى عقولهم وفهمهم للنصوص ، وفى الحالة الإسلامية نجد محدثين عقولهم من وراء ما يروون ، يحاولون جهدهم تصدير تصوره وفرضه على التصور الإسلامى بأسسه وخصائصه ومقوماته ، دون مراجعة أو فهم - وهذه الحالة تخص بعضهم - ونجد فقهاء راشدين يزنون الأمور بميزان دقيق يحكمه المعقول والمنقول ، والتصور الأساس وما يعرض له من آراء متعارضة ؛ فلا يزيغ بصرهم ولا يضل رأيهم ، فهل نأخذ بما يفرضه علينا المحدثون زاعمين أن من يرد حديثاً لرسول الله ﷺ ، فقد كذبه ، ومن ثم يحكمون عليه بالزيف والكفر ، وما كذب الفقهاء والناظرون غير رواة كذابين أو فرقاً ضالة إسلامية ، أو غير إسلامية ، شحنت التراث الحديث بما يوافق هواها وآراءها ضاربين عرض الحائط بالقرآن الكريم وما صح وتواتر من سنة النبى ﷺ ، وهى تكذيبهم قولاً وعملاً .

الفصل الأول

أفعال إبليس بين الحقيقة والمجاز

اعتاد العرب على نسبة كل الأفعال القبيحة للشيطان .. فيقول : فعل شيطاني .. أو الشيطان فعل كذا .. أو هذه شيطنة .. أى أنها أفعال لا تجب في حق بنى آدم .. وذلك لأن الشيطان تجاوز الحد عندما فسق عن أمرربه ، وأتى منكراً من القول وزوراً لم يكن لمثله ولا غيره أن يأتيه .

وحملت لغة العرب هذه الروح فنسبت كل قبيح للشيطان ، أى أنها أفعال كان لا ينبغي أن يفعلها سواه .. أو هي منسوبة له ؛ لأنه أول من عصى وفسق .. أو لأنها تماثل أفعاله وتجاريها .

ولغة العرب لغة تصويرية وبيانية .. تعتمد في كثير من تراكيبها على المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه ، ولذلك ينبغي حمل كل ما جاء عن الشيطان على هذا الوجه ، فهو إما على سبيل ضرب الأمثال للتقريب والتفهم أو كناية عن .. لا فعلاً له ..

وفي ضوء حقائق وثوابت العقيدة والتصور الإسلامى للتوحيد - ذاتاً وصفاتاً - وما ينبغي أن ينسب لله وحده ، يمكن فهم ما جاء في السنة ، كذلك فقد وردت بعض الأحاديث تشير إلى أنه ﷺ سحر .. سحره يهودى اسمه لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه .. والسحر باب من أبواب الشيطنة والاستعانة بالشياطين .. فهل ما حدث كان سحراً وهل حدث فعلاً .. وما تفسير ذلك وتوجيهه ، في ضوء عصمة النبي ﷺ والوحي .. وحفظ الله لكتابه ١٩

كما أن الكتاب والسنة أشارا إلى وسائل كثيرة ، يحفظ بها المسلم نفسه من الشيطان ، فهل بعد ذلك له قدرة على العبث بأمنه وإيمانه ، والتغلغل إلى وجدانه وخواطره .. وزيادة على ذلك أن يأتيه فيعقد على رأسه أو يبول في أذنيه ١ .

ما مدى حقيقة هذه الأفعال .. وهل لها تاويل وتفسير ، أم هي مُسَلَّمُ بها إلى النهاية ١٩

إن الإسلام دين جاء لتحرير قوى الإنسان من سيطرة كهنة الاوثان وأوهام الاصنام،

والعبودية لغير الله .. وكان ثورة على الجهل والخرافات والاساطير .. وما كان لدين جاء لتحريرنا أن يؤصل للوهم والزيف والخرافة ..

وكما حارب الإسلام عبادة غير الله والشرك به ، فصرعها - أصناماً كانت أو مجوسية أو بوذية أو مانوية أو نصرانية - كعقائد باطلة منافية للتصور الإسلامى للالوهية والتوحيد - صرع الإسلام عبادة الشيطان ، وكانت معروفة وأصحابها يقدسون إبليس ، ويعتبرونه إلها من دون الله أو شريكاً له ، يتصرف فى دولة الشر أو عالم الملكوت أو فى الأرض وما عليها .. وهذا هو تصورهم أن الله خلق العالم ، وأوكل الحكم والمملك فيه لإبليس وجنوده ، وما أسوأ هذا التصور العاجز القاصر .. وما أقبحه ! .. فلا هم عبدوا الله فأخلصوا التوحيد .. ولا كفروا به وجعلوه فعذروا .

ولذلك نوجه حديثنا لكل الاتجاهات الضعيفة التى أصابت الكيان الإسلامى بالشلل والهزال ، وهى تدرى أو دون أن تدرى .. ماذا يبقى للإسلامى - إن نحن تبعناهم فى تصوراتهم المنحلة - من توحيده وعدله .. لقد سلطوا فكراً قاصراً على التوحيد فشحنوه بالتشبيه والتجسيم ، واعتمدوا الجبر فى أبواب القضاء والقدر ونسبوا الكفر والمعاصى وفعل الشيطان لله ، عز وجل .. وتمادوا فى باطلهم ؛ وكأنه حق لا يرد ! ..

ولذلك رأينا أنه من الواجب تحرير العقل المسلم ، من الوهم والزيف حتى تعود الأمة إلى سابق عهدا وحدة واحدة ، شعارها الله غايتنا والقرآن كتابنا والرسول قائدنا والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا .

نحن لا ننصر مذهباً على آخر ولا فرقة على خصمها ولا اتجاهاً على ما يناقضه ، فمعظم تصورات المذاهب الإسلامية صحيحة تماماً ، غير أن تراكم الخلاف حول الصفات والشكليات والوقوف على الجدل والمغالطى والإيهام اللفظى خلف لدينا تصوراً فاسداً للسلف ، وأحدث ثنائيات ، السنة فى مقابل الشيعة ، والسلف فى مقابل الخلف ، ولا شاعرة فى مقابل المعتزلة ! .. وهكذا تضخم حول عقائدنا خلاف لا نهاية له حول السفساف وشقشقات ، إهمالها بضخمها والتعرض لها يبعث خلافاً قد ماتت أو ما زالت تؤجج نيرانها تحت الرماد .. وطالما أن مصيرنا إلى إحقاق الحق ، وتأييد قلوب الأمة حول كتاب ربها وسنة نبيها ، فلا ضير .

١ - هل سحر النبي ﷺ ؟

روى البخارى بسنده عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : « سحر النبي ﷺ ، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفاى ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال أحدهما للآخر : وما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيماذا ؟ قال : مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر . قال : فإين هو ؟ قال : فى بئر ذروان .

فخرج إليها النبي ﷺ ، ثم رجع فقال : لعائشة حين رجع : نخلها كأنه رؤوس الشياطين . فقلت : استخرجته ؟ فقال : لا . أما أنا فقد شفانى الله ، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً . ثم دفنت البئر^(١) .

والمقصود بيان أن السحر من الشيطان وأعدائه .. وأهل السنة يجوزون وقوع السحر وأن الساحر يفعل أموراً خارقة للعادة بواسطة كلمات يعلمها يسخر بها الجن .. والمعتزلة ينكرون السحر أصلاً .. ويعتقدون أنه مجرد خيالات باطلة لا حقيقة لها تحدث من بعض الناس ، فتنة لغيرهم وابتلاء واستدراجاً لهم .. وهو كلام يطول شرحه ربما استدركنا عليه فى كتاب آخر عن موقف الإسلام من السحر ..

ويقول الحافظ ابن حجر عندما ذكر هذا الحديث فى كتاب الطب باب السحر حكم الساحر فى الإسلام ، وأنه يقتل إن كان فى سحره ما هو كفر ولم يتب عنه^(٢) .. أما ما حدث لرسول الله ﷺ على يد لبيد بن الأعصم ، فيقول فيه : ووجه إirاده هنا من جهة أن السحر إنما يتم باستعانة الشياطين على ذلك .. ويقول ابن القيم : إن ما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك .

وقد أنكر ابن حزم أن يكون ذلك سحراً وإحالة طبيعة ، وهو مجرد مرض ظن فيه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله .. فهو تأثير لقوة الصناعة ، ويتسائل إن كان السحر يحيل الأعيان ويقلب الطبائع فما الفرق بين النبي والساحر ؟! ^(٣) فالنبي لم يسحر ؟

(٢) البخارى : ١٠ / ٢٤٦ حديث رقم ٥٧٦٦ .

(١) البخارى : ٦ / ٣٨٥ - ٣٨٦ ، حديث رقم ٣٢٦٨ .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٤١ / ١٠٤ .

لأنه معصوم والمعصوم لا يؤثر فيه سحر لحفظ الله له ؛ ولكنه مجرد فعل اليهودى فاخبر الله نبيه به وعافاه منه ؛ ولو كان ما حدث قد اثر بالفعل فى النبى ، ﷺ ، على سبيل السحر الذى يعتقده بعض الناس لكان قادحاً فى نبوته ﷺ وفى نص الوحي الذى قال : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) ﴾ (١) . ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰحِفَظُونَ (٩) ﴾ (٢) ومن تمام حفظ الذكر حفظ النبى ﷺ من كل مكرزه وسوء .

وقد وقف علماء الإسلام قديماً حول مفهوم وحقيقة السخر فجاءت اجتهاداتهم على ثلاث مقالات :

١- فقال المعتزلة وغيرهم من اهل الإسلام: السحر هو التمويه والاحتيال وليس يجوز أن يبلغ الساحر بسحره أن يقلب الاعيان ، ولا أن يحدث شيئاً لا يقدر غيره على إحداثه .

٢- وقال قائلون: يجوز أن يقلب الساحر بسحره الإنسان حماراً، وأن تذهب المردة إلى الهند فى ليلة وترجع .

٣- وقال قائلون: السحر ليس على قلب الاعيان، ولكنه أخذ بالعيون، كنعو ما يفعلهُ الإنسان مما يتوهمه المتوهم على خلاف حقيقته (٣) .

فأى حال من هذه الحالات كان النبى الحبيب ﷺ المعصوم الطاهر المطهر الذى سلمه الله من كل سوء ١٩ .

(١) سورة النجم آية ٣ .

(٢) سورة الحجر آية ٩ .

(٣) الأشعرى: المقالات ٢٤ / ١١٥ .

٢- هل يعقد الشيطان على قافية المسلم؟

عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، ان رسول الله ﷺ قال : «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم - إذا هو نام - ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل ، فارقد . فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس ؛ وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»^(١).

عقد البخارى لهذا الباب عنواناً على النحو التالى : باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ؛ ومن هذا العنوان يفهم أن المقصود به شيطان الجن لا شيطان الإنس وعلى الأغلب إبليس ، وأنه يقوم بهذه المهمة كل ليلة ويفعل ذلك مع المؤمنين المسلمين الموحدين ، الذين يصلون الليل ويدومون عليه بغية أن يتركوا ما اعتادوا من الصلاة .

وقد استدرك على ما صدر به الباب ابن التين بأنه مخالف لظاهر حديث الباب ؛ لأنه دال على أنه يعقد على رأس من صلى ومن لم يصل . . . وكأنه يوسع الدائرة ويبين مدى قدرة وإمكانات عدو الله فى إغواء عباد الله ، وسيطرته وسلطانه على مالم يجعل الله له عليهم سلطاناً .

وابن حجر يتناول قضية وجوب صلاة الليل من عدمها ، وهل المقصود صلاة العشاء أم الليل ، فى مداخلة تشعرنا بأن الأمر مُسلمٌ به ، وأن هذا العدو الذليل الضعيف فى مواجهة متساوية مع الله والإنسان فى صراع الخلاص والتخلص من قواه الروحانية الهائلة ، فإن نجح أثابه الله وإن أخفق عاقبه الله ؛ فما ذنب الإنسان فى تسلط ربه لعدوه عليه ؟ . . . وهل من العدل إن أخفق العبد فى الخلاص من حبال الشيطان أن يقع فى النيران . . وما مدى صحة الجزاء على هذا التكليف الذى حاول تصويره اتجاه كبير من علماء المحدثين ؛ وليس من فقه فى دينه كمن جهل !!

(١) البخارى ٦٤ / ٣٨٦ حديث رقم ٣٢٦٩ - مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه وفى موطا مالك ، وأحمد فى

ثم هذه العقد التي يعقدها الشيطان فى وقت واحد على أفقية جميع البشر أم يخص بذلك أهل التوحيد ١٩

يرى ابن حجر أن ذلك يعم المخاطبين ومن فى معناهم ويمكن أن يخص منه من تقدم ذكره . ومن ورد فى حقه أنه يحفظ من الشيطان كالأنبياء ومن تناوله قوله : ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (١) ، وكمن قرأ آية الكرسي عند نومه فقد ثبت أنه يحفظ من الشيطان حتى يصبح ، وهذا كلام يسلم بداية بأن البشر فى قبضة الشيطان ؛ ولا تدركهم عناية الرحمن أبداً إلا بعد الذكر أو كانوا أنبياء ١١

إن القول بأن إبليس قدرات مساوية لقدرات ربه فى توجيه قوى الإنسان دون أن يدرك هذا الإنسان أو يشعر من أين يأتيه عدو الله قدح فى عدل الله وتوحيده . . فالله هو العادل الحكيم ولا يجوز فى عدله وحكمته تسليط عدوه على وليه ، وما يذكره هذا الاتجاه قدح فى التوحيد وشرك بالله كبير ، حيث يسوون بين عدو الله وخالقه فى كل ما يفعل ويدع بالإنسان ، فإذا كان قادراً على توجيه قوى الإنسان الحسية والروحية بالوسوسة والإغواء والتحايل عليه بكل سبيل ، فماذا تركوا للمسلم فى تصوره للالوهية والتوحيد ١٩ . .

أما كيف يضرب الشيطان على مكان كل عقدة فهو بحث آخر ؛ فهناك عقدة بل عقد وعاقد ومعقود عليه ؛ والعاقد إبليس والمعقود حبل - على الحقيقة أو المجاز - فى أحسن الأقوال المعقولة ؛ ومعقود عليه وهو عبد الله المؤمن الموحد الذى نام مصلياً أو غير مصلى ، أما الذى غفل عن الصلاة فهو فى أسر إبليس لا محالة ؛ ولا قدرة له على الإنفلات من أسره ، لأنه لا يتوضأ ولا يصلى فضلاً عن عدم ذكره الله ، تعالى ؛ فاحتمال دخوله خطيرة الإيمان ابتداء ممتنع بناء على ما يقولون ؛ لأنه لا يملك هذه الأدوات ، ولا فرصة عنده للاختيار لإحكام إبليس قبضته عليه !

فالشيطان يضرب على كل عقدة بمعنى أنه يحجب الحس عن النائم ، حتى لا يستيقظ ومنه قوله تعالى ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ (٢) ، أى حجبت الحس أن يلج فى آذانهم فينتبهوا (٣) .

(٢) سورة الكهف : آية ١١ .

(١) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٣) قارن ؛ تفسير الطبرى ٥١ / ١٣٧

عن أبي سعيد : « ما أحد ينام إلا ضرب على سماخه بجريز معقود » . وعن ابن عمر : « ما أصبح رجل على غير وتر إلا أصبح على رأسه جريز قدره سبعين ذراعاً » ..
أى حبل .. هذا ما ذكره الحافظ تأييداً لما يفعله بنا الشيطان ، فقايس فعله بما فعل الله بأصحاب الكهف ١١ .

ولا يوجد إنسان عاقل له مدارك حسية سليمة أدرك ما يفعله الشيطان من وسوسة أو عقد .. وهذه المدارك الحسية هى التى يدرك الإنسان بها الأفعال الحسية .. وأنا أعلم أن هناك من ضعف الفهم من يقول إن ذلك يحدث للإنسان وهو نائم .. حسناً ؛ فماذا عندما يستيقظ ويجد نفسه معقوداً عليه ، فلا شك أنه يدرك أن للشيطان فعلاً حدث فى تكوينه النفسى والحسى سمح به الله لعدوه !

واختلف العلماء فى طبيعة هذا الفعل ، فمنهم من قال إن هذا العقد على وجه الحقيقة كما يعقد الساحر من يسحره ؛ وأغلبهم يوافق على هذه المقولة ؛ وقال آخرون إنه على سبيل المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور .. وقال غيرهم المراد به عقد القلب وتصميمه على الشئ كأنه يوسوس أنه بقى من الليلة قطعة طويلة فيتأخر عن القيام ، وإنحلال العقد كناية عن علمه بكذبه فيما وسوس به . أو أن العقد كناية عن تشييط الشيطان للنائم .. وأغرب بعضهم فقال بأنه الأكل والشرب والنوم .. وذكر الشيخ الملوى أن العقد يقع على خزانة الإلهيات من الحافظة وهى الكنز المحصل من القوى ، ومنها يتناول القلب ما يريد التذكر به ^(١) .

وهكذا صار لإبليس سيطرة كاملة على الإنسان ، وعلى أخص ما وهبه الله له من قوى حسية وعقلية وروحية ، فماذا بقى له من حرية الاختيار والإدراك ١٢ .. إن كان فى لحظة واحدة يستطيع إبليس الدخول على الحافظة الذاكرة (الإلهية) ، وإفسادها أو السيطرة عليها أو أن ينسى الإنسان ما يعتقد ويؤمن به ١٢

والمدعش أن يتمادى أفاضل العلماء وراء هذا الجدل الخطير ؛ الذى يثبت به الشئ ونقيضه والتوحيد والشرك ، ببساطة .. ويتفننون فى تحليله وتأويله بما هو جائر من وجه ومستحيل من وجوه آخر .. وهو ما يؤدى إلى تذويب قضية الإيمان الأصلية فى

(١) الفتح ٣١ / ٣٢ ، والنووى على مسلم ٦٤ / ٦٤ .

بحر من الروايات ، فمثلاً مسألة أن يصبح الإنسان المسلم «طيب النفس» أو «خبث النفس» يجد لها الحافظ ابن حجر مسارب ليتشقق الحديث حولها عن طبيعة هذا الشعور الذى يصيب المسلم ، هل هو لقيامه الليل أو صلاته المكتوبة ؛ وهذا الكسل هل هو بسبب هذه العقد الثلاث أو لعدم قيامه بأداء صلاة الليل ؛ وهو ما يتعارض مع حديث آخر قال فيه ﷺ : «لا يقولن أحدكم خبثت نفسى» وأن هذا الحديث ينهى عن إضافة الخبث للذات ، أما الآخر فهو يضيفه إلى الفعل فهو وصف لها . وهكذا .

أكثر من ذلك يفرق الحافظ بين قرب الشيطان المعنوى وقربه الحسى ؛ عند الرد على من عارضه بحديث آية الكرسي «إن قارئ آية الكرسي عند نومه لا يقربه الشيطان»^(١) فهل نعلم لإبليس قرباً حسياً حتى نعلم قربه المعنوى ؟ هذه مجرد مداخلة فقط ؛ وليس شغباً على دليل .. وما نريد إثباته هو أن الجن خلقوا للعبادة مثلنا ولهم ما يشغلهم عنا ؛ ومن رام بإنسان إيذاء أو مكرراً فهو شياطين الإنس كشياطين الجن تماماً وما يقع منهم ولا فرق بينهما .

غير أن شياطين الإنس أشد إيذاء وأسرع مكرراً ، أما شياطين الجن فلا سلطان لهم على عباد الله الذين دخلوا فى كنفه وآمنوا برسوله ، فهم إما فى ذكر الله أو تلاوة للقرآن أو صلاة أو طلب علم شرعى ، ومن كان هذا حاله فكيف يقربه شيطان !

لقد كان لشياطين الإنس والجن مكائد عديدة لإفساد عقائد الناس منذ فجر التاريخ الإنسانى ؛ فإذا فسدت العقائد وجب على الناس العذاب بعدما أهدرت أعمالهم ؛ لأنه لا اثر لعمل صالح فى الآخرة مع عقيدة فاسدة ؛ ويأتى اختلاف الناس فى إطار من الإيمان بالقضاء والقدر لا شك فيه قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣) ولا مانع من الاختلاف والاجتهاد والنظر فهو كله خير ، عدا الاختلاف حول ثوابت العقيدة وأساسياتها فهو الهلاك المبير .

(١) البخارى : الفتح ٨٩ / ٦٧١ (كتاب فضائل القرآن - باب فضل سورة البقرة) .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

٢- هل يبول الشيطان في أذن المسلم؟

عن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : « ذكر عند النبي ﷺ وسلم رجل فقيل : مازال نائماً حتى أصبح ماقام إلى الصلاة ، فقال : « بال الشيطان في أذنه » .

وعبد الله هو عبد الله بن مسعود ، والرجل الذى يعنيه هو نفسه « وأيم الله لقد بال في أذن صاحبكم ليلة »^(١) يعنى نفسه .

وفى طبيعة ما يفعله الشيطان اختلف العلماء ، هل ما يفعله على الحقيقة أم الهجاز ، فمن قال إنه على حقيقته لم يرفى ذلك مانع إذ لا إحالة فيه ، لانه ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح ، فلا مانع من أن يبول . وهذا الراى مردود على صاحبه وهو القرطبي بأنه من أين لك أن الشيطان يأكل ويشرب ، وإذا ثبت لك ذلك بنص قرآن أو رواية حديث ، فهل يصح القياس عليهما فى البول ؟ .. أو لا يجوز على من وصفتهم بخوارق العادات أن لا يبول أو ينكح .. وبوله ونكاحه من الأمور الحسية فهل وجدت أحداً جاءك ببول الشيطان أو شاهد نكاحه .. ومن ينكح ؟ أثبت للجن إنائاً يضعون فيهم شهواتهم على ما افترضتم ؟!

كل ما سبق هو ضرب فى هواء ، ولا يصح منه شئ والثابت من نص الكتاب برده ، والإيمان به يدخلنا فى باب واسع من الخرافة التى لا تجوز فى الدين ، وقد تكون مسبباً فى الكفر به .

أما الراى الآخر الذى يرى أصحابه أنه كناية عن سد الشيطان أذن الذى ينام عن الصلاة حتى لا يسمع الذكر ، فهو أمر حسى يفعله كذلك الشيطان ، ونافذتنا على المعرفة هو الإدراك الحسى ، ولم يحدث لنا أو لغيرنا أن وجد سداً أو شيئاً من هذا القبيل حتى نشبهه !

أما من قال بأن الشيطان ملأ سمعه بالباطيل ، فحجب سمعه عن الذكر ، فهو يشبه فعلاً للشيطان فى الإنسان يجبره عليه بفرض أن يترك طاعة ربه ، فهل على

(١) البخارى ٣١ / ٣٤ كتاب التهجيد باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه .. حديث ١١٤٤ / ٦ ، ٢٨٦ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس حديث ٣٢٧٠ ، وكذلك فى مسلم كتاب صلاة المسافرين حديث ٢٠٥ ، والنسائى ، وابن ماجه ، وأحمد فى مسند ١٥ / ٣٧٥ وغيرها .

المجبور على فعل ما من حرج ١٩ .. وهل كل من نام عن صلاة وجد بولاً في أذنيه أو بات على باطل .. وكيف يجتمع حقُّ هو التوحيد والذكر والصلاة مع باطل .. أو لم نر من قبل كلامكم عن الذى نام ولم يصل ، أو صلى وعقد الشيطان على قافيته ، أنه نام مسلماً موحداً يأتى الصلاة والذكر ، ولكن حدث له ما حدث فأخذ تم فى تبرير ما وقع له !

وزاد بعضهم فقال هو كناية عن إزدراء الشيطان به .. أو استيلاء الشيطان عليه واستخفافه به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول ..

وأقرب ما يكون للتأويل الصحيح أنه مثل مضروب للغافل عن القيام بثقل النوم ، كمن وقع البول فى أذنه فثقل أذنه وأفسد حسه ، والعرب تكنى عن الفساد بالبول قال الراجز : « بال سهيل فى الفضيف ففسد » ؛ وكنى بذلك عن طلوعه ؛ لأنه وقت إفساد الفضيف فعبر عنه بالبول .

روى أحمد عن أبى هريرة : « قال الحسن إن بوله والله لثقل » ١١ وروى عن ابن مسعود : « حسب الرجل من الخيبة والشر أن ينام حتى يصبح وقد بال الشيطان فى أذنه » وهو موقوف صحيح الإسناد ^(١) فالنص الأول يشير إلى ثقل بوله ، والثانى يؤكد فعله ؛ فهل لنا أن نحسه أو نلمسه أو نجد أثره ١٩ ..

إن من ذهب إلى حقيقة هذا الفعل أغرب وأبعد ونسب للشيطان قدرات تفوق قدرات الملائكة المحفظة والمقربين وأولياء الله وأنبيائه وكل من أطاعه ، وعدا قدره فنسب له قدرات على الفعل هى لله الواحد الأحد القادر ؛ ودخل فى حساب عويص من الشرك والجبر وقدح فى توحيده ؛ ومن يؤمن بهذا الكلام على حقيقته يؤمن بكل شئ ولا دين له أصلاً ولا عقيدة .. فلا ثبات لأصول التوحيد مع هذا الهراء الاجوف إن أخذناه على حقيقته وآمنا بالله الحفيظ الوكيل . ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٢) .

ومن جنس هذا الكلام الغريب ما يذكره الحافظ عن الطيبى فى بيان سبب ذكره ﷺ للأذنين دون العينين رغم أن النوم والنعاس أخص فيهما من الأذنين ؛ لأن

(١) البخارى : المصدر السابق ، نفسه .

(٢) سورة الطلاق : ٣

المسامع موارد الانتباه ؛ والبول أسهل دخولاً فى التجاوب وأسرع نفاذاً إلى العروق فيورث الكسل فى جميع الاعضاء^(١) وكان الشيطان يحقن عبد الله بمخدر سريع المفعول لا خلاص له منه إلا بمعصيته الله وتركه للصلاة والطاعة ، أفلا فكر هذا القائل فى الله الحافظ لعباده من شر الإنس والجن ، حين ترك أصل الاعتقاد فى هذا الفعل إلى تفسيره تفسيراً غريباً يوهم العوام بسلطان إبليس والجان على الإنسان .. وإحالتهم كل أفعالهم بعد ذلك لما يفعله الشيطان فيهم !

ويحسن هنا ذكر تفسير النوم عند النفسانيين حيث يقول أحدهم : « والنفس لاتنام فالنوم خاص بمادة الجسد ، فهى من يوم أن تخلق تظل حارسة لهذا البدن . والنوم نوعان :

(١) النوم الاتصالى : وهو الذى تبقى فيه النفس مع الجسد اثناء النوم ، ونجد النائم فى هذه الحالة فيحرك يديه ورجليه وينقلب على الفراش يسره ويمتد ، وهو فى الغالب لا يدري ويصحو بسهولة ؛ بل أقل حركة تجعله يهب من نومه ، وهذه النفس المتيقظة قد تجعله يحلم أحلاماً من أحاسيس النفس فيه ، فإن قرب منه ثعبان أو عفرية مثلاً توحى إليه النفس بذلك ، أو توحى إليه بخطر مهول يتهده ، فيقوم فزعاً ، أو تسمع النفس أغنية فيرى النائم المغنى نفسه يزوره فى بيته ومعه عوده يغنى له خاصة ، وربما ناقشه وتكلم معه ، هذا كله من أفعال النفس ، وقد جربت كثيراً من ذلك فى نومي .

(٢) النوم الانفصالى : وفيه تنفصل النفس عن الجسم ، كما يحدث أحيانا فيما نسميه النوم العميق ، تماماً فكما أنه لا يرى ولا يسمع ولا يحس من حوله فإن النفس هنا لا تحلم أحلاماً قد تكون من واقع ما تحسه قريباً ، فإذا ناديت لا يجيب ، وإذا أردت صحوه ناديت مراراً وربت على كتفيه ، وهزته حتى

(١) الفتح ٣٥ / ٢ .

يفيق، واحذر فى هذه الحالة أن تزعجه فى نومه بأن تدفعه
دفعاً أو تصيح عليه صيحات شديدة أو تضربه (كما
يحدث من بعض الجهلاء) فلربما حدث ما يسمى انفصال
الشخصية ^(١) .

« وفي هذا الصنف من النوم، تسبح النفس فى ذكرياتها الماضية وأمانيتها
ومعضلات (الشعور) فتذهب إلى حلها مساعدة للشعور، وتتصل بما فيها من قوة
الاعتدال على قراءة ما خفى من كتاب الكون إلخ » ^(٢) .

والنفوس إذا انفصلت عن الأجساد بسبب الموت ترى الملائكة والشياطين ، حيث
أنها أصبحت مخلوقات أثيرية مثلها ، ويمكن للنفس أن تصعد للسماء وتذهب
حيث تريد .

وبعد فهل يمكن احتمال قبول مثل هذا الأثر - على الأقل - على حقيقته ؟

* * *

(١) د/ عبد الكريم دهينة: صراع بين النفس والعقل، ص ١٦٠ ، ٦١ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٢ .

الفصل الثاني والله خير حافظاً

- ١ - الاستعاذة من الشيطان .
- ٢ - الحرز من الشيطان .
- ٣ - الشيطان والعلاقة الزوجية .

الفصل الثانى

والله خير حافظاً

ينبغى المسلم أن يعلم أن الله الواحد الاحد حفيظ وكيل وهو حسبه .. فلا شيطان
الإنس ولا شيطان الجن يستطيع أن يصل إليك مادمت مع الله ، تعالى ، متجه إلى قبلة
التوحيد والإيمان .. مخلصاً له .. فאלله قادر .. والله رازق .. والله حافظ .. والله قاهر
فمن يقدر على من استعاذ بالله الاعظم خالق الخلق .. من له الاسماء الحسنى . قال
تعالى : ﴿ وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٠٠) ﴿ (١) .

وقال : ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٥٦) ﴿ (٢) .
وقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ
يَحْضُرُونِ ﴿ (٩٨) ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ (١) ﴿ (٤) .

وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (١) ﴿ (٥) .

فإذا كان ربك سميعاً عليماً بصيراً رباً للاكوان والازمان والناس وجميع المخلوقات
فما تخاف ومن ذا الذى يطيق لله ، تعالى ، عداً ومناوأة ؟

إن التصور الإسلامى لحقيقة الالهية بدد ظلام الخرافة وقوى قلب المسلم فى مواجهة
الحادثات .. فشياطين الإنس والجن فى مواجهة براهين التوحيد أصفار .. فلا سلطان
عليك أيها المسلم فلا تخف أوهاماً وخرافات تعيش خبيثة فى جنح الظلام
كالخفافيش .. أنت حر فلا تتعلق بأهداب الزيف .. فإبليس والشيطان والجن أسماء
لمخلوقات مثلك يشغلها عنك تكليف ، كلفها الله به هو ، كما كلفت به تماماً فلا
تظن أنها تركت ما أهمها واشتغلت بك ..

(١) سورة الاعراف آية ٢٠٠ .

(٢) سورة غافر آية ٥٦ .

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ - ٩٨ .

(٤) سورة الفلق آية ١ .

(٥) سورة الناس آية ١ .

ومن ند عن أمر ربه وعصى فآله حفيظاً لك من دونه ، وهو لا يصل إليك بحال
فقد أعلنها الله ، تعالى ، أن الشيطان ليس له على الإنسان سلطان ... إلا من أطاع
الشيطان وعصى الرحمن وبات أسير هواه وشهواته ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (٦٥) ﴿ (١) .

فعباد الله المتقين الصالحين لا يقدر إبليس على إغوائهم وإضلالهم ؛ لأنهم في
كنف الله ورعايته وعنايته ؛ وتوكلهم عليه واستعانتهم به واستعاذتهم من عدوه
وعدوهم كافياً ؛ لأن يحفظهم من شره . يقول الزمخشري : « فإن قلت : كيف جاز
أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغوياً مضلاً ؛ داعياً إلى الشر ، صادراً عن
الخير ؟ »

قلت : هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية ، كما قال للعصاة :
اعملوا ما شئتم (٢) .

و ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٤٢) ﴿ (٣) .

ويقول في معنى إغوائه إياه : « تسببه لغيه . بأن أمره بالسجود لآدم ، عليه
السلام ، فأفضى ذلك إلي غيه . وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للشواب
بالتواضع والخضوع لأمر الله ؛ ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك .

والله ، تعالى ، برئ من غيه ومن إرادته والرضا به ، ونحو قوله : ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي
لَأُزَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٦) ﴿ (٥) في أنه إقسام ، إلا أن أحدهما إقسام
بصفة ، والثاني إقسام بفعله ، وقد فرق الفقهاء بينهما .

ويجوز أن لا يكون قسماً ، ويقدر قسم محذوف ، ويكون المعنى : بسبب
تسبيبك لإغوائى أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم ، بأن

(١) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٢) سورة الحجر آية ٤٢ .

(٣) الزمخشري : الكشف ، ٢ / ٦٧٨ .

(٤) سورة الحجر آية ٣٩ .

(٥) سورة ص آية ٨٢ .

أزين لهم المعاصي وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم ﴿ففى الأرض﴾ فى الدنيا التى هى دار الغرور ، كقوله تعالى ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (١) .

أو أراد أنى أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الاكل من الشجرة وهو فى السماء ، فانا على التزيين لأولاده فى الأرض أقدر .

أو أراد : لأجعلن مكان التزيين عندهم الأرض ، ولأوقعن تزيين فيها ، أى : لأزينها فى أعينهم ولأحدثنهم بالزينة فى الدنيا وحدها ، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمعنوا إليها دونها ، (٢) .

يقول الهادى راداً على المجبر الذى احتج بالآيات السابقة على جبر الله لخلقهم ليفعلوا الخير والشر كما أراد لا كما أرادوا : توهم ، لجهله وسوء نظره وعلمه ، أن الله ، تبارك وتعالى ، حال بين إبليس وبين العباد حولاً ، ومنعه من الوسوسة لهم منعاً ، وقصرهم عنه قسراً ، وليس ذلك كما قال .

ألا تسمع ما ذكر الله عن آدم وزوجته ، وكيف كانت وسوسته لهما حتى أوقعهما فيه ، وكذلك اعترض لعيسى بن مريم حتى دحره ، ولم يطمعه فى شئ مما ذكره ، ولغيرهما من الأنبياء والمؤمنين ، فلو منعه الله من أحد من المؤمنين منعاً ، وقصره على الوسوسة له قسراً ، لكان ذلك لأبيهم آدم ، ﷺ ، ولكنه ، سبحانه ، منعه من ذلك بالنهاى له والزجر عما هو عليه من إغوائه ، وعاقبة عليه ، وأعد له النار والعذاب فيه ، فقال : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩) ﴿ (٣) .

فأما السلطان الذى ذكر الله ، عز وجل ، أنه ليس له على المؤمنين ، فى قوله ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٧) ﴿ (٤) .

فهو ما علم من المؤمنين من طرده ودحره وترك طاعته فى وسوسته وأمره ، وأنهم لا يجعلون له عليهم سلطاناً بشئ من الطاعة له من العصيان لربهم ، وأنهم لا يزالون مؤثرين لطاعة الرحمن ، محترسين من الشيطان بتلاوة القرآن والاعتصام بذى الجلال

(١) سورة الاعراف آية ١٧٦ .

(٢) الزمخشري : الكشاف ٢١ / ٥٧٨ .

(٣) سورة هود آية ١١٩ ، والسجدة آية ١٣ ، وص آية ٨٥ .

(٤) سورة الحجر آية ٤٢ .

المنان ، فهم أبدأ لله مراقبون ، وفي طاعته ساعون ، وللمشيطان اللعين معادون ، كما أمرهم ربهم حين يقول : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (١) .

وفي كل ما أمرهم به مخالفون ، فأولئك هم المهتدون الذين على ربهم يتوكلون ، فليس له على هؤلاء سلطان ، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وكذلك سلطانه على أوليائه ، وهو دعاؤه لهم وإغواؤه إياهم ، وقبولهم منه ، ومشايرتهم عليه ، فلما أن قبلوا منه ولم يعصوه كانت طاعتهم له السلطان عليهم ، إذ أطاعوه وفي دعائه اتبعوه (٢) هذا هو التصور الصحيح الذي نرتضيه .

* * *

(١) سورة فاطر آية ٦ .

(٢) انظر الهادي : في الرد على الحسن بن محمد بن الحنفية ، ٢ / ٢٥٩ .

١ - الاستعاذة من الشيطان

قال تعالى : ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ (١) . النزع هو النخس ، وذلك بحمل الشيطان للإنسان بوسوسته على خلاف ما أمر الله من عقائد أو أوامر ونواهي شرعية جاءت بها الرسل ، وثبت ذكرها في الكتاب ، والاستعاذة هي الاستعانة برب الناس على عدوهم وعدوه وعدم طاعته ، وقد نزلت هذه الآية على رسول الله ، ﷺ ، عندما قال : « كيف يارب والغضب » فنزلت الآية ، ويجوز أن يكون النزع اعتراء الغضب (٢) ، كما قال أبو بكر ، رضى الله عنه : « إن لى شيطاناً يعترينى » (٣) .

وقال تعالى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السِّتَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ (٤) ، كانت الشياطين تحت الناس على المعاصي ويغرونهم عليها ، والأز كالهمز ﴿ تَوْرُذُهُمْ إِذَا ﴾ ، فالاستعاذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه ، والاستعاذة من أن يحضروه ويحوموا حوله ، وعند تلاوة القرآن كما قال ابن عباس (٥) .

وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢١) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ (٦) .

يستدل ابن كثير على أن الله ، تعالى ، يأمر بمصانعة العدو الإنسى والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة ، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ، ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ..

وتكون الاستعاذة قبل تلاوة القرآن وعند الصلاة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ

(٢) الزمخشري : الكشاف ٢١ / ١٩٠ .

(١) سورة الأعراف الايات ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٣١ / ١٣٩ ، وابن قتيبة : الإمامة والسياسة ١١ / ١٦ .

(٤) سورة المؤمنون الايات ٩٦ - ٩٨ .

(٦) سورة فصلت الآيات ٣٤ - ٣٦ .

(٥) الزمخشري : السابق ٣١ / ٢٠٢ .

الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ (١) . فهي من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب (٢) .

وقال أبو سعيد الخدري : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل استفتح صلاته وكبر قال : «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك - ثم يقول لا إله إلا الله - ثلاثاً ثم يقول - أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفسه» (٣) .

وقال سليمان بن صرد ، رضى الله عنه : استب رجلان عند النبي ﷺ ، ونحن عنده جلوس ، فأحدهما يسب صاحبه مفضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ ؛ «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقالوا للرجل ، ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ ؟ قال : إنى لست بمجنون» (٤) .

والجمهور على أنها مستحبة ؛ والجهر بها أولى عند الجمهور ، وإن حكى الإسرار فى إحدى قولى الشافعى ؛ وفى الصلاة هى للتلاوة وقال البعض هى للصلاة ؛ وذكر العلماء لفوائدها كثير من الأمور منها أنها طهارة للنفوس ولتلاوة كلام الله ، وهى استعانة به واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطنى الذى لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه ، ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان ..

ومعناها الالتجاء إلى الله ، تعالى ، والالتصاق بجانبه من شر كل ذى شر والعيادة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير قال المتنبي :

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به من أحافره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره (٥)

(١) سورة النحل آية ٩٨ .

(٢) الزمخشري : السابق ٢١ / ٦٣٢ .

(٣) رواه أحمد ، والترمذى ٣٤٢/٣ (باب ما يقول عند افتتاح الصلاة) ح (٢٤٢) .

(٤) رواه مسلم ، والبخارى ٥٣٥/١٠١ (كتاب الأدب ، باب الحذر من الفضب) ح (٦١١٥) ، وأحمد ، ٣٩٤/٦ ، والطبرانى ، ح (٥٧٠) .

(٥) ديوان المتنبي ، ص ٤٣ .

ومعنى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أى استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن لا يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر ، تعالى ، بمصانعة شيطان الإنس ومدارته بإسداء الجميل إليه ، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ، ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه ^(١) .

يمكن تشبيه النفس بالحصن الذى يتحين الشيطان غفلة صاحبه ليقتحمه ويذكره فينهار عن آخره ويستسلم الإنسان .. وصاحب الحصن يمكن أيضا اعتبار العقل حفيظاً عليه وعلى نفسه .. وهو قريب من تخيل أفلاطون لقوى النفس المعرفية والشهوانية والجنسية ^(٢) .

وحماية النفس يتطلب وضعها تحت رعاية العقل وكفالاته ومعرفة مواطن الضعف التى يتسلل فيها الشيطان إلى هذه النفس .. فلا يصرع الشيطان نفساً صاحبها يقظ دائم الذكر والعبادة وتقوى الله ..

والشغرات التى يدخل منها الشيطان الغضب والشهوة ، فالغضب غول يلتهم العقل ويقضى عليه ، وليس هناك أخطر من أن يصبح الإنسان بلا عقل .. يقول إبليس : « كيف يغلبى ابن آدم إذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ، وإذا غضب جئت حتى أكون فى رأسه » ^(٣) لإفساده بالكبر والغرور ، والرضا عن الذات بالشقة المفرطة ، وبالتهور فى الحالة الثانية ومجاوزة الحد .

ثم الحرص والحسد ، فالحرص يعنى العقل ، وحبك للنشئ يعنى ويصم ، ونور البصيرة يطمس ظلام الحرص والحسد ، يقول الشاعر .

لا تحرصن فالحرص ليس بزائد فى الرزق بل يشقى الحرص ويتعب

وبالحرص والحسد طرد إبليس من رحمة ربه وآدم من الجنة .

(١) ابن كثير؛ تفسير القرآن العظيم ١١ / ١٥ - ١٧ .

(٢) لنظر عبد الكريم دهينة : صراع بين النفس والعقل ، ص ١٨٣ .

(٣) أحياء علوم الدين ، ٣ / ١٥٧ .

ثم التنعيم الزائد والإسراف ، فالشبع يقوى الشهوة ، وأكبر أسلحة الشيطان وبه يذهب الخوف من الله والرحمة من القلب وهجر الطاعات ومباشرة الموبقات وغض الطرف عن موعظة الحكماء وإغلاق القلب عن سماع الحق ، والسقوط فى الأمراض النفسية والعضوية^(١).

ويأتى بعد ذلك الرغبة فى الدنيا ومتاعها ، وهو يتدرج حتى يصل بصاحبه إلى الانانية والذاتية واللامبالاة بالآخرين والصرع فى حب المال وكنزه^(٢).

أما حب الطمع فهو يصيب صاحبه بالتفاق والرياء ومصانعة الأغنياء وقهر الفقراء وكسر خواطرهم والتحالف من الشيطان وإرضائه ، ومناصرة الظالمين والطمع فيما بين أيديهم^(٣).

أما العجلة وعدم التريث؛ فيورث حجب البصيرة ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾^(٤) ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝١١ ﴾^(٥) وقال ﷺ : «العجلة من الشيطان» .

والتنافس فى سبيل المال والتخلق باخلاق البخلاء ، « لو أن لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له واديان »^(٦) . ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مِّمْفَرَةً مِنْهُ وَقَفْلًا ﴾^(٧) . فاخذ الإنسان المال من غير حقه ومنعه من حقه من المهلكات^(٨) .. وهو يقابل هؤلاء الدين ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝٩ ﴾^(٩) .

أما التعصب المتطرف للمذهب فهو الآخر من الشيطان ، وكذلك الميل للأهواء والحقْد على العلماء ومن يخالفهم فى الراى والازدراء والاحتقار لهم .. وتبنى الآراء الشاذة والمهجورة من أجل الشهرة.

(٢) صراع بين النفس والعقل ١ ص ١٨٥ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٣٧ .

(١) السابق ٣١ / ١٦٣ .

(٣) الإحياء ٣١ / ٢٢٣ .

(٥) سورة الإسراء آية ١١ .

(٦) متفق عليه ، وفى حلية الأولياء ١٤ / ٣٣٧ ، واحمد ، والترمذى .. والجامع الصغير انظر ٢٤ / ١٣١ .

(٨) الإحياء ٣٤ / ٢٢٣ .

(٧) سورة البقرة آية ٢٦٨ .

(٩) سورة الإنسان آية ٨ ، ٩ .

٢ - الحرز من الشيطان

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك » (١) .

والحديث خير شاهد على أن ذكر الله يحفظ الإنسان ويقيه من شر شياطين الإنس والجن ومن ضرهم .. فنحن جميعاً صنعة حفيظ قدير وليس أقدر على حفظ صنعة من صانعها .. وشياطين الإنس أقدر على أذانا والكيد لنا باى ضرر وكل ضرر فى الصباح والمساء .. وعند الذهاب والرواح وفى مواطن اللقاء ، فالعين حق وقد قال ﷺ لمن رأى ما سره : « هلاً قلت بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .. والسحر حق .. والحافظ هو الله ..

ورد عن النبى ﷺ : « من قال حين يدخل السوق لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهو على كل شئ قدير... » (٢) الحديث ، مما يدل على أن المقصود حماية المسلم من أذى الناس للناس ، ومكرهم بهم عند البيع والشراء من الحيلة والخلافة والخادعة وغير ذلك .

والحقيقة أن الأحاديث التى جاءت فى الحرز والتحصين من شرور الشيطان والسحر والعين كثيرة جداً ، وهى مرتبطة بالحالة النفسية وسلامة الذات من جنس هذه الشرور ، فلا مانع من التعوذ بها فى مواجهة السحر الأسود وغيره .

جاء رجل إلى أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، فقال : يا أبا الدرداء قد احترق بيتك ، فقال : ما احترق لم يكن الله ، عز وجل ، ليفعل ذلك بكلمات سمعتن من رسول الله ، وقد قلتن اليوم ثم قال : اتھضوا بنا فانتھوا إلى داره ، وقد احترق ما حولها ولم يصبها ، وهذه هى الكلمات :

(١) البخارى ، ٦ / ٢٩٠ - حديث ٣٢٩٣ ، وفى ١١ / ٢٠٤ حديث ٦٤٠٣ .

(٢) رواه ابن ماجه ٢٤ / ٧٥٢ ، والترمذى ٥٤ / ٤٩١ وقال : هذا حديث غريب ، وأحمد ١١ / ٤٧ ، والحاكم ١١ / ٣٨٠ .

وكذلك ابن السى والطبرانى وأبو يعلى والطيالسى .

قال النبي ﷺ : من قال حين يصبح وحين يمسي : «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . أعلم أن الله على كل شئ قدير . وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً . اللهم إني أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . إن رضى على صراط مستقيم ، لم يصبه فى نفسه ولا أهله ولا ماله شئ يكرهه» (١) .

وقال النبي ﷺ : أما لندياك فإذا صليت الصبح فقل بعد صلاة الصبح : «سبحان الله العظيم وبحمده ولا حول ولا قوة إلا بالله» (٢) . ثلاث مرات يوقيك الله من بلايا أربع : من الجنون والجذام والعمى والفالج .

وأما لآخرتك فقل : «اللهم اهدنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأنزل على من بركاتك» ، والذي نفسى بيده وفى بهن يوم القيامة لم يدعهن ليفتنن له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء» (٣) .

وقال النبي ﷺ : ما من رجل يدعو بهذا الدعاء فى أول ليله وأول نهاره إلا عصمه الله من إبليس وجنوده «بسم الله ذى الشأن عظيم البرهان ، شديد السلطان ، ما شاء الله كان أعوذ بالله من الشيطان» (٤) .

وقال النبي ﷺ : «من قال حين يصبح وحين يمسي : «حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» سبع مرات كفاه الله تعالى ، ما أهمله من أمر الدنيا والآخرة» (٥) .

وقال النبي ﷺ : من قال حين يمسي : «بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات ، لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي» (٦) .

(١) رواه ابن السنى عن أبى الدرداء .

(٢) رواه ابن السنى ، وأحمد ، والمناوى ٤١ / ٨٥ ، والسيوطى فى الجامع الصغير ١ / ٣٠ .

(٣) رواه ابن السنى عن ابن عباس .

(٤) رواه الحاكم وابن عساکر عن الزهير ، والديلمى : فردوس الاخبار ٤١ / ٣١٣ ح (٦٤٥٩) ..

(٥) رواه ابن السنى عن أبى الدرداء ٣٧١ .

(٦) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم عن عثمان ، والترمذى ، ٤٣٤ / ٥ ح (٣٣٨٨) ، وأبو داود ، ٢٣ / ٤ .

وقال النبي ﷺ ، قل : « قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء » (١) .

وقال النبي ﷺ ، : (يقول الله ، عز وجل ، قل لا إله إلا الله ، عشرين عند الصباح ، وعشرين عند المساء ، وعشرين عند النوم ، يدفع عنهم عند النوم بلوى الدنيا ، وعند المساء مكايدة الشيطان ، وعند الصباح أسوأ غضبي) (٢) .

والاحاديث في هذا الباب كثيرة، غير أن المسلم الواعي هو الذي ينتخير منها وينتخب ما يسهل حفظه ولا ينسى ذكره في صلواته ، أو عند المواطن التي يستجاب فيها الدعاء ويقبل فيها الرجاء ، ويتوكل على الله في كل وقت وحين ، فهو حاسبه ونعم الوكيل .

(١) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن عبد الله بن خبيب، فى سنن الترمذى ٥١ / ٥٣٠ ح (٣٥٧٥) .

(٢) رواه الديلمى عن أبى بكر ، ٥ / ٣٥٥ ح (٨١٤٦) أو كنز العمال ١ ح (٣٦٠٧) .

٣- الشيطان والعلاقة الزوجية

عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : ولو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني ؛ فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه^(١) .

ويحتمل تأويله بأنه كناية عن وقاية الإنسان من فعل الشيطان من شهوات النفس ونوازع الشر والفسق والفجور فيها ؛ أو أن يكون ذلك الشيطان إنسى يعتدى على حرمان الإنسان ويتجاوزها فيعتدى على الأبناء بالتدخل في تربتهم فيسئ إلى الإنسان وذريته . . وشيطان الإنس أقرب إلى الوسوسة والإساءة من غيره .

أما القول أن الحديث على ظاهره فهو يعني أن شيطان الجن يتدخل في جماع الإنسان لزوجته ويتسلط على أبنائه ، وهذا ما لا يدركه حس أو يستدل عليه عقل ، وهي نوافذ المسلم لقبول التكليف والعمل به ؛ كما أن الشرع أتى بغير ذلك ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾^(٢) و ﴿ إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾^(٣) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾^(٤) (٢٨) .

كما أن من تسلط عليه الشيطان لا أمل له في إيمان أو طاعة ، إذ أن تسلط الشيطان عليه مانع له ومؤثر على قواه العقلية والوجدانية فكيف يؤمن ١٩ . .

كما أن من قال الدعاء عند لقائه بزوجته سلم وسلمت ذريته ، والمشاهد أن كثيراً من أبناء الصالحين ليسوا كذلك . فكيف يمكن التوفيق بين الحديث والواقع ١٩ . .

ثم إن التسلط يتعارض مع العدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٥) ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٦) فبين ، تعالى ، أن ظلم الإنسان راجع له هو ومن دخيلة نفسه .

(١) البخاري ٦١ / ٣٨٨ حديث ٣٢٨٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٣) سورة الطلاق : ٧ .

(٤) سورة المدثر ٣٨ .

(٥) سورة يونس : ٤٤ .

(٦) سورة النساء : ١١٠ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ، ﷺ قال : « أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فرزقا ولداً ، لم يضره الشيطان » (١) .

ذكر الحافظ بن حجر حول ذلك الضرر المنفى على التأبيد فى الحديث أن العلماء اختلفوا هل هو على الظاهر منه أم أن المقصود ذلك الضرر الذى جاء فى الحديث : إن كل بنى آدم يطعن الشيطان فى بطنه حين يولد إلا من استثنى ١١٩

أما المعنى المقصود فى قوله « لم يضره الشيطان » أنه لا يسلط عليه من أجل بركة التسمية ، بل يكون من جملة العباد الذين قيل فيهم ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ (٢) .. ونفى سلطان الشيطان على جنس الإنسان وليس على من كان صالحاً منهم فحسب ، غير أن من أراد الغواية واتباع الشيطان فهو له ، ولن يمنعه الحفظ من أن يختار ما أراد لنفسه .

أما أن يكون المراد أن لا يضره بطنه فى بطنه حين مولده ، فهو تخصيص من غير مخصص .. وليس تخصيصه بأولى من تخصيص هذا ..

وقال البعض : المراد لم يصصره أو لم يضره فى بدنه ، وقال ابن دقيق العيد : يحتمل أن لا يضره فى دينه أيضاً . ولكن هل هذا يعنى العصمة لمن لا عصمة له ١٩ .. ولذلك ذهب البعض أن لا يفتنه عن دينه ، فيكفر ، أما المعاصى فلا عصمة له منها .. ويرد عليهم بأن الذى يعصمه من الكفر يعصمه مما هو دونه !

أما من قال بأنه لا يضره بأن يشارك أبيه فى جماع أمه ، ويؤيد مقالته بحديث مجاهد : « أن الذى يجامع ولا يسمى يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه » فقد رأى الحافظ أن ذلك أقرب للصواب ، وهذا كلام ياباه الشرع والعقل ؛ ومعتقد ذلك جامع بين الشئ ونقيضه ، إذ إن طبيعة الإنسان تخالف طبيعة الجان ، فهذا خلقه الله من طين ، وهؤلاء خلقهم الله من نار السموم ، فكيف تجامع النار الطين أو العكس ؛ والطبيعة مختلفة فهل يجامع الجنى الإنسانية دون أن تشعر أو

(١) البخارى ، ٦ / ٣٨٦ الحديث رقم ٣٢٧١ . وكذلك ٩ / ١٣٦ كتاب النكاح باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله حديث رقم ٥١٦٥ . ومسلم فى كتاب النكاح ، حديث (٦) ، وابن ماجه ، حديث ١٩١٩ ، وكذلك عند الترمذى وأبى داود ، ٢١٦٠ ، وأحمد ، والطائسى ، ج ٢٧٠٥ .

تحس به .. ومن قال لهؤلاء أن للشيطان خلقه وتكويناً كخلق الإنسان وتكوينه ..
أو أن له شهوة ولذة ورغبة في النكاح كالإنسان .. ولا يوجد نص يدل على ذلك ١٩

فهل شاهد أحد من هؤلاء الشيطان وهو يلتف على إحليل الإنسى ثم يجتمع معه زوجته ؛ أو زوجة غيره ١٩ .. ولا يشهد أحد ذو دين بذلك .. كما أنه يعنى أن أغلب بنى آدم أولاد شياطين ا

وحول طبيعة إبليس سنلقى الضوء على بعض آراء الأصوليين ولن نتدخل بتعليق ،
لكفاية ما ذكرنا فى رد ما لا يعقل من آراء تصطدم بالدين وأسس العقيدة .

وأول هذه الآراء هو اختلافهم حول مدى قدرات الشيطان فى تحمل ما لا يطيق
البشر حمله من أعباء وتكليف وتصرفات خارجة عن طاقة الإنسان .

(١) فقال قوم : جائز ذلك ، وأن يحمل الأشياء الكثيرة .

(٢) وأنكر فريق ذلك ، وأرجعوا رفضهم إلى أنه يبطل دلائل الرسل ، وهو مقال
مشهور للجبائى من المعتزلة ^(١) وهو رأى صحيح وله اعتباره .

وثانى هذه الآراء هو هل يجوز أن يتقلب الشياطين عن صورها ؟

(١) أجاز ذلك فريق من المتكلمين .

(٢) ومنعه فريق آخر ^(٢) .

وللفريق الأول رأى الذى يدافع عنه وهو عقلاً لا مانع منه ، أما الثانى فقد استقرأ
النص ، فلما لم يجد دليلاً على الجواز قطع بالمنع ، وهو أكثر حرصاً على ضبط
القضايا السمعية بمراعاة أصولها ودلائلها وهو قول رشيد .

(١) الأخرى : مقالات الإسلاميين ٢٤ / ١١١ .

(٢) الأخرى : المقالات ٢٤ / ١١١ .

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

وَهُمْ لَا يَدْرِيهِ

١ - الشيطان والصلاة .

٢ - الشيطان وصلاة الرسول ﷺ .

٣ - الشيطان والالتفات في الصلاة .

٤ - المار شيطان

الفصل الثالث

وهم لابد من رده

أن تتصور أن الشيطان يخطر للإنسان المسلم في صلاته ، وأنه معرض لرسول الله في صلاته ، ويختلس من المسلم في صلاته فيجعله يلتفت أو أنه يحاول أن يمر بين يدي المصلي .. أقول إن تصورك كل ذلك حقيقة وليس مجازاً .. مع إيمانك بالله الواحد وصفاته وأسمائه الحسنی وكتابه وما جاء فيه .. هو جمع بين المتناقضات .. وإسقاط لبدیهیات العقول ومكابرة لا حد لها ..

إلى أين يهرب المسلم من الشيطان إذا كان يخترق أجل وأعظم العبادات ويعبث بنا ونحن بين يدي الله في الصلاة ۱۴ .. إنك أنت الذي تؤسوس نفسك .. فتدخل الصلاة ومعك هواك وخواطرك وشغلك بالدنيا وشهواتها وتستسلم لشلال مفرق من الوهم والخيال الذي يداعبك طوال الصلاة .. وكأنك تستدعيه لساعة الإخلاص والتوجه .. فتصير بجسدك وروحك مع وساوسك وخیالك السارح في الآفاق .. أنت نحو قبلة ربك متجه .. وقلبك نحو هواك متجه .. وهذا ما فعله إبليس .. أراد أن يعبد الإنسان الله ويطيعه على شرطه هو لا على شرط ربه .. أراد هواه وربه فأسلمه الله لنفسه فهو .. وأنت تفعل كفعله وتستسلم لشريك هو نفسك .. فهلا أسلمت لله وحده .. وتوجهت روحاً وجسداً له ۱.

هنا يكون خلاصك من الخواطر والوساوس .. فانت مطارد من داخلك وخلاصك من داخلك .. فاقرا القرآن بقلبك لا بلسانك .. واجمع امرك ولا تشتته .. فشيطانك نفسك وهواك وما توزعك من الملذات والشواغل .. فأقلل من دنياك وأكثر من دينك .. واستحضر ربك واستر نفسك بتحقيق لك الطمانينة والسكينة بإذن الله .

وشبيه بذلك الاعتقاد بأن الأمة قد دخلت نفقاً من التخلف والتبعية والتشردم ولا فكاك لها منه أبد الدهر ، وأنه قدر قدره الله عليها ، فأمريكا سيدة العالم ونحن عبيدها ، وعلى رقبتنا وضع سيف الديون الخارجية من صندوق النقد الدولي (الاستعماري) والسوق الواحدة - الجات ، والمنظمة الدولية للسوق المشتركة بعد

ذلك - والعولمة، وتحكم الشركات متعددة الجنسيات فى مقدراتنا الاقتصادية بتدويل
الخصخصة .. وهذا وهم وخطأ فادح ، فقدّر الله وقضاؤه لا يعلمه إلا الله .. وأمريكا
ليست شيئاً يذكر ، ولا يعنى كونها المهيمنة والحفيظة على مقدرات العالم ، والقائمة
بدور المرشد والموجه له لا يعنى شئ ؛ فذلك القطب الواحد لا يتفق مع سنة الله فى
الكون ، وانهيار روسيا وتبعية أوروبا لأمريكا وحلف الأطلنطى شئ غير طبيعى وشاذ
ومؤقت ؛ ولذلك علينا نبذ وهم الشيطان الأكبر وعدم الخضوع لمخططاته فى المنطقة ..
فما أحدثته فى أمريكا اللاتينية من مؤامرات وتبعية وإذلال لدولها ليس يخفى ، من
نيكارجوا إلى شيلي ، ومن كوبا حتى البرازيل .. وعلينا أن نعتبر بصمود الصومال ،
ذلك البلد العارى الفقيرة الموارد كيف أبى تدخل أمريكا فى شأنها الداخلى ..
وكيف هزت إيران كبرياء ذلك الشيطان .

إن ما أحدثته الدول الاستعمارية فى القرن الماضى لا ينسى ، ولا ينبغي له أن
ينسى ، فقد دخلت أوروبا حربين عالميتين وحاربت تحت شعار « منحارب حتى آخر
جندي فى مستعمراتنا » .. وإذلال هتلر للحلفاء ومحاولته السيطرة على العالم
بإيحاء من فلسفة نتشه وهولمز العنصرية ، وتضخم الأنا وتجاهل الآخر حتى دمر نفسه
وشعبه ، هو تصرف شيطانى بحت .

متى نتعلم أن الشيطان أهون من أن نخافه ، وإن كان علينا الحذر منه ومحاربته ..
متى نشور لكرامتنا العربية الجريحة فى لبنان على يد اليهود وفى العراق .. من قال أن
سبعة عشر مليون عراقياً رهاناً القصف الأمريكى وطائرات قوات التحالف لعشر
سنوات متصلة .. هل نزعّت الرحمة من قلوبنا .. هل ماتت ضمائرنا .. هل بعناها
مع كل ما بعنا من أشياء غالية ١٩ .

١- الشيطان والصلاة

عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : «إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثوب بها أدبر ، فإذا قُضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول : أذكر كذا وكذا ، حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدرك ثلاثاً صلى أو أربعاً سجد سجدتي السهو» (١) .

وفى الحديث بيان أن الشيطان يفر عند سماع النداء بالصلاة وله ضراط وكذلك يفر عند الإقامة ، أما المسلمون فى الصلاة يقبل عليهم بخواطره ووساوسه ، فيتدخل بين عقل الإنسان وقلبه فيشغله عن ذكر ربه والصلاة ، فيفقد المسلم السيطرة على إدراك عدد الركعات التى أدّها أو التى لم يؤدّها بعد ..

وهذا الحديث إما أن يحمل على ظاهره ، وهو محال لتعارضه مع القرآن الكريم واللغة وأساسيات التوحيد والعدل ؛ فخواطر الشيطان التى يقذفها فى قلب الإنسان ووسوسته له ، تعنى أن للشيطان قدرات هائلة تساويه بخالقه ، عز وجل عن هذا الكفر والشرك البين ..

كما أنه يتعارض مع حقيقة التكليف والعدل الإلهى ، أن يسلط عدوه على وليه فى أخص لحظات العبادة وهو الصلاة ، فلا يبقى له اختياراً فهو إذن مجبور جبراً على السهو والخطأ بفعل غيره ، وهو الشيطان ، ثم كيف يخطر للإنسان دون أن يشعر الإنسان بذلك عن طريق حاسة من الحواس ..

وكذلك الكلام إن قالوا إنه من شياطين الإنس ؛ لأن المشاهد أنهم لا يوسوسون لنا فى الصلاة ، أما من قال إن له متقاراً يصل به إلى قلب الإنسان من أذنيه ، فهو لغو باطل وهراء لا يقبله إلا الحمقى .

والصواب أن معنى هذا الحديث هو كناية عن خواطر النفس ووساوسها للإنسان فتلهيه عن الصفاء والطمأنينة فى الصلاة ، وهو جائز ، أما القول بشيطان يفعل ذلك على الحقيقة من الجن أو الإنس فهو محال ، ثم كيف يدخل الشيطان إلى أماكن

(١) الفتح ٦١ / ٣٨٨ ، حديث رقم ٣٢٨٥ .

الطهارة والعبادة ، على عباد الله المتطهرين ، فى عبادة هى ذكر خالص لله ، تعالى ، فيوسوسهم .. اليس ذلك ناقضاً لما قالته المجبرة وسائر طوائف المسلمين من قبل أن الذكر والقرآن والطهارة حرز من الشيطان ، والصلاة جامعة لها ١٩

أولا يتعارض ذلك مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (١) .

إن المشكلة ليست فيمن وضع قانوناً للتأويل والفهم ، ومعايير وضوابط لقبول الرواية أو طرحها زائدة على كونها صحيحة من ناحية السند ؛ المشكلة الحقيقية فى طائفة تأخذ الكلام على ظاهره ، وتجريه كما هو ، فتفقد القرآن مصداقيته والفكر الإسلامى أهم حقائقه ، وهو توحيد الله الواحد القادر ، الذى لا شريك له من إنس أو جان أو غيرهما من المخلوقات ؛ فالله ، تعالى عن ذلك ، لم يجعل لإبليس سلطاناً مساوياً لسلطانه وقدرات حرم منها أوليائه للتصرف فى الكون ، وفى مقادير الأمور وقلوب أوليائه على وجه الخصوص ليفتنهم ، ولو فعل ذلك لكان إبليس فى تسلطه ووسوسته مطيعاً لربه ، يستحق الثواب والمكافأة ، وكان الله ظالماً لعباده .. !

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وقد اختلف المتكلمون الإسلاميون حول شر وسواس الشيطان ، كيف يوسوس ؟

(١) فقال فريق منهم : إنهم يوسوسون ، وقد يجوز أن يكون الله ، تعالى ، جعل الجو أداة لهم ، أو جعل لهم أداة ما غير الجو ، وذلك متصل بالقلب ، فيحرك الشيطان تلك الآلة من جهة بعض خروق الإنسان فيوصل الوسوسة إلى قلبه بتلك الآلة ، مثال ذلك أنك تأخذ الرمح وبينك وبين الإنسان عشرة أذرع ، فتكلم فيه فيسمع الإنسان إذا كان الرمح مجوفاً ، وكان متصلاً بسمعه (٢) .

ولا خلاف فى أن إمكانية الاتصال معقولة ولا يشك فيها أحد ، وتطور وسائل الاتصال فى عصرنا تطوراً مذهلاً يساعدنا على استيعاب إمكانية وسوسة الشيطان الجنى للإنسان من طرف خفى ، غير أن الخلاف فى هل

(١) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٢) الأشعرى ، مقالات الإسلاميين ٢١ / ١٠٩ .

يصل ذلك إلى القلب والعقل ويتغلغل في النفس والخواطر ويتطرق إلى الرؤى والفكرام لا ١٩.. ويساعدنا أن كل ذلك من قبيل الحسيات التي يمكن إدراكها أو عقلمها .

(٢) الفريق الثاني : قال بأن جسم الشيطان أرق من أجسامنا ، وكلامه أخفى من كلامنا ؛ فيجوز أن يصل إلى سمع الإنسان فيتكلم بكلامه الخفى ، فيكون ذلك هو وسوسته .

وهذا الرأي يعترض عليه باختلاف القابل والماهية ، مما يعنى عدم استقبال أحدهما عن الآخر ، وإن أمكن ذلك من الشيطان للإنسان فهلا أدركه الإنسان وتجاوب معه .. أم إن النتائج مقدمة على الوسائل والرسالة تصل مشفرة دون أى حامل لها ١٩^(١)

(٣) وقال فريق ثالث : قال بل يدخل إلى قلب الإنسان^(٢) . بنفسه حتى يوسوس فيه .

وهذا الفريق لا يبالى باعتراض المعارضين ولا شغب الخصوم ؛ وآراؤه وأفكاره سابقة على العقل والنص معاً ؛ ويأتى بعد ذلك فيبحث فيهما عما يؤيد آراؤه . وهم أصحاب الطبع أو من يؤيد الأسطورة والخرافة ويؤثر الفكر السلفى أياً كانت قيمته وأهميته ، فتقليد الآباء ومتابعة الأجداد أمر يلزمهم تماماً .

ينبغي بعد ذلك معرفة رأى الكلاميين فى قضية علم الشيطان لما فى القلوب ، حيث يذكر الأشعرى فى مقالاته أنهم اختلفوا حول : هل يعلم الشيطان ما فى القلوب أم لا؟ على ثلاث مقالات :

(١) فقال إبراهيم ومعمار وهشام ومن اتبعهم : إن الشياطين يعلمون ما يحدث فى القلوب ، وليس ذلك بعجيب ؛ لأن الله ، عز وجل ، قد جعل عليه دليلاً ؛ ومحال أن يدخل الشيطان قلب الإنسان .

(١) المصدر السابق ٢ / ١٠٩ .

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

مثال ذلك أن تشير إلى الرجل : أقبل - أو أدبر . فيعلم ما تريد ، وكذلك إذا فعل فعلا عرف الشيطان كيف ذلك الفعل ، فإذا حدث نفسه بالصدقة والبر عرف ذلك الشيطان بالدليل فنهى الإنسان ، عنه ، هكذا حكى «زرقان»^(١) .

وهذا الرأي يتفق مع العقل من حيث كونه يحمل إشارات وأمارات ودلالات على معرفة الشيطان لتصرفات الإنسان الحركية والقلبية من حركاته .

(٢) فريق آخر من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم رأى أن الشيطان لا يمكنه معرفة ما فى قلب الإنسان ؛ فإذا حدث الإنسان نفسه بصدقة أو بشئ من أفعال البر نهاه الشيطان عن ذلك ، على الظن والتخمين .^(٢)

وهذا الرأي يلاحظ اتفاق ما ينهجه فى هذه المسألة مع أصول الدين وآيات القرآن الحكيم قال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾^(٥) .

ولا يوجد فى كتاب الله آية تصرح أو تلميح على أن الشيطان يعلم سرائر النفوس وخبائى القلوب .

(٣) وقال فريق ثالث : إن الشيطان يدخل فى قلب الإنسان فيعرف ما يريد بقلبه^(٦) .

وهذا رأى هو ما نعارضه بشدة فى كتابنا ، وحسبنا من تهافته تعارضه مع الشرع والعقل ولا يحظى بالقبول سوى فى الأوساط الساذجة ، والتى طرحت العقل وراءها ؛ وتبنت الخرافة بشدة .

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ٢١ / ١١٠ .

(٢) للقاتل ٢١ / ١١٠ .

(٣) سورة الملك آية ١٣ .

(٤) سورة يس آية ٧٦ .

(٥) سورة الانعام آية ٣ .

(٦) السابق ، الصفحة نفسها .

٢- الشيطان وصلاة الرسول ﷺ

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : « عن النبى ﷺ أنه صلى صلاة فقال : إن الشيطان عرض لى فشداً على يقطع الصلاة على ، فامكنى الله منه .. فذكره »^(١) .

كما ذكره البخارى بتمامه فى كتاب الانبياء باب قول الله تعالى (ص : ٣٠) : ﴿ وَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾^(٢) .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن عفريتاً من الجن تغلت البارحة ليقطع على صلاتى ، فامكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾^(٣) سورة ص ٣٥ . فرددته خاسئاً »^(٤) .

قال الحافظ قوله ﴿ فذكرت دعوة أخى سليمان ﴾ أى قوله ﴿ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ (سورة ص ٣٥) ، وفى هذه إشارة إلى أنه تركه رعاية لسليمان عليه السلام ، ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن فى جميع ما يريد لا فى هذا القدر فقط ..

وهذه العبارة الاخيرة غير مفهومة فقد بين النبى ﷺ أنه ترك هذا الجنى رعاية لأخيه سليمان ، وكان قادراً على أن يربطه ولم يفعل .. ثم يظهر من كلام الحافظ أن خصوصية سليمان باستخدام الجن منعت النبى ﷺ من ذلك ، فإى خصوصية هذه ، والنبى يقرر أنه رغب فى ربطه ، أى أنه كان قادراً على ذلك ؟!

ثم ذكر الحافظ كلاماً للخطابى ، صاحب المعالم والمتكلم الاشعرى المعروف ، يفيد إمكانية رؤية الجن ، استدلل الخطابى بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن فى أشكالهم وهيئتهم حال تصرفهم ، قال : وأما قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ فالمراد الاكثر الاغلب من أحوال بنى آدم ، وتعقب بأن نعى رؤية الإنس للجن على هيئتهم ليس بقاطع من الآية ، بل ظاهرها أنه ممكن ؛ فإن نعى

(١) البخارى ٦١ / ٣٨٨ ، حديث رقم ٣٢٨٤ / ٣ / ٩٨ .

(٢) جاء فى الفتح ٦ / ٥٢٧ خطأ بين فى المطبوعة ﴿ رَبِّ هَبْ لِي .. ﴾ والصحيح ما انشأه ، وهو خطأ مطبعى لا غير .

(٣) الفتح ٦١ / ٥٢٧ .

رؤيتنا إياهم مقيد بحال رؤيتهم لنا ، ولا ينفي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة .

وهذا كلام غير مفهوم ورد لكتاب الله بلا مبرر واضح ، غير أنه تصور أن في الحديث ما يدل على رؤيتهم ولذلك يذكر الحافظ رأى أكثر العلماء بأن نفي الرؤية في الآية على العموم ، ومن قال بغير ذلك فهو مخطئ : « ويحتمل العموم ، وهذا الذي فهمه أكثر العلماء متى قال الشافعي : من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته . واستدل بهذه الآية ^(١) .

ورحم الله الشافعي كان نوراً يهتدى بعلمه واجتهاده ونظره .

وقد تطرق إلى هذه المسألة الأصوليين : هل يرى الإنسان الشياطين في الدنيا أم لا ؟
(١) فقال فريق : لا يجوز ، إلا أن يرىهم الله ، سبحانه ، نبياً ، أو يجعل رؤيتهم علماً ودليلاً على نبوة نبي ، وقد يقدر الله ، سبحانه ، أن يرى عباده الملائكة والشياطين من غير أن يقلب خلقهم ، وقد يرى الإنسان الملائكة في حال المعينة .

(٢) وقال فريق آخر : لا يجوز أن يروا بحال ، إلا أن يقلب الله خلقهم ويخرجهم عما هم عليه .

(٣) وقال فريق ثالث : أنه يجوز أن يروا في الدنيا من غير أن يقلب الله خلقهم ، ومن غير أن يجعل ذلك دليلاً على نبوة نبي .

(٤) أما الفريق الرابع : فقد أنكر الجن والشياطين ، ونفى وجودهم على الأرض ، وأثبت وجود الإنسان وحده ^(٢) .

فأى هذه الآراء أقرب إلى قلبك وعقلك ، أو ليس ما جاء في كتاب الله واتفق مع أصول العقيدة ومناهج التوحيد ١١٩

ويقول أحد العلماء النفسانيين : أما الشياطين فهم أرواح غير منظورة ، ولا يمكن

(١) الفتح ٦١ / ٥٢٠ .

(٢) الأشمري : مقالات الإسلاميين ، ٢ / ١١٤ .

الاستدلال عليها بالحواس وهى ترانا من حيث لا نراها ، قال الله ، تعالى ، محدراً من الشيطان الاكبر إبليس وفتنه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) . والشيطان من خليقته الآذى والكبرياء والحاق الضرر بالإنسان بدون سبب أو معرفة سوى دوافع الحقد والمقت ؛ لانه يعتبر الإنسان عدوه المبين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السُّعُورِ ﴾ ^(٢) فهو ماكر محتال وسياسى ما هرفى إضلال الإنسان .

وللشيطان مع النفس الغريزية تحالف وانسجام ، وهى ما نسميه لمة الشيطان فى مقابل الملك فى النفس العليا ، وكثيراً ما تحاول الاولى خداع الثانية فتخدعها ، بإقامة المبررات على قبول الرزيلة أو الفن الردى والفواحش التى تطير فى الهواء عن طريق الشاشة الفضية أو البيضاء أو المسرح ؛ فالقائم بها حليف للشيطان والمستقبل لها كذلك .

والحل فى الدعوة إلى فن جميل يدعو للفضيل والجمال ، وهادف يدعو إلى إصلاح المجتمع وتقويم الاخلاق ويتبنى القيم العليا للإنسان .. إن من وراء الفن الهابط شياطين الإنس والجن ، ومن ورائهم هوليود سينما العرى والعنف والطلقات ، ولا غرابة أن تقوم حضارة الغرب على الطلقة والقبلة الفاحشة والليلة الساخنة ، أما نحن فحضارتنا قامت على نقيض ذلك تماماً ؛ فدعت للخير والحق والفضيلة والعدالة الاجتماعية واحترام الإنسان والحفاظ على آدميته وصيانة الحقوق وأداء الواجبات ، والفن الجميل الراقى ، الذى يسمو بالإنسان ويغذى عقله وروحه .

لقد تحالف الغرب مع الشيطان فأخرج له مدنية منكورة ومشوهة الوجه والفعال ، فيوم أن نهض دعا إلى المادية والنفعية والبرجماتية ، ونبذ الإنسان والقيم العليا وداس على كل شئ فاستعمر وقهر غيره من البشر ؛ وأشارع العنصرية وجعل من حقه استعمار الآخرين واستغلال مقدراته وخيراتهم ؛ وتبنى الرأسمالية الفاحشة التى لاترعى سوى الحفنة المالكة المستغلة على حساب الجماهير الفقيرة المعذمة ؛ وعلى النقيض من ذلك تبنى الشيوعية فى أسوأ صورها ، فأشارع الديكتاتورية فاهلك الإنسان من

(١) سورة الاعراف آية ٢٧ .

(٢) سورة فاطر آية ٦ .

أجل الوصول إلى الهدف الاسمى ، ووزع الفقر بدلاً من أدوات الإنتاج ، واهلك
الحرث والنسل وخلف البلاد من ورائه خراباً .

أما الديكتاتورية والديمقراطية فعنده سواء طالما حمت الأغنياء وأموالهم وأرضهم،
وحافظت على تفوقهم ، وطبقت كلا السياستين تطبيقاً مجحفاً فى العالم الثالث ،
بنفسها أو عن طريق عملائها ، أو ليس بعد ذلك يحق لنا أن نسميهم حلفاء
الشیطان ١٩

لقد وظف الغرب العلم من أجل الحرب أكثر من توظيفه للسلام، وجرب فى العالم
الفقير جميع أنواع الأسلحة ، وأثبت فى كل أرض خراباً ، وصناعات له يشترى ما
ينتجه من سلاح ، لتزداد مديونية الدول الفقيرة ويوجه السلاح إلى صدورهم وقهرهم
به ، ويزداد الغرب تخمة ، وجبال السمن والزبد إرتفاعاً !

ففى الوقت الذى يرمى الغرب القمح فى البحر ؛ ليحافظ على أسعاره العالمية تحت
مسمى قيم السوق ، يموت كل يوم أكثر من ٢٥٠ ألف طفل فى العالم الثالث ، تحت
وطئه الجوع والظروف السيئة ..

إنه لا يفعل ذلك إنسان أبداً ، بل شيطان رجيم يحق لنا حربه بكل ما نملك . فلا
فرق بين استعمار يحتل أرضنا عسكرياً ، واستعمار يحتل أرضنا اقتصادياً أو يمارس
علينا شتى الضغوط السياسية لنقبل سلاماً غير متوازن بالمرّة ، تحت التهديد النووى أو
يصنع بديلاً لمفهوم السلام ، فبدلاً من أن تكون الأرض مقابل السلام .. يتحول إلى
الامن مقابل السلام .. وأكيد يقصدون أمننا نحن فى أرضنا ، فمن يقبل بهذا ١٩ ..

* * *

٢ - الشيطان والالتفات في الصلاة

عن عائشة رضى الله عنها . سألت النبي ﷺ عن الالتفات الرجل في الصلاة . فقال :
« هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم »^(١) .

قال الحافظ ابن حجر : قوله ﴿ هو اختلاس ﴾ أى اختطاف بسرعة ، ووقع في
« النهاية » : والاختلاس افتعال من الخلسة وهى ما يؤخذ سلباً مكابرة ، وفيه نظر ..
أى أنه رد هذا المعنى ، ثم قال غيره : المختلس الذى يخطف من غير غلبة ويهرب ولو
مع معاينة المالك له والناهب يأخذ بقوة ، والسارق يأخذ فى خفية .

فلما كان الشيطان قد يشغل المصلى عن صلاته بالالتفات إلى شئ ما بغير حجة
يقيمها أشبه المختلس . وقال ابن بزيمة : أضيف إلى الشيطان ؛ لأن فيه إنقطاعاً من
ملاحظة التوجه إلى الحق سبحانه .

وقال الطيبي : سمي اختلاساً تصويراً لقبح تلك الفعلة بالمختلس ؛ لأن المصلى
يقبل عليه الرب ، سبحانه وتعالى ، والشيطان مرتصد له ينتظر فوات ذلك عليه ، فإذا
التفت اغتنم الشيطان الفرصة فسلبه تلك الحالة .. ثم قال : وكان المصنف أشار إلى
أن علة كراهة الالتفات كونه يؤثر فى الخشوع - كما وقع فى قصة الخميصة -
ويحتمل أن يكون أراد أن ما لا يستطيع دفعه معفو عنه ، لأن لمح العين يغلب
الإنسان ، ولهذا لم يعد النبي ﷺ تلك الصلاة^(٢) .

وهو من قبيل التصوير والكناية وليس على حقيقته لتعارضه مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ
عِبَادِي لَإِنِّي لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾^(٣) .. ولأن المصلى فى عبادة فيها الذكر والقرآن وهو
على طهارة ، وهى الشروط التى اشتراطها المحدثون من قبل فى حديثهم عن الظروف
التي يحفظ الله بها الإنسان من وساوس الشيطان وبقيه منه بها .. فلزم مما سبق إما
نقضهم لكلامهم السابق فى التفسير سابقاً للإستعاذة أو آيات الكتاب الحكيم ، أو
بطلان تأويلهم .

(٢) الفتح ٢ / ١٧٥ .

(١) البخارى ٦١ / ٣٩٠ حديث ٣٢٩١ ، وكذلك ٢ / ٢٧٣ حديث ٧٥١ .

(٣) سورة الإسراء آية ٦٥

وقد أحسن البغوى حين قال : إن النهى عن ذلك لا يدرك معناه ؛ وجعله من قبيل التعبد الذى يجب الإيمان به ^(١) .

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ (٢) ﴾ ^(٢) ، فقد حث الله ، تعالى ، المؤمنين على الخشوع ، روى أن النبى ﷺ كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده .

وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة ، هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شئ ، أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا . وقيل : هو جمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها .

ومن الخشوع : أن يستعمل الآداب ، فيتوقى كف الثوب ، والعبث بجسده وثيابه ، والالتفات ، والتمطى ، والتثاؤب ، والتغميض ، وتغطيه الفم ، والسدل ، والفرقة ، والتشبيك ، والاختصار ، وتقليب الحصا .

روى عن النبى ﷺ ، أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « لو خشع قلبه خشعت جوارحه » ^(٣) .

ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا ، وهو يقول : اللهم زوجنى العين ، فقال : بئس الخاطب أنت ! تخطب وأنت تعبث . فإن قلت : لم أضيف الصلاة إليهم ، قلت : لأن الصلاة دائرة بين المصلى والمصلى له ، فالمصلى هو المنتفع بها وحده ، وهى عدته وذخيرته فهى صلاته . وأما المصلى له ، فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها ^(٤) .

(١) الفتح ٢١ / ٧٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية ١ ، ٢ .

(٣) أخرجه الترمذى ، والسيوطى ، الجامع الصغير ٢١ / ١٣٠ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ٣١ / ١٧٥ .

٤- المار شيطان

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال النبى ﷺ : « إذا مر بين يدى أحدكم شئ وهو يصلى فليمنعه ؛ فإن أبى فليمنعه ، فإن أبى فليقاتله ، فإنما هو شيطان » (١) .

علل الحافظ قوله ﷺ على من أراد المرور بين يدى المصلى بأنه شيطان ؛ بأن فعله فعل الشيطان ؛ لأنه أبى إلا التشويش على المصلى . وإطلاق الشيطان على المارد من الإنس سائق شائع ، وقد جاء فى القرآن قوله تعالى : ﴿ شَاطِئِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (٢) . وقال ابن بطال : فى هذا الحديث جواز إطلاق لفظ الشيطان على من يفتن فى الدين ، وإن الحكم للمعانى دون الاسماء ؛ لاستحالة أن يصير المار شيطانياً بمجرد مروره . انتهى .

وهو مبنى على أن لفظ « الشيطان » يطلق حقيقة على الجنى ومجازاً على الإنسى . وقال آخرون إنه يجوز أن يكون معه شيطان ، وفى رواية مسلم « فإن معه قرين » .. وفى رواية للبخارى « فإنما معه شيطان » .

والمقصود بالمقاتلة المدافعة اللطيفة لا حقيقة القتال ؛ لأن مقاتلة الشيطان إنما هى بالاستعاذة والتستر عنه بالتسمية ونحوها ، وإنما جاز الفعل اليسير فى الصلاة للضرورة ، فلو قاتله حقيقة المقاتلة ، لكان أشد على صلاته من المار (٣) .. وهذا من أحسن ما ذكر الحافظ ابن حجر على لسان العلماء فى تفسير معنى الشيطان فى هذا الحديث .. وتأكيد على أن هناك من الإنس شياطين ، أى يفعلون فعل الشياطين يبين أن هناك دوافع داخلية تحرك الفعل الشرير هى نوازع وشهوات وميول .. إذن فلا عجب من أن يكون شيطان الإنسان هو هواه .. فالمار بين يدى المصلى فى الغالب مصلى مثله إلا أن الهوى والعناد دفعاه إلى الإصرار على المرور بين يدى أخيه الذى يصلى دون العبور من طريق آخر ؛ ولذا جاز دفعه دون أن يبلغ الأمر حد العنف .. فالمقصود بالمقاتلة مجرد الدفع الخفيف ، حتى ينشئ عن فعله الخاطئ ويتحول بعيداً عنه .

(١) الفتح ٢١ / ٧٢ .

(٢) الفتح ٦١ / ٣٨٦ . حديث رقم ٣٢٧٤ ، وكذلك ١ / ٦٩٣ حديث رقم ٥٠٩ .

(٣) الفتح ١١ / ٦٥٥ .

(٢) سورة الانعام آية ١١٢ .

الفصل الرابع

ليس إبليس سلطان على الحياة

- ١- الشياطين في رمضان .
- ٢- صدقك وهو كذوب .
- ٣- وصاح إبليس في أحد .
- ٤- إبليس والليل .
- ٥- إبليس والنسيان .
- ٦- إبليس والفتنة .
- ٧- إبليس والوسوسة .
- ٨- معرفة أسرار النفس عند الغزالي .
- ٩- كيف تحدث المخاطر المختلفة ؟

الفصل الرابع

ليس لإبليس سلطان على الحياة

رأينا فى الفصل السابق أن تدخل الشيطان فى عبادة المسلمين الكبرى ، وهى الصلاة ، مجرد وهم ، وكناية عن صراع الإنسان لذاته وشهوته وميوله ونوازعه ، أى أهواؤه النفسية .. أما إنه يأتى فيخطر للمسلم فى الصلاة على وجه الحقيقة ويقذف فى قلبه أفكاراً تشغله عن صلاته فهذا لا يحدث أبداً .. لا من شيطان الجن ولا شيطان الإنس .. وإلا لأدركنا ذلك عن طريق الحواس والعقل .. والتسليم بذلك على حقيقته يدخلنا فى حساب آخر .. يجعل من المسلم مجرد بقايا حطام متداع ، لا قدرة له على بناء الحياة والجهاد فى سبيل الله .. إذ إنه يؤتى فى مواضع الشرف والعز ، ولا يستطيع دفع هذا الشيطان عن نفسه .. فكيف بجهاد دولة الشيطان وهو معها بجنوده ونفسه وعتاده ، الذى لا ندري حجم قوته .

المهم على المسلم أن يتيقن أن إبليس ليس له سلطان على الزمان أو المكان أو النفس .. وأن الله قد حفظ دينه وله الملك وحده على الأكوان والمخلوقات لا شريك له فى ذلك ولاند .. وما سنعرضه فى هذا الفصل من أحداث فى ضوء ما ذكرنا .

فما دلالة أن تصفد الشياطين فى رمضان وأن تطلق فيما عداه ، وماذا قصد الرسول ﷺ ، بقوله لأبى هريرة عن ذلك الشيطان الذى أتاه صدقك وهو كذوب ١٩ وكيف يمكن قبول صدق الكذوب وجعله ديناً نتعبد به لرب العالمين ، وأن يعلم ذلك الكذوب ما لا يعلمه الرسول الرحمة ﷺ عن آية الكرسي ١٩

ثم يأتى بعد ذلك الحديث عن دور إبليس فى غزوة بدر ، وكيف اغرى الكفار حتى وقع منهم ما وقع ، فتجنبهم وفرّ هارباً . فهل كان ذلك منه وقوعاً ، أم من شيطان الإنس أبى جهل حقيقة ١٩

وبما أن إبليس شيطان مارد لعين يبغض النور ويحب الظلمة ، التى يظهر فيها هو وذريته ليمارسوا بغيتهم وعدوانهم ، فكيف نحذره بالليل وحين دخول الظلمة ١٩ .. أخبرنا بذلك رسول الله ، ﷺ ، الصادق الأمين .

ولكن هل يستطيع إبليس التدخل فى الذاكرة حقيقة ، وأن ينسى بنى آدم بعض

معارفهم ويمحوها كأنها لم تكن ، أم أنه على سبيل المجاز اللغوى ؟.. ثم ما دوره فى الفتنة، وكيف يوسوس للإنسان ١٩.. هذا ما سنجيب عنه فى هذا الفصل .

وعلى القارئ أن يربط بصفة مستمرة بين ما سبق وما سيأتى ، من أوصاف وأدوار وأحوال يعيشها الشيطان ، وأن يسقط بعضها على أفعال الإنسان، فسيجد أن كثيراً من هذه الأمور يأتيتها بنى آدم ، فهم أكثر من الشياطين براعة فى إغواء الإنسان وفتنته، وكذلك نتمنى أن يكون القارئ على وعى كاف ، فيسقط هذه الأحوال على دولة الشيطان «إسرائيل» وما تفعله بنفسها ، أو عن طريق اللوى الصهيونى فى العالم اجمع، والذي سيطر على الإعلام والاقتصاد عن طريق شراء الادوات والضمائر؛ وتدخل الشركات المتعددة الجنسيات فى تهديد الاستقرار الوطنى والدولى ، بعودة الاستعمار من جديد ، ولن يستغرب القارئ أن هذه الدولة الشيطان هى الوسيط الامين ، الذى ينفذ رغبات وأمانى وأمنيات إبليس ، ويحقق ظنه فى بنى آدم ، حتى يشمت فيهم فيما بعد !

١- الشياطين في رمضان

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين» (١) .

١- قال الحافظ : قوله «وسلسلت الشياطين» قال الحلبي : يحتمل أن يكون المراد من الشياطين مسترقوا السمع منهم ؛ وأن تسلسلهم يقع في ليلالي رمضان دون أيامه ، لأنهم كانوا منعوا في زمن نزول القرآن من استراق السمع ، فزبدوا التسلسل مبالغة في الحفظ .. وهذا اجتهد مقبول ورأى يحتمله الحديث .

٢- أما الرأي الآخر : يحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون من افتتان المسلمين إلى ما يخلصون إليه في غيره لاشتغالهم بالصيام الذي فيه قمع الشهوات وبقراءة القرآن والذكر .. وهذا الاحتمال يتعارض مع نص القرآن ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥١) فقد خلق الله الجن لعبادته كما خلق الإنس ، إلا أن الجن والإنس تركوا الحرية الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ، فمن آمن وأطاع اهتدى للقطرة ودخل في حظيرة الإيمان ، ومن كفر وعصى فقد أوتى من جانب نفسه . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ لِنَفْسِهِ فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (٣) .

كما ذهب إلى تصور هؤلاء الشياطين بأنهم بعض المردة منهم وأهد ذلك بحديث أخرجه ابن خزيمة في صحيحه وغيره عن أبي هريرة : «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن» . والقصد أن الشياطين يقلل إغواؤهم في هذا الشهر ، فيصيرون كالمصفدين .

وقريباً مما سبق الاحتمال القائل بأن أبواب الجنة تفتح في رمضان هو كناية عما يفتح الله لعباده من الطاعات وذلك أسباب لدخول الجنة ؛ أما غلق أبواب النار عبارة عن تعجيزهم عن الإغواء وتزوين الشهوات .

(١) البخارى ٤١ / ١٣٥ حديث رقم ١٨٩٩ ، وكذلك ٦ / ٣٨٧ حديث رقم ٣٢٧٧ .

(٣) سورة النساء آية ١١١ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ .

وقد نقد الحافظ ابن حجر رأى الزين بن المنير بأنه لا حاجة إلى صرف المعنى عن ظاهره بأن فيه نظر .. وكذلك ذهب القرطبي إلى حمل هذا الحديث على ظاهره .

ومما وفق فى تاويل الحديث التوريشى الذى ذهب إلى أن فتح أبواب السماء كناية عن تنزل الرحمة وإزالة الغلق عن مصاعد أعمال العبادة تارة ببذل التوفيق وأخرى بحسن القبول ، وغلق أبواب جهنم كناية عن تنزه أنفس الصوام عن رجس الفواحش ، والتخلص من البواعث عن المعاصى بقمع الشهوات .

ورد أصحاب الظاهر على من عارضهم بأن الشرور والمعاصى واقعة فى رمضان كثيراً، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك ؟ .. إنها تقل عن الصائمين، الصوم الذى حوفظ على شروطه وروعيت آدابه ، أو أن المصنف بعض مرده الشياطين ، وليس كلهم، أو أن المقصود أن الشرور فيه تقل عن غيره ، وهو أمر محسوس فى رمضان . إذ لا يلزم من تصفيدهم أن لا يقع شر ولا معصية ؛ لأن لذلك أسباباً غير الشياطين كالنفوس الخبيثة والعادات القبيحة والشياطين الإنسية .

ورغم قبول أغلب هذه التأويلات ، إلا أن القول بأن شياطين الجن همهم إغواء الإنسان هو المرفوض ؛ لأنهم عباد أمثالنا مكلفون وليس من التكليف تصفيد هؤلاء .. ولذلك وفق من قال أن ذلك يقع على بعض المردة من غيرهم .

— أما من يرى أن الجن خيرون والشياطين أهل شر ، وإن كانوا من جنس الجن فيجرى كلامه على الصواب إن شاء الله — أو من انتهى التكليف فى حقهم وسلسلوا فى النار ..

كما أن الإشارة إلى أن الهوى والشهوات هى الدافع إلى أن مع كل إنسان شيطانه الداخلى الذى عليه مجاهدته ودفعه عنه بالصوم والطاعات والتزام الشرع .

كذلك الإشارة إلى أن الشياطين الإنسية لا يسلسلون ، ولذا فهم ما زالوا فى رمضان وغيره ، ينشطون بين الناس ويسعون فى الأرض فساداً .. وهذه إشارة صواب وصحيحة .

٢- صدقك وهو كذوب

عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحشو من الطعام فاخذته ، فقلت : لارفعنك إلى رسول الله ﷺ - فذكر الحديث :

- فقال : - إذا أويت إلى فراشك فاقصراً آية الكرسي ، لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح .

فقال النبى ﷺ : «صدقك وهو كذوب ، ذاك شيطان»^(١) .

يقول ابن حجر .. فى فوائد هذا الحديث أن الشيطان قد يعلم ما ينتفع به المؤمن ، وأن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها ؛ وأن الشخص قد يعلم الشئ ولا يعمل به ، وأن الكافر قد يصدق ببعض ما يصدق به المؤمن ، ولا يكون بذلك مؤمناً ؛ وبأن الكذاب قد يصدق ، وبأن الشيطان من شأنه أن يكذب ؛ وأنه قد يتصور ببعض الصور فتمكن رؤيته وأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾^(٢) مخصوص بما إذا كان على صورته التى خلق عليها ، وأن من أقيم فى حفظ شئ سعى وكىلا ، وأن الجن يأكلون من طعام الإنس ؛ وأنهم يظهرون للإنس لكن بالشرط المذكور ، وأنهم يتكلمون بكلام الإنسى ، وأنهم يسرقون ويخدعون ، وفيه فضل آية الكرسي وفضل آخر سورة البقرة ، وأن الجن يصيبون من الطعام الذى لا يذكر اسم الله عليه ؛ وفيه أن السارق لا يقطع فى الجماعة ، ويحتمل أن يكون القدر المسروق لم يبلغ النصاب ، ولذلك جاز للصحابى العفو عنه قبل تبليغه إلى الشارع . وفيه قبول العذر والستر على من يظن به الصدق . وفيه اطلاع النبى ﷺ على المغيبات .

ووقع فى حديث معاذ بن جبل أن جبريل ، عليه السلام ، جاء إلى النبى ﷺ فأعلمه بذلك . وفيه جواز جمع زكاة الفطر قبل ليلة الفطر ، وتوكيل البعض لحفظها وتفرقتها^(٣) .

(١) البخارى ٦٤ / ٣٨٦ ، ٣٨٧ حديث رقم ٣٢٧٥ ، وفى كتاب الوكالة باب ١٠ ، ٤ / ٥٦٨ حديث رقم ٢٣١١ .

(٢) الفتح ٤ / ٥٧١ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٧ .

هذا ما ذكره الحافظ فى فوائد الحديث ؛ وقد ذكر له روايات أخرى ؛ وهو يسلم به تماماً ويتركنا أمام تساؤلات منها إما الإيمان بما جاء فى هذا النص أو الإيمان بما جاء فى القرآن الكريم عن إبليس والجن .. ولنناقش سوياً الفوائد التى استشفها من الحديث ؛ ومن ذلك كيف يمكن للمؤمن أن ينتفع من حكمة الكافر إن كانت نصيحاً له فى دينه ؛ ثم كيف يصدق الكذاب سيما إن كان عدواً لدوداً لى وأنزله منزلة المعلم وأرضى بقوله ونصحه وإرشاده ١٩ ..

أما أن الشيطان يمكن أن يتصور فى صورة الإنسان وصور أخرى فهو ما يعنى قدرته الهائلة على التشكل والتلون ؛ فلا يؤمن علينا من أن يفتنا عن ديننا فى أى وقت أراد إن جاءنا فى صورة شيخ أو عالم دين مثلاً .

وهذا يتعارض مع قوله ، تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦ ﴾ ^(١) فهل من الضعف أن يأتى فى صورة إنسان مرة وحيوان أخرى ، ويعلم ما لا يعلمه أولياء الله عن دينهم ؛ كما يتعارض مع قوله ، تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَإِنْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۝٢١ ﴾ ^(٢) وفى الحديث تسلط الشيطان على ولى الله سيدنا ، أبى هريرة ، حتى كاد أن يفتنه ، أولاً يوجد هنا شئ من التناقض ؛ فماذا أبقى عدو الله لوليه ، ولم أمهله الرسول ﷺ ثلاث ليال حتى يخبره بأن الذى ينتهب طعام الصدقة ويكذب عليه شيطان من شياطين الجن ١٩

ويشير الحديث أن ما علمه الجن ، لأبى هريرة ، لم يكن قد أخبر به الرسول ﷺ أصحابه ، وإلا كان أبو هريرة قد عرفه ، ويؤكد ذلك تصديق رسول الله ﷺ لمقالة الجنى فى آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة . فهل هذا الجنى يعرف ما لا يعرفه النبى المعصوم الموحى إليه من ربه عن القرآن ، وهو عليه ينزل ١٩ ..

كما أن قوله ، تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُرُوقِيبَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ ۝٢٣ ﴾ ^(٣) ينفى تماماً تنزل الجن إلى الأرض ، وتتمثل فى طبيعة طينية وتعامل مع الإنسان وغيره ؛ والحديث السابق لا يخص شيعاً ، كما قال الحافظ ، إذ ليس هناك تخصيص من غير

(١) سورة النساء آية ٧٦ .

(٢) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٧ .

مخصص، وإلا إذا جاز للجن الظهور لبنى آدم لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ في ليلة الجن .

إن هذا الحديث يتعارض مع القرآن والعقل ؛ ولا يصمد للنقد ؛ وهو أقرب ، إلى الحكايات الشعبية التي يروجها القصاص من غيرها .. ولا ينبغي التسليم بمثل هذا الحديث واعتباره ديناً لتصادمه بالعقيدة ؛ إذ لا عقل أن يمنح الله ، عز وجل ، الإنسان تكليفاً واستطاعة على أدائه ؛ ثم يسلط على عباده شياطين الجن ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً و .

أريد أن أنبه على أن المسألة ليست بين العدلية من الزيدية والمعتزلة وأهل السنة ؛ لأن علماء أصول الدين أشاروا إلى أن أحاديث الآحاد تفيد العمل والظن ولا تفيد العلم القطعي ؛ وهذا الحديث يأخذ به في باب العمل الفقهي أما العلم فلا ، لما ينبغي في العلم من ضرورة القطع واليقين .

وذكرنا من قبل رأى الأصوليين في حقيقة إخبار الجن الناس بشئ أو خدمتهم ، وقلنا أنهم انقسموا إلى فريقين :

الأول : تمثل في النظام وأكثر المعتزلة وأصحاب الكلام : لا يجوز ذلك ؛ لأن في ذلك فساد دلائل الأنبياء ؛ لأن من دلالتهم أن ينبئوا بما ناكل وندخر .

والثاني : أجاز ذلك .. وهو رأى القلة الغالبة .

كذلك اختلفوا : هل يجوز أن ينقلب الشياطين في صور الإنس ، أو في غير ذلك من الصور إذا أرادوا ذلك أم لا ؟

فقال فريق : بأن ذلك جائز للشياطين أن ينقلبوا إلى أى صورة شاءوا من الصور، فيكون الشيطان مرة في صورة إنسان ، وفي صورة حية مرة أخرى .

أما الفريق الثاني : من المعتزلة وغيرهم ؛ فقال إن ذلك غير جائز ولم يجعل الله ، سبحانه ، إليهم أن ينقلبوا متى أرادوا^(١) .

(١) الأشعري : المقالات ٢٤ / ١١٤ .

٣- وصاح إبليس فى أحد

عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : «لما كان يوم أحد هزم المشركون ، فصاح إبليس : أى عباد الله ، أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم ، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أى عباد الله ، أبى أبى .

فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه فقال حذيفة : غفر الله لكم .

قال عروة : فما زالت فى حذيفة منه بقية خير حتى لحق بالله» (١) .

لم أجده للحافظ ابن حجر شرحاً أو تأويلاً لما جاء فى الحديث من قول عائشة «فصاح إبليس» .. وقد ذكر البخارى الحديث فى مواضع متعددة من صحيحه ؛ منها كتاب المغازى باب غزوة أحد (٢) ؛ ولم يتعرض بالشرح لقول عائشة السابق ؛ ولكنه فى الباب الذى يليه فسر قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ (٣) ، وقد نزلت فيمن تولى من المسلمين فى أحد فقال (استزلهم) أى زين لهم أن يزلوا ، وقوله : ﴿بِغَضٍ مَّا كَسَبُوا﴾ (٤) قال ابن التين : يقال : إن الشيطان ذكرهم خطاياهم فكرهوا القتال قبل التوبة ، ولم يكرهوه معاندة ولا نفاقاً ، وهذا تأويل لا يصح إذ كيف ذكرهم الشيطان ١٩ .. وهذا أمر يحتاج إلى مواجهة وكلام ومشافهة وحديث ، وكل ذلك لم يحدث يقيناً إذ لو حدث بالفعل لصرح به الصحابة وينتفى لقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٥) .

فالتقاء والرؤية والحديث والمواجهة ، بالكتاب ممتنعة وبالعقل ممتنعة ، وليس فى قدرته أن يفعل ؛ ولكن المعنى على الكناية والهماز أى أنهم لما فروا وأعطوا للمشركين أدبارهم ، كأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا رسول الله ﷺ بفعلهم ، والذى حذرهم ترك أماكنهم مهما يكن من أمر .. فاغرتهم الغنائم لما رأوا فرار الكفار وتركهم لأرض

(١) البخارى ، ٦ / ٣٨٩ حديث ٣٢٩٠ .. وفى طبقات ابن سعد وأحمد والواقدي ، على النحو التالى ج ٢ ق ١ ص

٢٩ - ٣٢ / ١ ، ٢٨٧ ، ص ١١٢ ، ١٣٦ .

(٢) الفتح ١٠٤ / ٦٢٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٥ .

(٤) سورة الاعراف آية ٢٧

أحد وما ظنوا أن خالداً سيكر عليهم بالجيش مرة أخرى .. فكان فعلهم محاكياً لما يحب الشيطان ويريد ويرضى .. يؤيد ذلك نقد الحافظ لتأويل ابن التين فيقول : ولم يتعين ما قال ، فيحتمل أن يكون افروا جبناً ومحبة في الحياة لا عناداً ولا نفاقاً فتأبوا فعفا الله عنهم ^(١) .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٥٥) ﴿ ^(٢) .

وتفسير ﴿ استزلهم ﴾ أى طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ﴿ يَبْغِي مَا كَسَبُوا ﴾ أى من ذنوبهم .. والمعنى أن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب فى توليتهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوباً ، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا .

وقيل : إن استنزلال الشيطان إياهم هو التولى ، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم ؛ لأن الذنب يجرُّ إلى الذنب ، كما أن الطاعة تجرُّ إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها .

وقال الحسن ، رضى الله عنه : استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة .

وقيل : ﴿ يَبْغِي مَا كَسَبُوا ﴾ هو تركهم المركز الذى أمرهم رسول الله ، ﷺ ، بالثبات فيه . فجرهم إلى الهزيمة .

وقيل : ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها ، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية ^(٣) .. وهذا الراى الأخير الذى ذكره الزمخشري رد عليه الحافظ فيما سبق .

(١) الفتح ٧١ / ٤٢١ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٥ .

(٣) الزمخشري : الكشاف ١١ / ٤٣٠ .

٤- إبليس والليل

عن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إذا استجبح الليل - أو كان جنح الليل - فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ ؛ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك واذكر اسم الله ؛ وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً ،^(١) .

شرح ابن الجوزى الفائدة من كف الصبيان عند إقبال الليل وإدبار النهار فقال : إنما خيف على الصبيان فى تلك الساعة ؛ لأن النجاسة التى تلوذ بها الشياطين موجودة معهم غالباً ؛ والذكر الذى يحرز منهم مفقود من الصبيان غالباً ، والشياطين عند انتشارهم يتعلقون بما يمكنهم التعلق به ، فلذلك خيف على الصبيان فى ذلك الوقت .

والحكمة فى انتشارهم حينئذ أن حركتهم فى الليل أمكن منها لهم فى النهار ؛ لأن الظلام أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وكذلك كل سواد . ولهذا قال فى حديث أبى ذر : «فما يقطع الصلاة ؟ قال الكلب الأسود شيطان ،^(٢) .

ويبدو من كلام ابن الجوزى أن الشياطين من الجن الكافر غير المسلم ، وهو يضرب عاثاً فى الفضاء وينزل فى الليل إلى الدنيا ؛ ويأوى إلى الأماكن الخربة والنجاسات ، والأولاد الصغار كثيراً ما يحرمون حول هذه الأماكن فى لعبهم ؛ وكفهم عن اللعب عند جنوح الظلام حماية لهم من عبث هذه الأبالسة ومسها لهم بشر .. وما جاء فى الحديث منهج إرشادى لاتقاء شر الشياطين والسلامة من أذاهم . ولا ينكر أن يكون لهم أذى مثل أذى الإنسان بالإنسان .. إلا أنه مجرد عبث وإيهام ومس لا يصيب إلا الكفار من أمثالهم فى مواطن خاصة مثل النجاسات والخرابات وفى الظلام وقد يصيب الأطفال لما ذكره ابن الجوزى ..

وقد شغب بعض العلماء على من قال بأن الكلب الأسود شيطان لامتناع تمثيل الشيطان فى طبيعة غير التى خلقه الله عليها ، وكون الكلب مخلوقاً حيوانياً ؛ لا

(١) رواه البخارى فى مواضع كثيرة منها ٦٤ / ٣٨٧ حديث ٣٢٨٠ .

(٢) رواه مسلم .

جناية له فى كونه أسوداً أو أحمرأ . . . ١ . . . وكلامهم اقرب للصواب . . فلا الكلب الاسود شيطان ولا أى شئ آخر سوى كونه حيواناً مخلوقاً ولا بد له فى صفة لونه ولا علاقة له بغيره من مخلوقات الله . . وربما ما ذكره أبو ذر مجرد مثل للتقريب وكان الشيطان على هذه الصفة . وراجع ما ذكرنا من آراء الاصوليين فى جواز ثقلب الشياطين فى صور غير ما خلقهم الله عليه ، وجواز ثقلب الجن فى صور الإنس وغيرها ، والصواب المنع .

وربما كان من الفائدة بيان دور الشيطان فى أحداث اواخر القرن العشرين ، فقد عبد الشيطان قحت عناوين كثيرة منها المباشر وغير المباشر ، فقد ظهرت عبادة الشيطان ببلاد العرب عند الراقدين قديماً على يد اليزيدية ؛ وهى فرقة لها طقوس وعادات شيطانية ، وعددها قليل وانحسر عنها الضوء ، إلا أن غيرها من الأندمة والمعابد التى شُيدت لعبادة الشيطان فى أنحاء المعمورة قد انتشرت وذاعت وشاعت ، حتى صار لأصحابها شعاراً دينياً .

وانضم لهذه الجماعات كثرة من كبار الفلاسفة والمفكرين والفلاسفة والعلماء والاثرياء من أمريكا وانجلترا وفرنسا وألمانيا ، بعد أن سادت المادية وتفوق الإنسان على نفسه وتضخمت ذاتيته فلم يعد يرى غيره ، فآخذ يلهث خلف تحقيق رغباته وشهواته ، ورفع لواء اللذة والمنفعة الآنية ؛ واستشعر أن الكون له وحده دون غيره ، فارتفعت معدلات الجريمة والانتحار فى كل مكان ، وفى الدول الغنية ذات الوفرة الاقتصادية والديمقراطيات المتقدمة على وجه الخصوص .

لقد تسائل الشباب ماذا بعد ؟ فلم يجد إجابة سوى الانتحار والموت ؛ وانتشرت موضحة الانتحار الجماعى فى بلد كالسويد وأمريكا . . لماذا ؟ . . لأن الإنسان نسى ساعة أنه إنسان مخلوق . . وهب الله الحياة حين وهب ليسعد نفسه والآخرين . . فانحرف وأفسد واتبع هواه ولحقه الصرع والوساوس ، وانهزم من جوانيته ، ولم يعد له هدف يطوى الزمان فى تحقيقه وإرضاء نفسه .

إن الإنسان الذى يحرك آلات الدمار ، هو نفسه الذى يعانى الفقر والجوع

والموت .. والإنسان الذى يعانى التخمة والوفرة والموت شعباً ، هو هو ذلك الإنسان الذى يموت جوعاً وحرماناً ، غير أنه فى الغرب أبيض البشرة وفى الشرق أصفر أو أسود البشرة ! ..

لقد تسلط الشيطان على عقل الإنسان فأغراه بقتل جنسه وإبادته موهماً إياه أن الأرض لم تخلق لسواه !

وهو ضرب من الجنون ..

وإذا كان الجنون فنوناً فمن الفنون ما يقتل ، ماذا يمكن أن يقال عن فنون أدواتها الجنس والدعارة والإنجار بالمرأة وهتك الأعراض وتفشى مواخير الفسق والفجور ، كل ذلك ملوناً بالمدفع الرشاش والمسدس .. وحلم الإنسان السوبر الذى يعاشر آلاف النساء ويقتل آلاف البشر ، وينام فى الصحراء والجبال ويعود بالتاريخ ملايين الأعوام للوراء . هذا ما تقدمه هوليوود .. فهل هنا . حلم عربى غيره يبدى وجه الفن الجميل ؟ ! ..

إن النوادى التى يعبد فيها الشيطان وجه حقيقى آخر ، بلا أقنعة ، لسقوط حضارة الغرب التى اتسمت بالأنانية والذاتية والمادية .. وفقدت روح التعاون والتسامى والتعالى عن ظلم الإنسان لآخيه الإنسان ، تحت شعار حق رعاية وامتلاك أصحاب الحضارة «للاخر .. المتخلفين» حتى يتحضروا مثلهم .

فهل حدث بعد استعمار الرجل الأبيض للعالم أكثر من خمسة قرن أن تحضر العالم مثلهم ؟ .. أم أن الغرب استأثر بمقدرات الأرض ، وامتلك مصادر المادة الخام فى أفريقيا السوداء وآسيا .. وأذل شعوباً ذات حضارات ، وأفنى حضارات هى أسمى وأرقى آلاف المرات مما أبدع الغرب بآلته الصناعية ..

فقد كان الشرق نبع الحضارة والرقى وتخلف تحت وطأة الإجرام والقهر والغزو الاستعماري والثقافي ، الذى يستهدف الآن القضاء على وجوده بعد أن قضى على مصادر الثروات فى بلاده .. فمن سقوط الخلافة إلى انتحار هتلر .. استوطن اليهود وتشرد الفلسطينيون العرب ! ..

أعطت أمريكا السلاح للعراق لقتال المسلمين بإيران فصقَّ العملاء .. وبعد ذلك

تحولت قوى الشر (قوى التحالف) للإجهاز عليه ، دون رحمة بعد أن تصور شيطان العراق أن فى قدرته قهر إخوانه العرب بالعرب بالكويت . . . فلا أفلح هو ، ولا إخوانه العرب .

وأصاب الجميع الانكسار والذل والهوان والإفلاس بعد أن عدنا إلى ما قبل ١٩٦٢م فى أرض اللؤلؤ والذهب الأسود .

كذلك اعطت أمريكا للشوار فى بروندي وراوندا السلاح ، وأداروا عجلة الموت وجربوا الأسلحة المستحدثة فى هذه الشعوب الضعيفة ، فكانت النتيجة مليون قتيل - أو قريباً من ذلك - طم بهم نهر النيل بعد أن القوا فيه جثث القتلى !

وسلطوا بعض صنائعهم وعملائهم فى أفريقيا على شعوبهم ، فاذلّوهم وأفنوا زهرة شبابهم فى السجون والمعتقلات تحت قهر التعذيب والقتل الجماعى والسحل ، حدث ذلك على يدى عيذى أمين بالصومال ، وهيل سلاسى بأثيوبيا ، والشوار الجدد عند منابع النهر ، وكذلك على يدى بغل أوغندا الذى قتل شعبه جهاراً نهاراً !

أو ليس كل ذلك فعلاً للشيطان الإنسى ، دولة كان أو قرداً ديكثاتوراً !!؟

لقد أباد ستالين أكثر من سبعة عشر مليوناً (١٧) من المسلمين فى الحرب العالمية الثانية ، وما حدث بعدها من هجرة الأقليات المسلمة فى بلاد البلقان وآسيا الصغرى إلى مواطن كثيرة من الاتحاد السوفيتى ، كانت تحتاج للعمران وتفتقر إلى الإيدى العاملة ، فاستغل المسلمين أسوأ استغلال ومن بعده جاء من حذى حذوه . . . حتى تفكك الاتحاد ولم ينس النصارى إبادة المسلمين ، الذين شتمت أنوفهم وارتفعت رؤسهم مطالبين بالاستقلال ، أسوة بغيرهم ، حدث ذلك فى أوزباكستان وأذربيجان وبخارى والشيشان . . والبقية تأتى !

لقد تجمع الغرب فى مواجهة بعرض الجبهة ، ضد المسلمين والعرب فى كل مكان . . فبدأوا باضطهاد العمالة العربية فى الغرب . . وتآليب القوميات المختلفة ضد المهاجرين الجدد فى ألمانيا ضد الأتراك ، الذين عمروها بعد الحرب العالمية الثانية ، وضد المغاربة فى فرنسا بعد أن أدوا واجبهم على أكمل وجه . . .

وإسرائيل فى الأرض المحتلة لا تالوا جهداً فى اضطهاد العرب فى الضفة وغزة

والقطاع وفي جنوب لبنان ، وتحاول جهدها عرقلة جهود السلام في فلسطين وجهود الإصلاح في كل بلد عربي .. واخذت على عاتقها تأديب العرب ، وتصورت نفسها عسكري المنطقة الحامي لمستعمرات الغرب السابقة الامينة !

ولا يمكن كسر الغرور الذري والنووي الإسرائيلي ، بغير اتحاد العرب ولم شمل الصف العربي .

وبعد على المسلمين أن يروا الشيطان في هؤلاء الذين حولوا التسامح إلى صراع وصدام حضارات .. ولن يستكينوا أو يهدأوا حتى يعودوا مرة أخرى تحت لواء الصليب كما جاءوا من قبل .. ويفعلوا ما فعلوه من قبل .. ولا سبيل - من أجل الحفاظ على الذات والدفاع عن حضارتنا ووجودنا - إلا أن ينهض الشرق المسلم وبأخذ بعري التقدم ، وأن يصطنع لنفسه مناهج تنافس مناهج التفريب ، فلن نتقدم صناعياً وعلمياً عن طريق التبعية ، لأن أقصى ما يمكن أن نصل إليه أن نكون مقلدين مهرة لما صنع الغرب في أواخر النصف الأول من القرن العشرين مثلاً ، وهو ما لا يحقق الأمل المنشود في التقدم والازدهار .

٥- إبليس والنسيان

عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس فقال : حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن موسى قال لفتاه آتنا غداءنا ، قال : أرايت إذ أوينا إلى الصخرة فرأيت نسيك الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به» (١) .

ولم يتعرض الحافظ ابن حجر لبيان هذا الحديث في كتاب بدء الخلق ، ولكنه أفاض في شرحه في كتاب التفسير (٢) ؛ إلا أنه لم يبين هل هذا الشيطان الذي أنسى يوشع بن نون الحوت على الصخرة في مكثله هو شيطان أنسى أم جنى ، أم إنه العجلة التي لحقت بيوشع لما تقدمه موسى ، عليه السلام ، في السير ؟ .

وما ذكره الإمام أحمد (٣) في تفسير الآية فيه الكفاية وزيادة ، حيث روى أنه كان لموسى عدو من الناس ، سعى في قتله ، فلما علم بخروجه خرج وراءه ابتغاء تصيده بعيداً عن أعوانه .. فهو ذلك الشيطان الذي قصده يوشع في كلامه .. فقد كان يتربقه ويفكر فيه طول الرحلة ، فنسى بسببه الحوت في المكثل على الصخرة ، حيث عادا إليها فوجدا الخضر بآماراته بجوارها ، فجرى من قصة موسى ما جرى معه من طلب للتعلم والرغبة في المعرفة .

ولنا تساؤل على هذه المقالة ألا وهو هل يستطيع الشيطان أن ينسى الإنسان ويتدخل في عقله وتركيبته وذاكرته الحافظة ، فيلغى ويمحو منها ما يشاء ؟ . . . شيطان الإنس يفعل ذلك بطرق عدة عن طريق الإيهام والإيهام ، أو عن طريق حصر الضوء عن بعض الأحداث وتسليط الضوء على البعض الآخر ، التي يرغب في إظهارها .. وقد مارس أساتذة علم النفس التعليمي العديد من التجارب على الحيوانات وعلى الإنسان ، بصدد هذا الموضوع .

فماذا يبقى من الإنسان إن نسي تاريخه وماضيه؟ أونسى أهدافه

(١) البخاري في مواضع كثيرة منها / ٦ / ٣٨٧ حديث ٣٢٧٨ ، وكتاب التفسير ٨١ / ٢٦٢ حديث ٤٧٢٥ - ومسلم

١٥ / ١٢٦ حديث ١٧٠ - ١٧٤ ، والترمذي ، كتاب التفسير سورة الكهف ٥١ / ٢٨٩ حديث ٣١٤٩ - ٣١٥٠ .

(٢) الفتح ٨١ / ٢٦٨ .

(٣) انظر النص فيما يلي .

وخططه المستقبلية وعاش بلا هدى من السماء ولا إرشاد من عقل يقظ وضمير حارس ١٩

لقد حاول اليهود مسخ الشخصية العربية بفلسطين فعجزوا عن ذلك ، وحاول الأمريكان السخرية من تاريخ العالم - لأنهم أمة بلا تاريخ - وقيمته وحضارته ؛ والتقليل من شأنها ، فمزقوا بعض الدول وحطموا تاريخها وحضارتها أو ما تبقى من عمران في حضارتها .. وما حدث ببلاد الرافدين ليس ببعيد .. ومن قبله ما حدث في الكوريتين وفيتنام ..

والحقيقة أن للأمريكان تاريخ ثابت وطويل في قهر الحضارات وإخفائها .. فابن هي حضارة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية واللاتينية .. لقد أجهزوا على شعب بأكمله فأفنوه تماماً حتى تلاشت حضارته ..

إن الشيطان الأكبر المتربع على عرش العالم يجند رعاياه في العالم من أجل أن ينسى الإنسان تاريخه المبرر وصراعه الطويل مع الشيطان ، بداية من إبليس الأب ونهاية بأعوانه ومساعديه في عصرنا الحالي .

لقد دخل نابليون مصر وهي عامرة بالبنيان ، ولم يخرج منها حتى ترك عمارة القاهرة خراباً يباباً ، فقد كان يهدم كل يوم آلاف المنازل والقصور والشوارع والأزقة والحارات القديمة .. بالإضافة إلى قتل عشرة من طلاب الأزهر وعلمائه كل يوم .. لماذا كان يفعل ذلك .. لكنى ينسى المصريون تاريخهم ومرجعيتهم الثقافية ، ويسهل غزوهم ومسحهم وتطوير شخصيتهم مرة أخرى ..

لقد كان تاريخ علاقتنا مع الآخر المسيحي الغربي تاريخاً أسوداً مريعاً .. دفعت فيه مصر الحظ الأوفى والقدر الأكبر من التضحيات ، لما لها من ثقل وأهمية في تاريخ البشرية .. وما أن تبدأ في استرداد عافيتها وجمع أمرها وامتلاك خيوط النهضة فيها ، حتى يضربها الغرب فيردها مرة أخرى إلى نقطة البدء ..!!

ولذلك ينبغي على كل مسلم وعربي أن لا ينسى ، تحت تأثير الإعلام الغربي الضخم ودعاوى العولمة والعالمية والتدويل والنظام العالمى الجديد والغزو الثقافى والاقتصادى لذاتنا وأسواقنا ، ينبغي أن لا ينسى أن له تاريخاً وهوية حضارية وثقافة

ذاتية تخصه هو وحده دون غيره ، فلا يشاركه فيها الصينى مثلاً ولا الأمريكانى صاحب ثقافة الكاوبوى والبيتزا والتاك أوى !

فأصعب ما يمكن أن ينسى الإنسان حضارته وتاريخه وثقافته وذاتيته ، ويصبح من الغد لا يملك شيئاً سوى أنه كان فى يوم ما إنساناً له أرض وعرض وأشياء يعرفها وتعرفه ..!!

وربما كان البديل الذى أقدمه ، ويغنى عن النسيان والتلاشى فى الآخر ، هو الحلم القومى الإسلامى والوحدة العربية والإسلامية على كل المستويات .. فيصير العالمين الإسلامى والعربى فى الشرق الأدنى والأوسط والأقصى ، يغنى أغنية واحدة سياسياً واقتصادياً وثقافياً وإعلامياً .. ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق المنظمات العربية الإسلامية المشتركة الفاعلة والناهضة والمهتمة بالشأن الشرقى .. فالغرب لن يعطينا شيئاً ، إن لم يأخذ منا طواعية عن طريق السياسة أو غصباً عن طريق الضغط والاستعمار والوسائل العميلة ، كل شئ بدأ من الأرض وما فيها من كنوز ، ونهاية بالثقافة والحضارة وما على الأرض من عمران !

* * *

٦ - إبليس والفتنة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : «رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال : ها إن الفتنة ها هنا ، إن الفتنة ها هنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان» (١) .

وهناك رواية أخرى «أو قرن الشمس» (يعنى المشرق) .. وذكره سالم بن عبد الله بن عمر فى ثنايا خطبته فى أهل العراق : يا أهل العراق ما أسالكم عن الصغيرة وأركبكم الكبيرة ؛ سمعت أبى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الفتنة تجئ من ههنا . وأوما بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان» .

وفى الحديث أن للشيطان قرنين يسد بهما جهة المشرق حيث تطلع الشمس ، وأصاب ابن حجر فى قوله إنه لا يطلع إلا من جهة واحدة أما باقى الجهات فلا ، وفيه إشارة إلى تخيله لعبدة الشمس بأنه إلههم ومعبودهم ، وأنه يفعل ذلك عند شروق الشمس ولذلك اعتبره الشرع وقت كراهة لا يستحب الصلاة فيه إلا المكتوبة على أشهر الأقوال ؛ وفى الحديث إشارة أخرى إلى أن الفتن من أعمال الشيطان التى يباركها ويناصرها .

يقول ابن حزم : وأما قول رسول الله ﷺ : «إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان» فإذا ارتفعت فارقها ، فإذا استوت قارنها ، فإذا زالت فارقها وإذا جنحت للغروب قارنها فإذا غربت فارقها ، ونهى عن الصلاة فى هذه الأوقات» (٢) .

أو كما قال ، عليه السلام ، مما هذا معناه بلا شك . فقد قلنا إنه ، عليه السلام ، لا يقول إلا الحق وأن كلامه كله على ظاهره ؛ إلا أن يأتى نص بأن هذا النص ليس على ظاهره فنسمع ونطيع ، أو يقوم بذلك برهان من ضرورة حس أو عقل ، فنعلم أنه ، عليه السلام ، إنما أراد ما قد قام بصحته البرهان لا يجوز غير ذلك ..

وقد علمنا يقينا أن الشمس فى كل دقيقة طالعة على أفق من الآفاق ، مرتفعة على آخر ، مستوية على ثالث و زائلة عن رابع ، جانحة للغروب على خامس غاربة على سادس . هذا ما لا شك فيه عند كل ذى علم بالهيئة ، فإذا (كان) ذلك كذلك فقد

(١) البخارى ٦١ / ٣٨٧ ، ١٣ / ٤٩ ، الحديث ٧٠٩٢ - ٧٠٩٣ - ٧٠٩٤ .

(٢) مسند أحمد : ٤ / ٣٤٨ .

صح يقينا أنه ، عليه السلام ؛ إنما عني بذلك أفقاً ما دون سائر الآفاق لا يجوز غير ذلك ، إذ لو أراد كل أفق لكان الإخبار بأنه يفارقها كذباً ، وحاشي له من ذلك .
فإذاً لا شك في هذا كله فلا مرية في أنه ، عليه السلام ، إنما عني به أفق المدينة ، وهو الأفق الذي أخبر أهله بهذا الخبر ، فأنبأهم بما يقارن الشمس في تلك الأحوال وما يفارقها من الشيطان .

والله ، عز وجل ، أعلم بذلك القرن ما هو ؟ لا نزيد على هذا إذ لا بيان عندنا فيما بينه إلا أنه ليس شيء من ذلك يمتنع أصلاً ؛ فصح بما ذكرنا أن أول الخبر خاص ، كما وصفنا ، وأن نهيه ، عليه السلام ، عن الصلاة في تلك الاوقات قضية أخرى ، وقضية ثانية وحكم غير الأول ، فهو على عمومته في كل زمان وكل مكان ، إلا ما قام البرهان على تخصيصه من هذا الحكم بنص آخر^(١) .

ولنا أن في الحديث مقاصد أخرى ، كان جدير بالقدماء أن يلتفتوا إليها وأن يولوها اهتمامهم .. ومن ذلك أن إشارة النبي ، ﷺ ، إلى المشرق تعني أن المسلمين سيفتحون في الآفاق بلاداً كثيرة ، ويخرجون من جزيرة العرب دعاء إلى الله .. وستكون لهم علاقات مع أهل البلاد المفتوحة ومع غيرهم ، ومنهم الوثنيون عبدة النار والبد ، وأهل الكتاب من النصارى - الرومان - ومع غيرهم ، والذي نسميهم بلغه عصرنا «الآخر» .. وهذا الآخر لن يترك المسلمين في سلام بل سيجرهم إلى فتن - الحرب والسلام - ويحاول أن يدفعهم إلى التخلي عن دينهم بكل سبيل ، ولذلك فهو شيطان يأتي مع الشمس من حديث أقبلت من كل أرض .

فبلاد العرب المدينة وما حولها ، يتسع المفهوم ليشمل شبه الجزيرة العربية .. أما غيرها فستخلق بها .. وسيكفي الله هذه البلاد الفتن الموبقة الحالقة للدين والمبيرة التي تهلك الحرث والنسل .. ولكن الفتنة ستطل برأسها آتية إليها من غيرها من البلاد ..

ولو تذكرنا الثورة على عثمان وعلى ، رضى الله عنهما ، في الفتنة الكبرى .. لرأينا أنها أتت إلى المدينة من البلاد المفتوحة .. وأن الثوار جاءوا إليها من كل صوب وحذب .. كما أننا لو انتقلنا في الزمن إلى العصر العباسي الثاني في أواخره ، نجد فتنة

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥١ / ١١٣ - ١١٤ .

التتار وسقوط بغداد وزوال شمس الخلافة العربية ، وهى فتنة لا شك فى ذلك ، ولو اعتبرنا فتنة الحروب الصليبية قبلها .. لكان لنا من كل ذلك رصيد من فهم مضمون الفتنة التى أشار إليها حديث رسول الله ، ﷺ .

وما زالت الفتنة آتية إلى بلاد المسلمين من حيث تطلع الشمس من كل أرض .. من أوربا أو أمريكا لتطفأ شمس حضارتنا وتمسخنا قروداً وأتباعاً فى عصر العولمة .. أو فتنة « يهود » حارس الغرب بالمنطقة العربية .

لقد أرسل الغرب آلاف المستشرقين وجند من العملاء آلاف المستغربين - التنويريين بالادعاء - حتى تسقط رايه التوحيد من أيدينا .. ونتحول إلى قبلة الغرب ، نبحت عن حضارة بديلة وثقافة بديلة ونلبس الفضلات من ثيابهم ونتبنى أفكارهم ، التى ضاقت عليهم ولم تتسع لنا !

واقتران الفتنة بالشيطان إشارة إلى أنها محرومة من هدايات السماء .. تضرب بكل أرض وتنبت حيث يأسن الماء ويتعفن الهواء .. لقد نظرت فى أغلب الفلسفات المعاصرة .. فوجدت أصحابها قد استجمعوا فتات الفلسفة الإسلامية ، وانتزعوها من كتب أصحابها الأصليين وأخذوا فى تحويرها ، فجاءت فجأة غبية وقد قدموها لنا على أنها بضاعة من عندهم ابتدعوها خالصة لهم .. وكذبوا كما كذبوا من قبل ومن بعد ، لم تكن لهم - ولن يكون لهم - فلسفة متكاملة مثل ما كان فلاسفة الإسلام ، غير أنهم شغبوا علينا فوقعنا فريسة لطلاءات مزينة كسراب يلمع بقيعة ، فلا نحن فهمنا التراث ولا بلغنا شيئاً من حيث المعاصرة ، فبين الأصالة والمعاصرة وقفنا حيث لا شئ !! ..

وهذه هى محنة الثقافة وفتنة التخلّى عما نملك ، والبحث عن أى شئ لا نملكه تاتى به الريح من الشرق أو الغرب .. المهم عند شيطان الفتنة أن نخلع جلدنا وهويتنا وثقافتنا ، ونتنكر لحضارتنا من أجل لا شئ .. ولحساب « الآخر » الذى هو غيرنا يقيناً .. أو ليست تلك الفتنة التى قصدها رسول الله ، ﷺ ١٩ .

٧- إبليس والوسوسة

عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » (١) .

يبين هذا الحديث أن الشيطان يحاور الإنسان فى قضية الإيمان ؛ فإذا كان كل شئ مخلوقاً فمن إذن خلق ربك أيها الإنسان ؛ والحديث لا يضع إجابة للتساؤل وإنما يكتفى بالاستعاذة بالله من هذه الوسوسة .. لأنه يبغى بها إفساد دين المسلم وعقله ولا يريد بها الجدل أو المناظرة الإيجابية ؛ فقصده التضليل لا غير ؛ ولذلك يجب دفعها بالاشتغال بغيرها .

ولو كان الأمر على وجه الجد والمناظرة كما يحدث من زنادقة بنى آدم لا يمكن قطعهم بالحجة والبرهان .. فالإنسان يراعى حدود المناظرة وطبيعتها ويجارى المناظر فى الحجج ويصل معه إلى نهاية الشوط ، إما أن يؤمن أو لا يؤمن ، يقتنع أولاً ، أما الشيطان فلا نهاية لوسوسته .

وما يريده إبليس من هذه الوسوسة يؤكد وجود الله ، وأنه خالق كل شئ ولا خالق له ؛ إذ لو كان لأبد له من خالق يخلقه ما كان إلهاً وللزم الدور والتسلسل اللانهائى للتساؤل ؛ كما أن العالم والمحدثات من حولنا تؤكد أن لها صانعاً غيرها ؛ فى الطبيعة وفى كل شئ ؛ صنعها ودبرها وأتقن خلقها على هذا الوجه البديع ، ولو كان مثلها ما أبدعها وما قدر على صنعها .

ويقدم الحافظ ابن حجر بحثاً فى الخواطر وأقسامها والفرق بينها عن أحد شيوخه وهو المازرى حيث يقول : الخواطر على قسمين : فالتى لا تستقر ولا يجليها شبهة هى التى تندفع بالإعراض عنها ، وعلى هذا ينزل الحديث ؛ وعلى مثلها ينطلق اسم وسوسة ، وأما الخواطر المستقرة الناشئة عن الشبهة فهى التى لا تندفع بالنظر والاستدلال .

(١) البخارى ٦١ / ٣٨٧ - الحديث رقم ٣٢٧٦ .

ولكن الطمعى يوضح وجه النصيح بالاستعاذة والاشتغال بها عن هذا التفكير ؛
لكونه ، تعالى ، لا يحتاج إلى نظر واستدلال لإثبات وجوده فهو امر ضرورى لا يقبل
المناظرة ؛ كما أن الاسترسال فى هذا الاتجاه يؤدى الى مزيد من الحيرة وعلى هذا فالحل
والعلاج فى اللجوء الى الله والاعتصام به .

وبعد هل يمكن القول بأن شيطان الإنسان فى هذا الحديث هو نفسه وهواه ..
حيث أن الله ، تعالى ، قد خلق الإنسان ونفسه دائمة التردد والعبث ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ
الطَّوَّامَةِ ۖ ﴾ (٢) فهى كثيرة اللوم وبتنازعها دوافع ورغبات كثيرة ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ ﴾ (١) .

ولذلك قال ، تعالى : ﴿ وَتَنفَسِرُونَ مِمَّا سَوَّاهَا ۖ ﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ
مَنْ زَكَّاهَا ۚ ﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۚ ﴿ (١٠) ، وقال تعالى : ﴿ وَتَهَى النَّفْسُ عَنِ
الْهَوَىٰ ۚ ﴾ (١١) .

أو إن يكون هذا الشيطان من شياطين الإنس حيث أن الوسوسة فى حقهم أقرب
من أن تكون من شياطين الجن ، فالإنس ندرك ما يقولون ، سيما إن كانوا كفاراً أو
زنادقة ، ويحبون أن يكفر المؤمن مثلهم ويشاركهم فى ضلالهم .

* * *

(١) سورة القيامة آية ٧ .

(٢) سورة يوسف آية ٥٣ .

(٣) سورة الشمس الأيتان ٧ - ٨ .

(٤) سورة النازعات آية ٤٠ .

٨- معرفة أسرار النفس عند الغزالي

إن اختلف القدماء فى تحديد مفهوم القلب والنفس والروح .. هل هى ذوات مختلفة أم أسماء لشيء واحد ؟ وأين تقع هذه الثلاثة من جسم الإنسان .. وهل هى جسمية مادية أم غير ذلك ؟ كما اختلفوا فى تحديد ماهية كل منها وطبيعتها .

يرى الغزالي أن معرفة الإنسان لنفسه واجب مفروض عليه ، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة ؛ حتى تدرى أى شيء أنت ؛ .. ومن أين جئت إلى هذا المكان ، ولأى شيء خلقت وبأى شيء سعادتك ، وبأى شيء شقاؤك ؟ .. أما الروح فهى حقيقة جوهرها غريب عنك وعارية عندك ..

وقد لجأ إلى تقسيم الإنسان إلى جسد ونفس ، والنفس : هى القلب والروح أى النفس .. ثم عاد الغزالي فجمع بين النفس والقلب .. فهما شيء واحد .. وعد القلب من عالم الغيب .. لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة .. وأصل معدنه من الحضرة الإلهية .

والروح من أسرار القدرة الإلهية ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥) ﴿ (١) .. فالإنسان من عالم الخلق أى الشهادة ، والروح من عالم الامر أى الغيب ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (٢) .

وبعد أن نقد الغزالي الفلاسفة القدماء فى تحديد ماهية الروح ، وهل هى عرض أم جسم ، قديمة أم محدثة ، وبين خطأهم فى ذلك كله وأشار إلى صعوبة تحديد تعريف جامع مانع، يمكن به إدراك ماهية الروح ؛ ولكن يكفى شرف الاجتهاد وهو فضيلة الدين الإسلامى فى المعرفة ، وغاية المجاهدة والاجتهاد والمعرفة ، أن تعرف من تكون ؟ .. بداية من الروح / والقلب / والنفس ، ونهاية بمعرفة لم يخلقك الله ؟ وما هو مراده منك ؟ ..

فلم يخلق الله القلب / النفس ؟ .. خلقها من أجل المعرفة ، والعمل من أجل سعادة الدنيا والآخرة .. وإذا كان الجسد لا يعيش إلا بالطعام والشراب فالروح / القلب لا

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٢) سورة الاعراف آية ٥٤ .

يعيش إلا على المعرفة .. فإن تعرف هو غاية خلق الله للإنسان .. ولا معرفة يمكن تحصيلها إلا من طريق الحواس ، ولذلك فهي نافذة القلب على العالم ؛ لإدراك آيات الله المقروءة والمنظورة جميعاً وعلى حد سواء .

وتنقسم قوى النفس / القلب إلى قوى آلية عملية ، يحكمها تصرفات الإنسان الظاهرة من رضا وغضب وشهوات ونزوات ونوازع وميول ، وقوى باطنية تتمثل في التركيب الدماغي للإنسان ، والذي يشبه رأس الكمبيوتر ، بما يحمله من قوى التفكير والحفظ والتذكر والخيال والتمثيل والوهم .. ولكلتا القوتين عمل يختص بها ، فإن حدث خلل في إحداهما أدى إلى ضعف الإنسان واهتزازه ، أو نقص البنية بالكلية .

ويرتكز في القلب / النفس قوة الأمر لأعضاء الإنسان وحواسه ؛ فإن توقف عمل إحدى هذه الأعضاء لم يجد أمرها شيئاً ؛ لأنه يتوقف في الدماغ أولاً عن طريق فشل العصب في نقل الأمر عبر السلوك المنتشرة في الجسم .

ويشبه الغزالي القلب / النفس بالملك ، والعقل بالوزير .. ويرى أن سلامة الإنسان في وضع قوى النفس الشهوانية والغضبية تحت تصرف العقل وحكمته ، حتى تستقر أحوال النفس .. والعكس يهلك الجميع ، وفي ذلك إشارة إلى استفادة الغزالي من أفلاطون في كتابه « الجمهورية » وبيان لمعرفته به وقراءته له ، فيرى الغزالي / أفلاطون أن قوى النفس ثلاثاً : " الناطقة والغضبية والشهوانية ، وكذلك أفلاطون يجد تشابهاً كبيراً بين النفس والمدينة ، وحيث أن للمدينة ثلاث وظائف : الإدارة والدفاع والإنتاج .. فهي تقابل قوى النفس الثلاث .

فإن كانت الشهوة والغضب تابعتين للنفس ، فالنفس بدورها تابعة للحواس ، والحواس تابعة للعقل ، والعقل تابع للقلب . يقول الغزالي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ ^(١) . معناه إنا خلقنا القلب ، وأعطيناه الملك والعسكر ، وجعلنا النفس مركبة ؛ حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين .

وتبنى السعادة عند الإنسان على ضبط هذه القوى الثلاث ألا وهي الغضب ،

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

والشهوة ، والعلم ، فخير الأمور الوسط .. والفضيلة وسط هي الأخرى ؛ والعلم يتحكم فى القوتين الأولتين، حتى يكبح جماحهما فى توسطهما العفة والقناعة ..

فإذا كان الإنسان - من حيث هو مادة تتكون من جسد ونفس - يشترك مع البهائم فى الأكل والشرب والنوم والنكاح ، فعليه أن يراعى فى أمر أحسن الأحوال وإلا تحول إلى أسوأ من البهائم .. وإذا كان الضرب والقتل والخصومة من أخلاق السباع فعليه ضبطها والتحكم فيها ، وإلا صار إلى أسوأ من السباع فى معاقبتها وعزيمتها .. وكذلك المكر والحيلة والغش .. من أخلاق الشياطين، وهى كمائن للنفس الإنسانية مستورة ، وعليه مراعاتها والحذر منها حتى لا يسلم نفسه للشيطان .

أما الرحمة والعلم والخير فهى أخلاق تتحلى بها النفس البشرية ، ويشترك مع الإنسان فيها الملائكة ، فإن ظهرت صار الإنسان ملائكى الطباع ، محمود السيرة مطهر السيرة .

وعند نوم الإنسان يفتح لقلبه باب الغيب وتغلق حواسه فى عالم الشهادة وينقطع عن الدنيا بقوانينها ، ويتصل بالغيب بكل ما فيه .. ليتسع له أمر المعرفة ، فيطلع على أكوان وعوالم لم يكن ليدركها فى يقظته بحواسه المحدودة ورؤيته المحدودة، والتى تحبسها المادة .. ولذلك كان عالم الملكوت هو عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس ، وعالم الملك هو عالم الشهادة من الخمسوسات الطبيعية .

والقلب عند الغزالي أعلى من العقل ، وإن كان لا يستطيع الاستغناء عنه كمستشار له .. وتتصفية القلوب وتخليتها من حب غير الله وتجردها من حظوظ النفس وشواغل الشهوات والملذات .. يفتح للقلب الرؤيا فى عالم الملكوت ، حيث يجول فى أكوان ما كان له أن يراها ، لولا اجتهاد صاحبه فى نفى العلائق والشواغل عنه .. فهو كالمراة كلما ذات صقلا ذات صفاء فى جودة نقل الصور التى تتلقاها .. وشبيه بما ذكره الغزالي فى عصرنا التليفزيون .. فكلما كان الجهاز قويا وجيدا كان استقباله للإرسال واضحا ولا شائبة فيه .. بل يستطيع التقاط قنوات لم يكن فى وسع الأجهزة الأخرى التقاطها ، إما لقدمها أو ضعفها وعدم جودتها . ولا يخرج ما يذكره عن كونه خيال لم يصل إلى درجات اليقين العليا ، والذى لا يكون للقلب إلا بموت صاحبه .

وإذا عرفنا أن الغزالي يجعل القلب من عالم الملكوت ، ليسهل عليه الانفتاح والدخول إلى عالم الغيب بسهولة .. وعرفنا أن الحواس عنده من عالم الملك / الشهادة .. فهي عوائق لانفتاح القلب على الملكوت / الغيب فإنه يدعو إلى تفرغ القلب من شواغل الحواس ومشاهداتها .. فهي حجب تحجبه عن التجوال في الملكوت!

وأعظم المعارف عند الغزالي هي معرفة الله ، وليس موجود أشرف من الله ، سبحانه ، ولذة شهوات الدنيا متعلقة بالنفس ، إذ إنها من عالم الملك / الشهادة ، وهي تبطل بالموت ، أما لذة معرفة الربوبية ؛ فمتعلقة بالقلب ولا تبطل بالموت ؛ لأنه لا يهلك بالموت بل تزداد لذته وتتسع ؛ لأنه خرج من ظلمة المادة وانطلق نحو النور . وهذه نظرية كاملة عند الغزالي في المعرفة ينبغي تحليلها في ضوء فكر صاحبها ، ونقدتها كذلك في إطار معرفي يسعها ويتسامح معها ، فالغزالي تركيبة أفلاطونية محدثة / إسلامية عند حديثه عن نظرية النفس الإنسانية والمعرفة المحيطة بها .. وكذلك هو تركيبة يونانية أرسطية / إسلامية عند حديثه عن « ميزان العمل » وضوابط المنطق « الإسلامي » كما يراه هو ، وابتدعه على حد تعبيره .

ويؤمن الغزالي بأن المعرفة بالذات / النفس .. هي أول درجات المعرفة حتى يصل الإنسان إلى أشرف المعارف ، وهي معرفة الله خالقه .. وليست معرفة وجود كما يرى الفلاسفة والمتكلمون ، بل هي معرفة كنه وذات .. فهي تلج الباب ، وتسعى إلى ما بعد ذلك بكثير .. ولذلك فالإنسان يسمو بالمعرفة إلى الملائكية ويتجاوزها .. وبغيرها ينحط إلى أخلاق البهائم وما دونها^(١) ..

وبعد .. لم نر في كلام الغزالي عن النفس والقلب والروح شيئاً عن إبليس أو قدرته وهيمنته على قوى الإنسان الظاهرة أو الباطنة .. فإين ذلك الشيطان الذي طالما تحدث عنه الصوفية ومشبهة المحدثين .. وأسندوا له كثيراً من الأفعال الهائلة والفائقة التي تتجاوز أفعال القدرة الإلهية وفي أقل تقدير لها تساويها ١١؟ ..

(١) انظر في ذلك رسالة الغزالي : « كيمياء السعادة » ، طبعة مكتبة القرآن ١٩٨٧ م ، بتحقيق محمد عبد العليم . وانظر الإحياء ج ٣ / ٤٣ وما بعدها ، طبعة دار البيان العربى ، وكتاب شرح عجائب القلب ، وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات حتى ، ص ٢٦ .

٩- كيف تحدث الخواطر المختلفة

يرى الغزالي كذلك أن مداخل القلب هي الحواس الخمس من حيث الظاهر ، والخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان من حيث الباطن .. فالقلب يحصل له التغيير والتأثر دائماً من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر ..

والخواطر عنده هي التي تحرك الرغبة ، وتنقسم إلى ما يدعو إلى الشر ، أعني إلى ما يضر في العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير ، أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة ، فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى إسمين مختلفين ، فالخاطر الم محمود يسمى إلهاماً ، والخاطر المذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواساً .

هكذا نجد الغزالي يؤصل لنظريته في معرفة النفس وأحوالها ، بوضع المصطلحات التي تتفق مع كل هاجس وخاطر وظرف ، دون أن يخلط بين مصطلح وآخر .. فالامر هو مجرد مصطلحات وتسميات ولا تتعدى ذلك ؛ ولذلك يبنى على ما سبق أن أنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الخير يسمى توفيقاً ، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً ، فالمعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة .

لقد نجح الغزالي نجاحاً كبيراً ووقف في تأصيل النظرية ، حيث وفق في تحديد المصطلح .. ونحن لا نناقشه في صحة ما حدد أو نبحث عن مصادر هذه المصطلحات في التصوف العالمي أو الفلسفة اليونانية أو غيرها .. إنما نشير إلى بيان أن ما كان يقصده الغزالي وغيره من علماء الإسلام ، بالشيطان الذي يوسوس للإنسان ، هو الخاطر الداعي للشر ؛ والملك هو الخاطر الذي يدعو للخير .. وهكذا .

لقد أشار إلى ذلك الغزالي نفسه ، حيث قال إن الوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان .. فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك .. أي إن خاطر الخير في مقابل خاطر الشر ؛ لا أكثر .

وربما كانت هى النوازع والميول المتباينة المركبة فى النفس الإنسانية .. والدين والأخلاق والعادات والموروث والبيئة هى التى تخرج الخير منها أو الشرير ..

ولهذين الخطيرين ، أولمة الملك ولمة الشيطان ، سلطان على الإنسان ولا فكاك له من أحدهما .. ويخرج إلى عالم الوجد أحدهما دون الآخر ، بتأثير من المؤثرات التى أشرنا إليها سابقاً .. والشيطان جنوده الشهوة واللذة .. فإن أقبل الإنسان على الدنيا تسلط الشيطان ، بحكم ما يجده من مرتع للشهوات .. وإن انصرف القلب عن الشهوات تسلط الملك والأهم .. فمعركة القلب دائمة إلى أن ينفث لآحدهما فيستوطن ويستمكن .. ويكون اجتياز الثانى اختلاساً .

ولا خلاص للإنسان إلا بذكر الله ، فهو الذى يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال .. ولا يعالج الشئ إلا بضده ، وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرى عن الحول والقوة ..

فإذا الوسواس معلوم بالمشاهدة ، وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ، ولا يتصور أن ينفك عنه آدمى ، وإنما يختلفون بعصيانهم ومتابعتهم ، ولذلك قال ، عليه السلام : «ما من أحد إلا وله شيطان»^(١) .

ويدعو الغزالى إلى الاشتغال بمحاربة الشيطان ، بدلاً من الاشتغال بالبحث عن كنهه ، وكيف يدخل القلب ويوسوس للإنسان .. وإن عارضناه - إلا أن رايه له وجهته فالذى تشتعل بشيابه النيران لا ينشغل بالبحث عن سبب اشتعالها ... وهو محق فى هذا .. إلا أنه بعد ذلك سيتسائل حتماً عن السبب .. وإلا كان مغفلاً .. وعرضه للحادث مرة أخرى !^(٢)

وقد بين أن سلاح الشيطان هو الهوى والشهوات .. والخواطر تنقسم إلى ما يعلم ، وهى إما وسوسة فى الشر ، أو إلهام فى الخير .. وإلى ما لا يعلم وهو الخاطر الذى يتردد بين الاثنين : «والتمييز فى ذلك غامض ، وأكثر العباد به يهلكون» .. وبعد .. رغم مناصرتنا لتحليل الغزالى لكوا من النفس وأحوالها .. إلا أن كتابه «الإحياء»

(١) رواه مسلم ١٥٧/١٧١ - ١٥٨ ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٦٩ - ٧٠ - ٧١) ، وأحمد ١١٥/٦١ .

(٢) انظر الغزالى : الإحياء ٣١ / ٤٣ - ٤٧ .

لا يخلو من الخرافة ، وهو ما يأخذه عليه الناقدون له بشدة .. ومن ذلك ما يذكره فيقول : « إنما المكاشف في اليقظة هو الذى انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التى تكون في المنام ، فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله ، أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى في المنام جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ، ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر ، بين منكبه وأذنه ؛ له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله ، تعالى ، خنس . ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة ، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جائم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدنيا ...

هذا هو الغزالي ، على جلالة قدره وتنظيره الرائع الذى ذكرنا طرفاً منه من قبل ، يذكر مثل هذه الامثلة السمجة والتي لا تتفق مع شأنه الجليل ، والذى ربما لو سمعه من غيره لسخر منه .. إذ إننا ذكرنا من قبل أن الغزالي نفسه يعلم أن القلب / النفس / الروح يصعب تحديد كنهه أو مكانه من الجسد ، وهل هو عرض أو جسم أو جوهر .. إلا أنه هنا يتنازل عن شخصيته الناقدة الواعية إلى هذا الحضيض .. والذى يدل دلالة واضحة أن الجهل بالتشريح ، أدى لمثل هذه الخرافات التى تعجب العامة وتقعن الخاصة في زمانه .. ولذلك قلنا للشباب الذى يجهم على كتب التراث فيقرأها من غير مرشد ولا أدلة تضيء له الطريق عند قراءتها .. إنك تقع في خطأ فادح حيث أن لكل زمان علماءه الواعين بظروف العصر وطبيعة الثقافة فيه .. ولا يمكن لعقلية القرن الخامس الهجرى ، بما حلها من مجموع علمى وثقافى ، أن تتحكم في أحوال مسلمى القرن الواحد والعشرين !

لكن من يرى ومن يسمع .. فهذا الشباب يحمل ما هو غث وغلث ، وكذلك يحمل كل ما هو ثمين ، ويلقى به في وجوهنا دون تمييز أو نقد .. والاسباب التى دعت كثر .. منها عدم ثقته - أو فقدانه الثقة - في الحاضر - علماء وثقافة وقضايا وحلم قومى مفقود .. إلخ .. إلا أنه لا يعذر مع ذلك .. فدواء الجاهل السؤال .. وآخر العلاج الكى .. فليعذرنا - من شاء أن يعذرنا - لصراحتنا .. فقد فاض الكيل

مما نرى ونسمع من سخافات يعتقد البعض - وهم كثيرون - أنها عقائد لا ينبغي مناقشتها . . . وبذلك نقلوا لنا أمراض كل العصور . . . وذلات كل العلماء . . . والشاذ من الآراء . . . وقذفوه في وجوهنا - مرة اعتراضاً ، ومرة حقداً وحسداً - على من ومن ، لا أدري والبقية تأتي ١١٩ . .

القصد . . ربما ساعدنا ما سبق وأشرنا إليه في هذه المقالة على تصور صحيح وصحيح - بعيداً عن الوهم والترهات - فيها هو الغزالي حجة الإسلام بحق في عصره . . يبين أن الشيطان والملك والإلهام والوسوسة هي مجرد تسميات مختلفة لأمر وأحوال وخواطر متباينة ، حاول من خلالها تفسير ماهية الأحوال النفسية كيف تبدأ ومن أين تنشأ وكيف تنطور ، وما الداعي لها والباعث عليها ، وكيف يمكن تقويم وترشيد قوى النفس / القلب / الروح من نوح كثيرة كتابنا هذا ليس مجاله البحث فيها . . غير أن ما ذكرنا إطلاله قوية لبيان أن الأمر محصور في الخواطر ، وعلى من يعبد الشيطان أو يدعى أن الله وظفه للوسوسة وإضلال الإنسان وإغوائه ، البحث عن أكاذيب أخرى يبنى بها النفس ، ولن نعزبه في عقله القاصر ، إن هو لجأ بعد بيان الحجة إلى التذرع بأدلة أخرى ننقدها عليه إن شاء الله ، تعالى ، بمنه وفضله .

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

الشيطان يجري مجرى الدم!

- ١- الشيطان والغضب .
- ٢- الشيطان يجري مجرى الدم .
- ٣- بات على خيشومه الشيطان !
- ٤- الشيطان والتأؤب .
- ٥- الذي أجاره الله من الشيطان .

الفصل الخامس

الشیطان یجرى مجرى الدم

إن التفكير الرديء في كوامن النفس يزكى الشر في الإنسان ويدفعه لاذی الآخرين، فالكبر والحسد والغل والغیظ ونيران الغضب تعمی الإنسان عن حقيقة نفسه ، فلما خلقه الله وكيف يرد شرور نفسه عن غيره .. فإذا غضب كظم غیظه وعفی ، وإذا نازعته نفسه لفعل الشر تذكر به وأنه قادر علیه .. فلا یبادل الشیطان أفعاله فیصیر مثله سواء بسواء .

صدق رسول الله ﷺ حين قال : « الغضب من الشیطان » ^(١) .. فدوافع الغضب تأتيك من شیطان الإنس الذی تلاعبت به نفسه ، فشاركه الشیطان فی حفظها وصار مفتاحاً یصل به إلى تحريك الاذی والشرفیک أنت .. فصارت حركة نفسك مقيدة بحدود أفعال شیطانية ، والله یرید منك أن تسيطر علی نفسك وتمتلك قواک ، فلا تدعها قیداً فی يد غیرک .. یریدک أن تسمو به وتشرف بالنسبة له .. وأن تنتمی إلى من رضی عنهم ورضوا عنه .. فصنع لنفسک مقياساً ومعیاراً ربانياً تعرف به عند الغضب ، اتغضب لله ولانتهاک حقوقه وحدوده أم لنفسک الامارة بالسوء ١٩ .. قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ ^(٢) .

لا بد أن النبی ﷺ ، حين قال : « إن الشیطان یجرى من ابن آدم مجرى الدم » كان یکنى عن مدى ما یفعله الغضب بالإنسان ، ولم یقصد أن هناك کائناً حياً یعیش ویجرى فی دم المسلم حين یغضب .. فالغضب فی حد ذاته لیس کله شراً .. فمن الغضب ما هو خیر ، کالغضب عندما تنتهک حرمة من حرمت الله .. أو غضب المسلم لعرضه وشرفه ، أو عندما یقدم علی قتال الاعداء فی المعركة ، فهذا غضب یحبه الله وتبارک السماء .

(١) رواه ابن عساکر عن معاوية ، السیوطی الجامع الصغیر ٧٣/٢ ، وقال : ضعیف . وأحمد ٢٢٦/٤١ عن عطیه بن سعد ، وأبو داود ٢٤٩/٤١ ، ح (٤٧٨٤) کتاب الادب ، وأبو نعیم فی الحلیة ١٣٠/٢١ ، والمنائوی فی فیض القدر ٣٧٧/٢ .

(٢) سورة الشمس الأیتان ٧ - ٨ .

فليس الكلام على إطلاقه ، إلا أن له مصادر وموارد ، فمن علم مصادره وموارده أراح واستراح .

فما يكون هذا المسلم الذى يستكين ويتخاذل ولا يغضب حين تغتصب أمام عينيه الأعراس ، ولا يهب غاضباً لدينه ويصد من اعتدى ١٩

لقد اغتصبت دول وانتهكت أعراس النساء وقتل الرجال والأطفال ، ولم يثر فى العروق العربية والإسلامية دم .. ١١ . وقرأ الناس الأخبار فى الجرائد والصحف السيارة وسمعوها فى الإذاعات المختلفة ورأوها رأى العين - إى والله - وهم يأكلون ، فما قاموا عن طعامهم والتهامهم ما لذ وطاب .. وليغتصب من يغتصب وليمت من يمت .. طالما أن الحريق فى غير دارنا ، والقتلى ليسوا من ذوى الرحم فلا يهم ، ولتستمر الحياة .

ما خاصمنا قاتلاً ولا شجبنا على غاصب ، وتركناهم يرعون فى بلاد المسلمين - فى أفقع لا مبالاة أصيب بها العالم الإسلامى - حدث ذلك فى فلسطين وما فزعنا ، وفى اليوسنة والهرسك وكوسوفا وكشمير والصومال ... فمن نحن ومن نكون ١٩ .. أى طعام ناكل وأى شراب نشرب يصيبنا بكل هذا الجبن الخذلان !

الا نغضب لما حدث لإخواننا العرب بجنوب لبنان ، أم نحصص الشفاعة توكلأ على الله ، الذى سيقتل أعداءنا فداء لعيوننا نحن الجبناء .. ١١ . أين الغضب العربى .. بل الإسلامى المحمدى ١٩ .. أين محمداً وصحبه والمعتصم ومن ملأ الدنيا خيلاً ورجلاً ، عندما اغتصب عرض امرأة مسلمة فى أقصى الأرض ١٩

دفعنى إلى ذكر ، ما سبق خطيب جاهل للجمعة لم يفهم من الغضب إلا الاستكانة والتحلل بالصبر ، عندما يلطمك أحد على خدك الأيسر ١١ .. ولم يفرق بين غضب وغضب .. وبين ما لله وما للنفس .. وصادف فى هذا اليوم أن إحدى الجرائد صدرت صفحتها الأولى بصورة لفئة بوسنية مذبوحة ، بعدما اغتصبت على مرأى ومسمع من أهلها الذين قتلوا ودفنوا فى مقابر جماعية ، فى أسوأ وأبشع عمل إجرامى .. الا نغضب أيها الخطيب الهمام لما حدث ١٩ .. الا لانامت أعين الجبناء !!

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) ﴿ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (٢٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) وَلَمَنْ انصَرَّ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤١) ﴿ (٢)

ماذا نقول لله إن حاجتنا بدماء المسلمين الذين أبعدوا بنيران الروس ، ودمرت بيوتهم فوق رؤسهم وسالت الأودية بدمائهم الحرة الغالية ، وهم يصدون الدب الكافر عن أنفسهم وأرضهم ١٩.. ماذا سنقول ١٩.. نقول له : لم نغضب يا ربنا لأننا دعونا لهم في رمضان ، والسماء تطهرهم بالقنابل والنابلم والقذائف المحرمة دولياً والأسلحة التي جربت فيهم لأول مرة ، بأن تنصرهم ... واكتفينا .. ثم تجمعنا على موائد الطعام ننسفها وتمددنا كالبيغال في الحصباء !

أعلم أن هناك من أغبياء العقول من سيفغضب مني ، لأنني تطاولت عليه وعلى أمثاله ، ولكني لن أغضب منه بل سأرثي له ولا مثاله من الجبناء ، الذين لا يفكرون حتى كيف يمسخون أفواههم بعد أن يأكلوا .. الا تسمعون القرآن مثلى حين يقول المولى ، عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَفْرَكُمُ الْفِرَارُ لَآ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٧٢) ﴿ (٣)

وقال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٦٠) ﴿ (٤)

إن هناك من الناس صنف لا يغضب إلا إذا حرم من شهوات نفسه ، أو غبن في بعض دربهات .. فهوى النفس ، والتماع الدينار الأصفر هما بواعث الغضب عنده .. وهؤلاء لا يجرى الشيطان في دمائهم ، بل هم شياطين ومصاصو دماء .. لا يشبعون إلا إذا ولغوا في دماء المحرومين وأكلوا أموال اليتامى والمساكين ، وتاجروا

(٢) سورة الشورى الآيات ٣٩ - ٤١ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٦٠ .

(١) سورة محمد آية ٧ .

(٣) سورة الانفال آية ٧٢ .

فى أوجاع الناس وجراحهم .. وأمثال هؤلاء كثيرون فى بلادنا الآن ، منهم تجار وزراع
وأطباء وأصحاب حرف وأصحاب ولاية على أموال المسلمين .. والغضب والشورة
على هؤلاء وزجرهم لله .. وغضبهم من الشيطان ، وهم حلفاؤه ، لا شك فى ذلك
أبدأ .

١- الشيطان والغضب

عن سليمان بن صُرد قال : « كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان ، فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبي ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد . فقالوا له : إن النبي ﷺ قال : تعوذ بالله من الشيطان ، فقال : وهل بي جنون ؟... »^(١) .

يعد الغضب باباً من ابواب الشر كبيراً ؛ وذلك ان من يغضب يحمله غضبه على كل حماقة ويعميه عن التريث والاعتدال ، لانه يخرججه عن حد الاعتدال ؛ ولا يملك من نفسه شيئاً فينسى مكارمها ، ويقع في برائتها وأسوأ ما فيها من كبر واستعلاء وعناد ؛ فيهجم حيث كان من الواجب التوقف أو التراجع ، ويسب حيث كان عليه الصبر والعفو والتسامح .. ولأن كل ما في الغضب من شرور يفجر كوامن النفس الامارة بالسوء نسبت إلى فعل الشيطان الرجيم ، وكأنه حين يثور الغضببان يصير شيطاناً بتأثير أفعاله ويرتكب معاصيه وحماقاته .

وفي الحديث كان الأولى بمن نصح بالتعوذ بالله من الشيطان أن يمثل للإرشاد والنصح ؛ وإن يعلم أن في طاعة رسول الله ، ﷺ ، الخير كل الخير في الدنيا والآخرة ؛ ولكنه ركب غضبه وغلبه داعي السوء من نفسه فزجر الناصح الدال على الخير ؛ وآثر حرارة الغضب وسعيه على برد الرضا والتسليم والثبات والصبر ، فأساء حيث كان من الواجب عليه الإحسان لمن أسدى له جميل النصح ؛ وربما كان كافراً أو منافقاً أو على أقل تقدير من جفافة الأعراب قساة القلوب ؛ الذين لم تلن بعد عريكتهم بالإيمان والعمل الصالح والتربية المحمدية المؤثرة ؛ فظن أن الاستعاذة من الشيطان لا تكون إلا في حق المجنون ؛ وهو لم يكن مجنوناً في اعتقاده لياتيها ، أي الاستعاذه ، وهو ظن خاطئ منه وقياس فاسد .

إن الغضب أحد الأسلحة الشيطانية الحادة التي يسلمها الشيطان - الإنسي أو الجنى - على عدوه ، فيقضي عليه ويجهز على ما تبقى من اتزانه وهدوئه ، فإن كان له مال أو عقار أو ثياب أو أثاث أو ماعز عليه من عرض الدنيا ، قام إليه فافسده تحت

(١) البخاري ٦٤ / ٣٨٨ ، حديث رقم ١٠٤٣٢٨٢ / ٤٧٩ - ٤٨٠ حديث ٦٠٤٨ .

وطأة الغضب وحرارته ؛ هذا إن لم يقم على من أغضبه قاتلاً أو ضارباً أو سباً ؛ وكل ذلك أماره من أمارت فساد النفس في هذا الوقت وخروجها عن السيطرة ، قال ، **عَلَيْهِ السَّلَامُ** : «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ» ^(١) أى أن مصدره من الشيطان ، أو هو فعل كفعل الشيطان ، أو هو شر مجلوب على الإنسان من عدوه وعدو أبيه آدم ؛ يدخل به عليهم ، فيفسد إيمانهم ودينهم وأموالهم وجملته حياتهم .

وربما كان المفيد بيان قيمة التربية وتعليمها ، ومعرفة أسسها بالنسبة للمربين والمؤدبين ومن يعمل في سلك التعليم والتدريس بدرجاته المختلفة ، في درأ الغضب الناتج من عملية الاحتكاك والاختلاط في الفصول التعليمية بالطلاب ، فكثيراً ما أجد معلماً يضح من حيل تلاميذه وصخبهم في الفصل ، أو عدم التزامهم بآداب التعلم أثناء الشرح .. ويتحول حلمه إلى غضب .. وسعة صدره إلى ضيق .. وتظلم الدنيا في وجهه ، فيسئ إلى نفسه وإلى العملية التعليمية بأسرها .. فإن تهور في ضرب بعض طلابه ساءت سمعته لديهم وفشل في خطب ودهم ، وعجز توصيل المادة التعليمية لهم ..

ولهذا المعلم أنصح به بدراسة أصول التربية وممارسة تأثيراتها المختلفة ، على نفسه ، قبل أن يمارسها على غيره .. ثم يوسع الدائرة فيطبق ما تعلمه على أولاده .. وليفسح صدره ويروض نفسه على كظم الغيظ ، وتهذأتها عندما يثيره مشير ما من المثيرات التي تعرض له .. فهدوء النفس ضرورة من الضرورات التي ينبغي أن يتحلى بها المعلم .. ثم معرفة باب الحيل التربوية ، والابتكار والإبداع فيها ، سيساعده عند القيام بالتدريس .. فالمعلم واسع الحيلة صاحب الحضور الذهني والإخلاص في عمله ، لن يلجأ أبداً للغضب والتهور على تلاميذه .. وهناك مئات من الطرق التربوية التي يمكن للمعلم أن يستغلها عند قيامه بالتدريس في الفصل أو المعمل أو في فناء المدرسة ..

عندما يضطرب سلوك المعلم تهتز شخصيته ، وعندما تهتز شخصيته ، لا يمتلك أدواته ، وكل ذلك بمرأى من التلاميذ ، ولا يمكن أن يستجمع قواه بعد ذلك لممارسة مهنته بعد ذلك ، والسبب هو سرعة غضبه وتهوره الناتج عن قلة خبرته وجهله

(١) أخرجه : أبو داود ٢٤٩/٤١ (كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب) . ح (٤٧٨٣) .

بالأصول التربوية لممارسة التعليم .. وبعد ذلك نجد أمثال هذا المعلم يتجنى على التلاميذ بأنهم شياطين أو أولاد شياطين ، وأن الشيطان هو الذى جعله يمارس القهر والتعذيب على الأطفال ، سيما من لم يبلغ منهم سن السادسة .

صادفت أثناء إشرافى على مدرسى المرحلة الابتدائية والإعدادية ، معلمة فى الصفوف الدنيا .. تعاقب طالبة لها بسبب أنها لا تعرف كيف تكتب .. ولم يكن من أهداف هذه المرحلة تعليم الطفلة الجمالية معرفة الكتابة بقدر تحبيبها فى التعليم والمدرسة وتمكينها من استكشاف العالم من حولها بشكل أفضل .. ودخلت عليها الفصل وهى تعاقبها ، وقد امتلكتها الغضب والثورة .. فماذا أقول لمثل هذه المعلمة .. هل الجهل هو الذى دفعها إلى مثل هذا السلوك .. أم الشيطان أم هما معاً ؟

علينا أن نتعقل عند ممارسة الخبرات فى الحياة ، فالحياة ليست قسمة بيننا وبين الشيطان .. نحن نصلح وهو يفسد ، ونبنى وهو يهدم .. لا .. بل علينا أن نستفيد من تجارب الآخرين ونكثر من جمع الخبرات وترتيبها واستدعائها عند اللزوم لننتفع بها ..

لقد تأخذنا بعض الممارسات الحياتية إلى طريق مسدود ، عند التعامل مع بعض الأشخاص .. وعلينا عند إذ أن نعلن فشلنا فى التعامل معهم ، وإعداد النفس مرة أخرى لجولات جديدة ، نعيد فيها التجربة من جديد فى ضوء معطيات أخرى ، فليس هناك مستحيل فى الحياة .. ولا يوجد من البشر من يستحيل الاتصال به عن طريق وسيلة من الوسائل .. والسؤال هو كم من الوسائل تعرف ؟ .. فإن أجبت على هذا السؤال .. فقد فهمت من أين تأتى بواعث الغضب .



٢- الشيطان يجرى مجرى الدم

عن صفية بنت حيّ قالت : « كان رسول الله ﷺ معتكفاً ، فأتته أزوره ليلاً ، فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معي ليلتي - وكان سكنها في دار أسامة بن زيد - فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا فقال النبي ﷺ : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حيّ . » فقالا : سبحان الله يا رسول الله . . . قال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنني خشيت أن يقذف في قلبكما سوءاً . » أو قال شيئاً ، (١) .

ذكر الحافظ في كتاب « الاعتكاف » في باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد . . . أن محصل روايات هذا الحديث تفيد أن النبي ﷺ لم ينسبهما إلى أنهما يظنان سوءاً ، لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ، ولكن خشى عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك ؛ لأنهما غير معصومين فقد يفضي بهما إلى الهلاك ، فبادر إلى إعلامهما حسماً للمادة ، وتعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك .

وحديثه يفيد أن هذه الوسوسة قد تكون سوء ظن بمن لا يجوز في حقه مثل ذلك ، وأن سوء الظن من الشيطان ؛ يقول الحافظ : وغفل البزار قطعاً في حديث صفية هذا ، واستبعد وقوعه ولم يأت بطائل .

أما قوله ﴿ إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم . . ﴾ أو أنه يجرى من الإنسان مجرى الدم . . إلخ إما على ظاهره وإن الله ، تعالى ، أقدره على ذلك . . وهو ما نستبعده ؛ لأن اللغة عرفت الجواز وهو كناية على سرعة وقوع الإنسان في الهوى والشهوات ، ومنها إساءة الظن وكل ذلك أفعال إبليس . . أما ظاهره فيرده القرآن الكريم حيث بين أن الشيطان منذ خرج من الجنة فهو ذليل حقير ضعيف ؛ كما أن الله خلق الجن لعبادته لا لإغواء الناس قال تعالى : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) ﴾ (٢) ومن أذله الله كيف يقدره على عباده فيؤثر في قدراتهم وإرادتهم في الطاعة . . وهو ظن سيئ في الله أن يحب عباده الإيمان به ، فيسلط عليهم من يضلهم عنه !

(١) البخاري ٦٤ / ٣٨٨ ، حديث رقم ٣٢٨١ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٣ .

وقال تعالى في حقه : ﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ... ﴾ ^(١) ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴾ ^(٢) ولا يعقل لمن هذا شأنه أن يقدر على ما قدر عليه ربه من الوصول إلى أسرار القلوب فيتلاعب بها ويوسوس فيها .

أما من قال : إن هذا على سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه ، وكأنه لا يفارق الدم ، فاشتركا في شدة الاتصال وعدم المفارقة .. فقد أصاب الحقيقة ووفق إلى تخريج معاني الحديث على وجه يتقبله العقل والشرع جميعاً ^(٣) .

إن معالجة النفس ومداواتها خير من الندم حال الوقوع في الخطيئة ، والنفس نازعة إلى الشهوة والهوى وملذاتها طواقه إلى ذلك .. ولوانها أخذت حذوها وكفأيتها من الحلال ؛ لكان ذلك خيراً لها ولصاحبها ، إلا إنها تميل إلى الفضول الذي يتخمرها ، إن طلبت حلالاً ، والذي يهلكها إن رتعت في مرتع حرام ..

والبدن تابع للنفس فإن مالت ونزعت إلى التفریط أو الإفراط ، جارت عليه وأعلته .. فما بالك وجل رغبات النفس وميولها نحو المحرمات !!

وعند التأمل في قطف النفس لثمار اللذة من الحلال وقضاء الترفيه ، شهوة كانت للبطن أو الفرج ، دون رادع يردعها أو ناصح ينصحها ، يؤدي حتماً إلى الضرر البالغ بصاحبها ..

وإن كانت شهوتها في الإفشاء إلى إلفها في الحلال ، بإفراط ودون ضابط يهلكها ويقضى عليها في مستقبل عمرها .. فما بالك لو كان كل ذلك في حرام .. ما أسوأ العاقبة على النفس ..

ومعالجة الشهوة واللذة عند بداها خير من مداواة آثارها .. والصبر على الهوى خير من اتباع شيطانه .. فالنفس تسوق الإنسان إلى هلاكه ، إن لم يمسهر عليها ناصحاً ومهذباً ومؤدباً ، لعلها تنزكي أو تصير إلى الاعتدال ، وهو ما ينقص على الشيطان أمره .

(٢) سورة الإسراء آية ١٨ .

(١) سورة الأعراف آية ١٨ .

(٣) الفتح ٤١ / ٣٢٨ - ٣٢٩ .

٣- بات الشيطان على خيشومه ١

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : «إذا استيقظ - أراه - (قال :) أحدكم - من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثاً ، فإن الشيطان يبيت على خيشومه» (١) .

كيف يبيت الشيطان على خيشوم العبد المسلم المتوضأ الذى غفل عن الاستنثار؟ .. أو لكل مسلم نام ثم قام ليتوضأ ويصلى الفجر يفعل به الشيطان هذا إن لم يستنثر؟ فهل صار المسلم مأوى للشيطان ؟ ..

يقول الحافظ ابن حجر : ظاهر الحديث أن هذا يقع لكل نائم (٢) ، وهذا الظاهر غير مقصود على مانعته ، وإلا كان معناه معارضاً بغيره من الأحاديث والقرآن والنص لا يختلف ولا يتناقض ، كما أن العقل يرفض إذ إن الحس هو نافذة الإدراك ، ولم يشاهد أحد من المسلمين ، أو من غيرهم ، شيطاناً نائماً على خيشومه أو احس بذلك !

ويحتمل أن يكون مخصوصاً بمن لم يحترس من الشيطان بشئ من الذكر ، لحديث أبى هريرة المذكور قبل حديث سعد ، فإن فيه «فكانت له حرزاً من الشيطان» ، وكذلك آية الكرسي ، وقد تقدم فيه «ولا يقربك شيطان» ..

ذكرنا من قبل رأى الإمام أحمد بأن شيطان الإنسان إنسان مثله بنص القرآن الكريم ، أو هو الهوى والشهوات ، فشيطان الإنسان من داخله ، فنوازع الإنسان ودوافعه هى شيطانه الحقيقى ، وكل فعل يفعله يقصد به معصية ربه فهو يرضى الشيطان ويحبه ويفسرحه ؛ لأنه يوافق هواه ومراده من بنى آدم الذى أقسم أن يضلهم عن الحق والتوحيد ، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أُخْرِتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكَنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَأَسْتَغْرِزُ مَنْ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِّلُ فِيهِ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴿ (٣) فهو بذلك يشارك الإنسان ، وهو بذلك تنسب إليه كل أفعال الشر ؛ لأنه أول من عصى وتكبر وانحرف عن سواء الصراط .

(٢) الفتح ٦١ / ٣٩٥ .

(١) البخارى ٦١ / ٣٩١ حديث ٣٢٩٥ .

(٣) سورة الإسراء آية ٦٢ - ٦٤ .

ويحتمل أن يكون المراد بنفى القرب هنا ، أن لا يقرب من المكان الذى يوسوس فيه، وهو القلب ، فيكون مبيتة على الأنف ؛ ليتوصل منه إلى القلب إذا استيقظ ، فمن استنثر منعه من التوصل إلى ما يقصد من الوسوسة ، فحينئذ فالحديث متناول لكل مستيقظ .

ولو كان هذا الذى ذكره الحافظ مجرد رأى لا تأثير له على مجموع المسلمين أوخاصاً به ، لقلنا أنه كلام عابر ، ولا ضرر من ورائه إلا أن هناك أمة صارت هذه الآراء معتقدات لها ومذاهب ، وجاء علماء من قبله ومن بعده يشققون فى المعانى .. وكان ما يقولون حقاً يتبع أولازم الاتباع .. والحقيقة غير ذلك .. فإى دين أو عقل يمكن تقبل هذا الكلام .. هل جاء بهذا الإسلام أو وجد فى خط كتاب ، أو عقله عاقل ليقبل أو سبق أن تناقلته العرب أو أثر عن صحابة رسول الله ، ﷺ ، أن الشيطان نام على أنوفهم ١٩ من يشهد بذلك فهو محق ..

ومن جاء بآية واحدة تدل على أن منام الشياطين أنوف عباد الله - مسلمين أو غير مسلمين - فهو محق ، ومن دلت مدارك الحس فيه أن الشيطان نام على أنه فهو محق .. ومن شاهد الشيطان نائماً على أنف غيره فهو محق .. ومن شاهد شيطاناً يوسوسه أو يقذف فى قلبه ما توهمه هؤلاء القوم فهو محق ، ومن لم يجد من ذلك شيئاً فليعلم أن ما راجع فى هذا الموضوع واستقر فى أوهام وخيالات المسلمين من هذا الحديث فهو باطل باطل لا أصل له فى دين الله وكتابه ولا يقبله عقل عاقل .. ومن قال بغير ذلك فهو على ملة غير ملة الإسلام مكابر لعقله ومعاند ، ولا فائدة فى أمة اشتغلت بالضلالات واعتبرتها أدياناً تدين بها لربها ..

وليعلم من يقرأ كتابنا أن غرضنا الإصلاح الدينى وتقويم مفاهيم الأمة لدينها .. فإن التوحيد إذا فسد فسد دين المسلمين ، ومنهج الفهم والاستقبال واضح لا لبس فيه ، كتاب لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وما صح من حديث رسول الله ﷺ ووافق الكتاب بلا أدنى شبهة أو إغراق فى التأويل أو توفيق بين المتعارضات والمتناقضات .

فالكتاب لا يتعارض ولا يختلف ولا يتناقض وكذلك السنة ؛ وكلاهما لا يتعارض مع صاحبه ، والتوفيق والجمع بين الكتاب والسنة ، عند التعارض ، تكلف مرفوض ،

فأحدهما - عند وجود الرواية الصحيحة السند وتناقضها مع القرآن - صحيح ، ولا يعقل صحة السنة وتكذيب الكتاب إلا عند المهوسين بآثار الرواة ؛ الذين جعلوا الكتاب وحقائقه وأصول الدين فيه وراءهم ظهيراً ؛ ودفعوا ما دون عقائدهم التي كونوها من مجموع روايات وآثار تكلفوا جمعها واستنتجوا من فهمها ديناً آخر غير الإسلام ١ .

يضاف إلى ذلك المنهج الذي قررناه من الكتاب والسنة كمصدرين أصليين للعقائد وغيرها ، المنهج العقلي القائم على تقرير البديهيات أولاً والاتفاق عليها ؛ ومصاحبة الدليل والاختد بالاستنباط والاستقراء والقياس والمشاهدة والاستدلال والنظر في الأدلة حسب الأصول المقررة والمقدمات ، للصحيحة في ذاتها ، وترتيبها على وجه منتج صحيح .

كما أن للغة العربية ومعانيها وتصاريفها وما يصح من استخدامات العرب لوجوه البيان فيها والبلاغة أهمية بالغة في فهم الكتاب ومراد الله منه ؛ لأن العرب أقدر الناس على استقبال كتاب الله وآيات التنزيل ، وفهمها على الوجه الذي أراده الله عز وجل .. فعرفوا نواحي الإعجاز البياني والبلاغي فيه ، ووقفوا عندها مشدوهين ومدهوشين .. وسلموا بأنه أكبر من أن يكون قول بشر منهم ، وهم أصحاب البلاغة والفصاحة ، .. والقرآن كتاب عربي نزل بلسان عربي .. ولا يعقل إهمال المنهج اللغوي بما يزخر من أدوات تساعد على الفهم والوصول إلى مقاصد الشارع ، بعد أن حس الله على تدبر آياته ، ولا تدبر للآيات بدون أسس تأتي في مقدمتها اللغة التي نزل بها الكتاب . فإذا كان الكتاب عربياً وآياته عربية وكلماته عربية ولالاته عربية والفاظه عربية ومعانيه عربية ، وتراكيبه وأمثاله وبلاغته وبيانه عربية .. كيف يمكن تجاوز عامل اللغة وإقصائها من منهج التفسير والتأويل بأي حال من الأحوال ١١٩

٤ - الشيطان والتشاؤب

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «التشاؤب من الشيطان ، فإذا تشاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال : ها . ضحك الشيطان» (١) .

ذكر البخارى فى «كتاب الادب» باب «إذا تشاءب فليضع يده على فيه» عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إن الله يحب العطاس ويكره التشاؤب ، فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له : يرحمك الله .. وأما التشاؤب فإنما هو من الشيطان ، فإذا تشاءب أحدكم فليرده ما استطاع ؛ فإن أحدكم إذا تشاءب ضحك منه الشيطان» (٢) .

فى شرحه معنى قوله ﷺ «وأما التشاؤب فإنما هو من الشيطان» قال ابن حجر : قال ابن بطلال : إضافة التشاؤب إلى الشيطان بمعنى إضافة الرضا والإرادة ، أى أن الشيطان يحب أن يرى الإنسان متثائباً ؛ لأنها حالة تتغير فيها صورته فيضحك منه . لا أن المراد أن الشيطان فعل التشاؤب . وهو توجيه صحيح وافقه عليه ابن العربى فقال : قد بينا أن كل فعل مكروه نسبه الشرع إلى الشيطان ؛ لأنه واسطته ، وأن كل فعل (خير) نسبه الشرع إلى الملك ؛ لأنه واسطته .

كما بين ابن العربى طبيعة التشاؤب والعطاس بما يتوافق مع تأويله السابق فقال : والتشاؤب من الامتلاء وينشأ عنه التكاسل وذلك بواسطة الشيطان ، والعطاس من تقليل الغذاء وينشأ عنه النشاط وذلك بواسطة الملك . هذا الكلام أقرب إلى التوصيف والتشخيص الطبى الذى يقبل فى عصره بحسب المفاهيم والمعارف الطبية التى كانت قائمة .. أما فى عصرنا فقد يكون لأمراً قريباً من ذلك أو بعيداً عنه .. فهو لا يقبل على عواهنه كما يظن البعض من المقلدين .

كما نفى النووى كون التشاؤب من الشيطان وبين أنه أضيف إليه ؛ لأنه يدعو إلى الشهوات ، إذ يكون عن ثقل البدن واسترخائه وامتلائه ؛ والمراد التحذير من السبب الذى يتولد عنه ذلك وهو التوسع فى المأكول . ولا يظن أحد أن الناس فى هذا العصر

(١) رواه البخارى ٦١ / ٣٨٩ ، حديث ١٣٢٨٩ ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وأحمد ، والطحاوى حديث ٢٣١٥ .

(٢) رواه البخارى ١٠١ / ٦٢٧ ، حديث ٦٢٢٦ .

كانوا فى رغد من العيش .. ولكن تأثير الفكر الصوفى على الوسط الإسلامى كان نافذاً .. واتخذ الأمراء والسلاطين منه أداة إلى خلق توجهات شعبية .. وثقافة موحدة ورأى واحد يتفق عليه العامة - فالدعوة إلى الزهد وقطع العمر فى الزوايا والتكايا والخلوات .. وترك الدنيا وقطع المسلم أو المريد نفسه عن كل ما يشغله بالذكر والدعاء كان هو السائد ساعة إذ .. فما السبب فى ذلك ١٩

السبب يعود إلى تفرد المالك بالسلطة .. وتحريمهم اشتغال المسلمين بالسياسة أو مناقشة الحكام فى الشئون العامة أو الخاصة .. وقبضهم على الأمور بيد من حديد وحرمان الشعب من أدنى حقوقه المدنية .. وإهدار إنسانيته فى أغلب الأوقات .. فبماذا يشتغل شعب حرم من المشاركة فى إدارة شئون وطنه أو إبداء رأيه فى السياسة أو الاقتصاد أو التجارة .. وهى مجالات محرمة عليه ١٩ .. يشتغل بالذكر والدعاء والعبادة .. فما نتيجة هذه السياسة المملوكية على الأمة الإسلامية ١٩ .. لن أجيب .. لأن الكل يعلم ما حدث للأمة من تخلف وارتداد وتبعيه .. ثم تدهور حالها حتى صارت محتلة على كل المستويات تستجدى قوتها .. ولا تملك أمرها ..

من إذاً الشيطان ؟ .. هل هو الحكام الذين ظلموا الأمة .. أم العلماء الذين سكتوا عن الحق والواجب المفروض عليهم فى قيادتها .. أم الشعوب التى استكانت حتى أهدرت حقوقها عن آخرها ١٩ .

روى ابن ماجه بسنده من طريق عبدالله بن سعيد المقبرى عن أبيه بلفظ : «إذا تشاءب أحدكم فليضع يده على فيه ولا يعوى ، فإن الشيطان يضحك منه» ^(١) ، قال ابن حجر : قال شيخنا فى شرح الترمذى ^(٢) : أكثر روايات الصحيحين فيها إطلاق التشاؤب ، ووقع فى الرواية الأخرى تقييده بحالة الصلاة ، فيحتمل أن يحمل المطلق على المقيد ، وللشيطان غرض قوى فى التشويش على المصلى فى صلاته ، ويحتمل

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ١١ / ٣١٠ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما يكره فى الصلاة ١ حديث رقم ٩٦٨ ، وفى الزوائد فى إسناد عبدالله بن سعيد ، انفقوا على ضعفه .

(٢) جاء فى صحيح الجامع للترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : العطاس من الله والتشاؤب من الشيطان ، فإذا تشاءب أحدكم فليضع يده على فيه ، وإذا قال : آه فإن الشيطان يضحك من جوفه ، وإن الله يحب العطاس ويكره التشاؤب ، فإذا قال الرجل : آه إذا تشاءب فإن الشيطان يضحك من جوفه ٨٠ / ٥ حديث ٢٧٤٦ كتاب الأدب ١ باب وما جاء إن الله يحب العطاس ويكره التشاؤب .. وانظر الحديث ٢٧٤٧ .

أن تكون كراهته في الصلاة أشد ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكره في غير حالة الصلاة .

وقد قال بعضهم : إن المطلق إنما يحمل على المقيد في الأمر لا في النهي ، وبؤيد كراهيته مطلقاً كونه من الشيطان ، وبذلك صرح النووي ^(١) ، قال ابن العربي : ينبغي كظم التشاؤب في كل حالة ، وإنما خص الصلاة ؛ لأنها أولى الأحوال بدفعه لما فيه من الخروج عن اعتدال الهيئة واعوجاج الخلقة .

ولا مانع من وصف التشاؤب كسلوك بأنه معيب شكلاً ولا ينبغي ، لكونه باعث على الكسل والاسترخاء ودليل على التواني ، أما أخذ المعنى على ظاهره بأنه من الشيطان فعلاً فهو ما لا نقبله ؛ لأن في اللغة والهماز اللغوي سعة ؛ وقد فهم بعض العلماء ذلك كما أشرنا ؛ فهو كناية عن مدى قبح هذا السلوك وليس فعلاً للشيطان ، وإلا تعارض مع القرآن وأصول الدين ؛ لأنه ليس للشيطان على عباد الله سلطان ؛ فضلاً عن أن يكون سلطانه على عباد الله المؤمنين وفي الصلاة التي هي أخص العبادات عند المسلمين .

أما حديث العلماء عن المطلق والمقيد من روايات هذا الحديث فهو من الفضل ويتعارض ، وبإلتهم تناولوه في ضوء أساسيات العقيدة ؛ إذن لاسدوا لنا جميلاً كبيراً .. بدلاً من الحديث عن جزئيات .. وهم على ما فعلوا يشكرون ونحن لهم ممنونون ؛ ولكل مجتهد نصيب .

وجاء في رواية أبي سعيد تشبيه التشاءب بالكلب « ولا يعوى » ؛ لأنه إذا أفرط في التشاؤب شابهه ومن هنا تظهر النكتة في كونه يضحك منه ، لأنه صيره ملعبة له بتشويه خلقه في تلك الحالة .. وهو على المجاز جائز ؛ أما على الحقيقة فلا يجوز .

يقول الحافظ ابن حجر : وأما قوله في رواية مسلم : « فإن الشيطان » ^(٢) فيحتمل أن يراد به الدخول حقيقة ، وهو إن كان يجري من الإنسان مجرى الدم ، لكنه لا يتمكن منه ما دام ذاكراً لله تعالى ، والمتشائب في تلك الحالة غير ذاكر فيتمكن الشيطان من

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٨١ / ١٢٠ .

(١) روى الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تشاءب أحدكم فليمسك يده ، فإن الشيطان يدخل » ١٨٤٤ / ١٢٢ .

الدخول فيه حقيقة^(١) .. وهذا أمر لا يجوز عقلاً ولا شرعاً ، وهو تجاوز في الكلام إنساق له كثير من المحدثين ؛ لأنه يستحيل دخول الجن في الإنسان لاختلاف الطبيعيتين .. فالإنسان من طين ، الجن من نار السموم .. والجن غير مكلف بالدخول في أجسام بنى آدم وغير مأمور بذلك وهو غير قادر عليه .

وآراء المتكلمين في هذا الموضوع قال عنها الأشعري : اختلف الناس في الجن هل يدخلون في الناس ؟ على مقالتين :

(١) فقال قوم : إنه محال أن يدخل الجن في الناس .. وهذا هو الصواب الذي يتفق مع العقل والدين ويؤيده الطب والتشريع .

(٢) وقال آخرون : يجوز أن يدخل الجن في الناس ؛ لأن أجسام الجن أجسام رقيقة ، فليس بمستنكر أن يدخلوا في جوف الإنسان من خروقه ، كما يدخل الماء والطعام في بطن الإنسان ، وهو أكشف من أجسام الجن ؛ وقد يكون الجنين في بطن أمه ، وهو أكشف جسماً من الشيطان ؛ وليس بمستنكر أن يدخل الشيطان إلى جوف الإنسان^(٢) . وأصحاب هذا الرأي حاولوا إكسابه صفة عقلية أو شرعية ولكنهم فشلوا .

ويحتمل أن يكون أطلق الدخول وارد التمكين منه ؛ لأن من شأن من دخل في شيء أن يكون متمكناً منه . وهو تاويل مقبول يحتمله المعنى والصورة الكلية التي يرسمها الحديث .

ذكر المحدثون أن النبي ﷺ لم يتشاءب أبداً ، وهو من خصائصه النبوية التي خصه الله بها .. « ما تشاءب النبي ﷺ قط » .. وقال ابن حجر : وقع في « الشفاء لابن سبع » أنه ﷺ كان لا يتمطى ؛ لأنه من الشيطان ، والله أعلم^(٣) .

(١) انظر الفتح ١٠١ / ٦٢٨ .

(٢) انظر ، الأشعري : المقالات ٢٤ / ١٠٨ .

(٣) انظر الفتح ١٠١ / ٦٢٨ .

٥- الذى أجاره الله من الشيطان

عن علقمة قال : « قدمت الشام ، قالوا : أبو الدرداء ، قال : أفيكم الذى أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ ؟ ... والذى أجاره الله على لسان نبيه ﷺ ، يعنى عماراً »^(١) .

والحديث بتمامه فى كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمار وحذيفة ... قال الحافظ والغرض من قوله : « الذى أجاره الله من الشيطان » فإنه يشعر بأن له منزلة بذلك على غيره ، ومقتضاه أن للشيطان تسلطاً على من لم يجره الله منه .

ذكر المحدثون روايتين فى سبب قولهم على عمار أنه هو الذى أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه :

١- أحدهما : قول النبی ﷺ : « ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

والثانية : « ما خُبرَ عمار بين أمرين إلا اختار أَرشدهما »^(٢) .

فكونه يختار أرشد الأمرين دائماً يقتضى أنه قد أجير من الشيطان الذى من شأنه الأمر بالقى .

ذكر ابن سعد فى طبقاته من طريق الحسن قال : « قال عمار : نزلنا منزلاً فاخذت قريتي ودلوى لاستقى ، فقال النبی ﷺ : سيأتيك من يمنعك من الماء ، فلما كنت على رأس الماء إذا رجل أسود كأنه مرس ، فصرعته ، فذكر الحديث ، وفيه قول النبی ﷺ « ذاك الشيطان » فلعل ابن مسعود أشار إلى هذه القصة^(٣) .

وهذا الكلام يدل على معرفة الرسول ﷺ ، بما سيحدث من الشيطان ، فلم لم يكن فى نصرة عمار عند القليب ١٩ .. وما النكتة فى معرفته بما سيحدث من الشيطان ، هل فى هذا إظهار لمعجزته ﷺ أو كرامة لعمار ، رضى الله عنه ، بأن صرع رجلاً أسوداً ، كأنه مرس ، وإخبار النبی بعد ذلك له أنه الشيطان ١٩

(١) البخارى ، ٦ / ٣٨٩ حديث ٣٢٨٧ - وحديث ٣٧٤٢ - ٣٧٤٣ - وغيرها .

(٢) أخرجه الترمذى ٦٢٧/٥١ (كتاب المناقب ، باب مناقب عمار ..) حديث (٣٧٩٩) وقال السيوطى فى الجامع

الصغير رواه الترمذى والحاكم ١٤٥/٢١ .. قال : الترمذى هذا حديث حسن غريب ..

(٣) الفتح ٧١ / ١١٦ .

ما النكتة في أن الشيطان لا يكون إلا كلباً أسوداً أو إنساناً أسوداً .. هل هو احتقار
للسواد أو استهزاء ببعض المخلوقات لجنسها أو لونها .. ما الذي حقر الكلب أو
الإنسان الأسود حتى يشبه بهما عدو الله النكرة إبليس ١٢

إِفْضِلْكِ الشَّائِسِ دولة إبليس!

- ١- إبليس على عرش العالم!
- ٢- قرنا الشيطان والشمس .
- ٣- الشيطان وساعة الميلاد .
- ٤- القريبن !!
- ٥- الشيطان والكهان .
- ٦- الشيطان والرؤى .
- ٧- عمر والشيطان .

الفصل السادس

دولة إبليس

إذا سلمنا أن إبليس على عرش العالم .. وهو المتصرف في دولة الشر .. وأن له على كل إنسان قريناً .. وأنه يأتي كل إنسان ساعة الميلاد فيقطعن في خاصرته كئانه يضع عليه خاتمه ، وأن الشمس تشرق من بين قرنيه .. وأنه يتسمع في الملا الأعلى لحساب الكهان .. هو وجنوده .. وله قدرة على النفاذ إلى الإنسان حتى يمتلك خياله في عالم الرؤى والغيب .. لو تصورنا وسلمنا بكل هذا .. فماذا بقي لدولة الخير .. أو ليس هذا التصور مناقضاً للتوحيد ، وكونه تعالى ﴿خالق كل شيء﴾ ١ .

كيف تنهض أمة التوحيد في مواجهة اليهود ومن ورائهم من شياطين الإنس وسادة الشر في العالم إن كانت دولة الشيطان هي المسيطرة على كل ما سبق ١٩ ..

إن ما جاء في السنة والأحاديث - إن صح ثبوتها لفظاً ومعنى - فلا بد لها من تفسير وتاويل يقصد به التصوير والتقريب .. لا الحقيقة .. فديننا جاء ليحررنا من أوهم المحوس والماتوية والبوذية الذين عبدوا النار والشر والخير والظلام والنور وجعلوا الشيطان شريكاً لله وندا .. تعالى الله عما يشركون .. وكل ما جاء في تراث الشعوب من تمجيد الشيطان وإعلاء قيمته لا شك ترك أثراً في نفوس المسلمين ، وخاض كثيرون في أحوال اليأس والجبرية المقيتة وسلموا بأنه ما أَرَادَهُ اللهُ منهم في قرآنه وقصده رسوله في سنته ..

إلا إن السنة مبينة للكتاب وموضحة له .. تسير في أنوار منهجه وليست ناقضة له .. والحق واحد لا يختلف ولا يتناقض ولا يتضاد ، ومن اعتقد هذا فهو واهم . خرج من التوحيد إلى التحيد .. ومن الإيمان إلى الكفر .. وهو يؤمن بدين غير الإسلام .. إن الإسلام جاء أمناً للإنسان ونوراً يملء الأكوان .. لا سبيلاً للجهل والخرافة عليه .

خلقنا الله من عدم وأوجد الأكوان والإنسان والجان والملائكة ، وكل ما في الوجود صنعته .. ولم يجعل لأحد من خلقه سلطاناً على الوجود من دونه .. وإنما هو فتنة

وإبتلاء .. ولا يخرج الأمر عن هذه الحدود ، ما أقسم عليه إبليس مجرد ظن ووهم .. صدقه بنى آدم من سوء فعالهم .. ومن تاب تاب الله عليه وهو الغفور الرحيم .

وفى عصرنا دولة إبليس هى تلك الدولة التى تمد سلطانها وهيمنتها على العالم ، سياسياً واقتصادياً وثقافياً .. ونظن ، لفرط غرورها ، أنها ستضع من نفسها حضارة الزمن الآتى ، وستكون مركزاً لتلك الحضارة ..

فهى تلك الدولة التى تتبنى العنصرية أساساً لتفكيكها وعقيدتها السياسية ، لكونها شعباً مختاراً من قبل الله ، تعالى ، يحق له استعباد العالم .. وتحاول خلق تبعية سياسية لجميع الدول .. وحكم العالم من خلال عدة منظمات ، اتضع تماماً أنها شكلية فمن منظمة الامم المتحدة ومجلس الأمن ، حتى صندوق النقد الدولى ومنظمة الدول الست ، المتصرفة فى شئون العالم وخلق الازمات فى كل جزء من العالم .. لتعبر عن هيمنتها التامة .. وامتلاك الاسواق العالمية ، عن طريق اتفاقية الشراكة والجات .. وتعويم العملة .. والسيطرة على السوق العالمية للسلاح والمنتجات الثقيلة .. وفرض الإصلاح الاقتصادى الذى تراه على الدول المدينة ، وبما يتفق مع مصالحها السياسية والاقتصادية .. عن طريق الشركات متعددة الجنسيات والخصخصة .

كما أن دولة إبليس هى تلك الدولة التى ترعى الحكومات العميلة ، وتزرع الحكام التابعين لها مثال ذلك بونشيه فى شيلى ، والعديد من الحكومات فى البرازيل مثل كولور ونهاية بكارلوس منعم فى الأرجنتين .. وكذلك ما حدث فى نيكارجوا .. وربط اقتصاد بعض الدول بها كالمكسيك وكندا .. ثم حكم هذه الدول من داخل الكونجرس بإصدار قوانين يسير مفعولها على هذه الدولة، كما فعلت مع الشركات التى تعاملت مع كوبا أو إيران أو السودان أو ليبيا .. بقانون (هيلمز - بورتون) أو قانون (داماتو)^(١) .. لقد عدنا إلى الوراء فصرنا سنة فى ترس كبير ، يدور بقوة ماكينة تقودها دولة إبليس .. فتحدد سياستنا الاقتصادية بداية من الزراعة ونهاية بالأعمال اليدوية مرهون بتخطيطها .. فهنيئاً للشيطان .. وإلى أن تظهر طبعة

(١) انظر روجيه جارودى : كيف نصنع للمستقبل ٩ ، ص ٧٩ .

جديدة من عرب ينشدون طعم الحرية .. ويريدون الحياة فى أرض عربية ، لها حضارة عريقة راسخة .

ودولة الشيطان هى تلك الدولة التى تقهر شعباً عربياً ، أكثر من عشرة أعوام متصلة ، حصاراً وتعذيباً وتدميراً وقتلاً ، حتى خرجت أنفاس أطفاله موتاً واحتجاجاً .. والعالم العربى يستجديها أن ترفع الحصار عنه رحمة بالصغار والشيخ والمرضى والنساء ، فلا تستجيب .. وهم عاجزون عن مساعدة أختهم الشقيقة التى تذوق الهوان ، خشية بطش وغضب دولة الشيطان !!

ويكفى ما كتبت حتى لا اتهم بآنى أحاول بعث ركماً بشرياً يسمونه العرب وأولبهم ، حتى ينتفضوا فى وجه دولة إبليس التى صنموها هم بخوفهم وأموالهم التى تطفح بها بنوكها ، وتدير عجلة اقتصادها وتطور به سلاحها الذى تجربته أول ما تجربته فينا نحن !

وحتى لا اتهم بآنى قد أرهبت الشيطان وأفزعته .. فلتنعم سيدى .. فإنهم نائمون .. ولن يستيقظوا إلى يوم يبعثون !

١ - إبليس على عرش العالم !

روى مسلم بسنده عن جابر قال سمعت النبي ﷺ يقول : «إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة» (١) .

وروى أيضاً عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجرى أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً . قال : ثم يجيئ أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته . قال : فيدنيه منه ، ويقول : نعم أنت . قال الأعمش : أراه قال : فيلتزمه» (٢) .

وهذا الحديث يشير إلى أن لإبليس دولة وجنود .. ووظيفته التحريض على بني آدم وإغوائهم وإيقاعهم في حبائله .. ويعنى أن إبليس وجنوده مسيطرون على بني آدم ولا هم لهم غير ذلك .. فمن الذى سلطهم ؟ .. يبدو أن المجبرة حسموا هذا الأمر وقرروا أن الله ، تعالى ، هو الذى سلط إبليس وجنوده على بني آدم ! .

وهل من العدل تسليط أعدائه على أوليائه ، ليغوهم عن التوحيد والطاعة .. وإذا كان لإبليس كل هذه الطاقات الهائلة والقدرات الفائقة ماذا بقى حتى يساوى الله ، عز وجل ، القادر على كل شئ .. وما حيلة الإنسان فى عدو يأتية من كل اتجاه وهو لا يقدر على دفعه ودراً مكائده ١٩

إن هذا الحديث يتعارض مع القرآن والعقل .. والتوحيد والعدل .. وأصول الدين جملة وتفصيلاً .. وهو أشبه بحكايات الرواة منه بأحاديث المعصوم ، عليه الصلاة والسلام .. ولا يقال إنى أرد سنة رسول الله ، ﷺ ، وأنكرها .. فهذه مقالة شنعاء من قوم مفترين ، ضاقت عقولهم وصدورهم عن فهم دينهم .. ومنهم من يهوى الهجوم على العلماء .. وإن يصنع من نفسه حارساً ، حيث لا يحمد من أمثاله أن يكون كذلك .

وعموماً لو فسروا هذا الحديث ووجدوا له تأويلاً يتسع له صدورهم وعقولهم ..

(١) مسلم ١٧١ / ١٥٦ حديث ٦٥ .

(٢) مسلم ١٧١ / ١٥٧ حديث ٦٦ .

بان قالوا إن إبليس الذى قصده الرسول ﷺ ، هو إسرائيل وأمريكا حيث تعربد الأولى فى المنطقة العربية كيف شاءت وتضرب بذراعها الطويل ، التى نتمنى قطعهُ ، أى دولة عربية فى أى وقت .. كما حدث لتونس حين ضربتها بحجة راعيتها للمنظمة والفلسطينيين فى الثمانينات .. أو ضربها للمفاعل النووى العراقى العربى .. أو قصفها واحتلالها للبنان .. أو إلخ فانا أوافق على هذا التأويل ..

وإن قالوا إن إبليس وجنوده هى أمريكا ؛ لأنها تضرب العراق مرة والسودان مرة أخرى ، ثم تنعطف فتضرب ليبيا والصومال .. وهى الآن بصدد ضربها لإيران بحجة راعيتها للإهاب (الإسلاميين) الإسلام .. فانا معهم كذلك .. ولا خلاف بيننا !!

٢- قرنا الشيطان والشمس

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا طلع حاجبُ الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز ، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب .. ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرني شيطان أو الشيطان» (١) .

حاجب الشمس : طرف قرصها الذى يبدو عند طلوع الشمس ويبقى عند الغروب ، وقرنا الشيطان : جانبها رأسه ، فإذا انتصب الشيطان فى محاذاة مطلع الشمس حتى إذا طلعت كانت بين جانبي رأسه لتقع السجدة له إذا سجد عبدة الشمس لها وكذا عند غروبها .. وهو مجرد ظن عبدة الشمس أما أن هناك شيطاناً عند مطلعها؟ .. فهو ما يحتاج إلى تفسير وتاويل .

ومن يشاهد طلوع الشمس لو شاهد الشيطان لراه منتصباً عندها .. هكذا تصوروا والصواب أن يقال إنه مجرد مثل ضربه الرسل ﷺ لبيان الاوقات التى نهى عنها الشرع أن يصلى فيها .. أو أن النهى لعدم مشابهة الكفار الذين يسجدون لها ، وهو مذكور نصاً عند مسلم «وحيثما يسجد لها الكفار» .

عبادة الشمس

ولقد عبد الناس قديماً الشمس وقدموها وتوجهوا إليها ، حدث ذلك فى حضارات مختلفة فالمصريون القدماء عبدوا قرص الشمس ، واعتبروا الفرعون ابن الشمس للمقدس .. واشتهرت عبادة آمون وتفهرت عنها العديد من الطقوس والشعائر .. والتي بقي من آثارها بعض العادات عند المصريين حتى يومنا هذا .. وكذلك كان الحال عند الآشوريين والفينيقيين .

ويبدو أن العديد من القبائل البدائية كانت تعبد الشمس لذاتها ، أو كوسيط بينهم وبين الله .. وهوما تطور فى عقائد الوثنيين القدماء ، عندما أراحوا وضع تصور

(١) الفتح ٦١ / ٣٨٦ حديث رقم ٣٧٧٢ . ومسلم فى كتاب الإيمان حديث ١٨١ واحمد فى مسنده ٤١ / ٥ ، ٢٧٢ / ١٩٠ - وقطيبى حديث ١١١٧ ، ٨٩٦ .

وتفسير لكيفية خلق العالم الميتافيزيقي ، وكيف صدر عنه خلق العالم المادي « الفيزيقي » والذي كان عبارة عن عدة دورات للفلك ، انتهت بدورة فلک القمر ، التي من خلالها خلقت الأرض .

وجاء من بعد ذلك فلاسفة اليونان ، ليضعوا تصوراً كلياً للوجود وخلق العالم ، حرصوا فيه على ربط خلق الأرض بالسماء وما فيها من كواكب ونجوم ومادة .. ومنها ما يرتبط بدورة الأرض وخلقها .. ولذلك تصور من عبد الشمس قديماً أنها ملك من الملائكة ولها نفس وعقل ، ومنها نور الكواكب وضياء العالم ، وتكون الموجودات السفلية ، وهي ملك الفلك - كما يقول الشهرستاني نقلاً عنهم - فتستحق التعظيم والسجود والتبخير والدعاء ، ويسمى هؤلاء بالدينكيئية ، واتخذوا لهم صنماً في الأرض كوسيط بينهم وبين معبودهم الشمس ، على صورة أربعة أفراس على عجل^(١) ، وبيد الصنم شعلة نار . أو تشكيل يمثلها ، يطوفون حوله بالدخان والمزاهر والمعاذف لنيل رضاه وإعلاناً منهم لطاعته .

وجعلوا له بيتاً خاص بنوه باسمه ، وأوقفوا عليه الضياع والأراضي الواسعة ، وجعلوا كذلك له السدنة والكهنة وحارماً هو الكاهن الأعظم .. وصلوا له وصاموا ، وقصده المرضى والزمنى وأصحاب العلل وتوجهوا له بالدعاء والحاجات^(٢) ١١

فقد كان يعرف القدماء التوحيد .. وعبادة الله الواحد خالق الإنسان والأكوان .. ولكنهم ضلوا في زمن الفتنة ، والتي كانت تخلق من الرسالات والهدايات السماوية .. فأرادوا باجتهاداتهم أن يتخذوا إلى الله ، تعالى ، وسطاء من خلقه يشفعون لهم . ومع تقادم الزمن قصدوا الوسطاء والشفعاء ، وغفلوا عن جوهر التوحيد .. أو أراد غيرهم تفسير علة الوجود والخلق ، فاعتقد بأنها تنتهي إلى الشمس والعقل الأول والمصدر الأول للوجود .

.. وهكذا تعددت الأسباب لعبادة الكواكب والنجوم من عهد إلى آخر ، ومن قوم إلى آخرين .. وهؤلاء ما كانوا يعبدون شيطانياً ولا يقصدونه إجلالاً وهيبة أو خوفاً وخشية .

(١) انظر ابن السديم المهرستة ص ١٤٨ .

(٢) انظر الشهرستاني الملل والنحل ٢١ / ٦٠٩ ، ٦١٠ .

جاءت عبادة الشيطان من خلال الصلة التي أنشأها شياطين الإنس بشياطين الجن، طمعاً في تسخيرهم أو الانتصار بهم على بنى جنسهم من المستضعفين : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى في بيان هذه العلاقة وكيف نشأت وأهدافها : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَإِيْرَحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) فالشراكة التي بينهم جمعتهم على الضلال والكفر والرغبة في خراب العالم ودماره ، وإغواء البشر وإهلاكهم هو مقصدهم الاسمي .. لقد رغبوا في الشر والفساد .. وأراد الله هدايتهم فابوا إلا الفسق والفجور، بما ركب فيهم من طبائع فاسدة ونفوس خبيثة غلب عليها حب الشر وكراهية الخير ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيََاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

وزادت صلة الإنسان بالشيطان في القرن العشرين فاشتعلت الحروب أكثر وشاع الدمار في العالم من خلال حربين كونيتين اهلكت أكثر من خمسين مليون إنسان ، وانقسم العالم بعدها إلى معسكرين أحدهما شرقى . تمثل فى الاتجاه الشيوعى الذى أمتته روسيا .. والآخر رأسمالى غربى تزعمته امريكا .. وبين قطبى الرحى تمزق العالم وقامت الحروب ، ولم تهدأ نيرانها فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

وسقطت الخلافة الإسلامية وتحالف العرب والمسلمون مع القطبين العالميين .. وأذنت شمس الحضارة العربية بالزوال إلى غير رجعة - لولا رحمة ربى - وتحكمت الاستراتيجيات والأيدلوجيات المختلفة بالمنطقة ، ودارت حركة الحياة فى بلادنا تبعاً للشرق أو للغرب وما زالت .

فمتى تكونت وتأسست جمعيات واندية عبادة الشيطان وأين ؟ .. تأسست فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وأول ما كان ظهورها فى امريكا وأوربا .. وأعلنت

(١) سورة الانعام آية ١١٢ .

(٢) سورة الانعام آية ١٢١ .

(٣) سورة الاحراف آية ٣٠ .

صراحة عبادتها للشيطان ، والقليل منها الذى استحى من الإعلان أو رغب فى إخفاء هدفه ، لمقاصد سياسية واجتماعية منعتة .. أو حاول التبشير بها .. وضمت هذه الجمعيات العلنية أو السرية كثيراً من كبار المفكرين والفلاسفة والعلماء والأثرياء ، من أمريكا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا .. وبدأ عصر من التحلل الخلقى سعياً وراء اللذة .

وتعود الدعوة إلى عبادة الشيطان إلى أمريكا ، حيث تأسست جمعية المتشيطون Sataniat .. وهو إعلان ضمنى لخلق عبادة الله والالتزام بالشرائع والأخلاق .. وعبادة الشيطان والهوى والغريزة ، فكان هدف هذه الجمعية إشباع الغرائز الجنسية ، وممارسة السحر الأسود وشرب المخدرات بأنواعها .. وإعلان طقوس وشعائر جديدة تناسب أفعالهم .

لقد رغبوا فى فعل شئ وأى شئ .. تحت ما يسمى بالحرية البدائية أو المطلقة .. والعودة بالإنسان إلى الحرية الأولى ، والعهد الذى لم يكن يقيد حرته شئ 1 .. وما لبث أن شاعت هذه الجمعيات ، فأنشأ (دريمانوليمى) واحدة بشارلستون .. وانتقلت من أمريكا إلى إنجلترا ، فأنشأ (السير كرولى) جمعية لعبادة الشيطان ، وأخذ يبشر بديانته الجديدة فى أنحاء أوروبا والعالم ، بمساعدة الطبقة الفنية والأثرياء ، الذين استهوتهم هذه الديانة 11

ومن إنجلترا انتقلت إلى بلجيكا على يد القس (دوركسر) .. وأخذوا فى بث دعوتهم ومذكرات أتباعهم وما صادفوه فى هذه الدولة الجديدة ، التى أنشأها إبليس على أيديهم .. وفى حفلاتهم وسهراتهم كانت تمارس الرذيلة ، بكل أشكالها ويستمعون لموعظة إبليس .. وغالى بعضهم فى الأمر فذبح آدمياً قرباناً للإله الجديد 1

فمن الجمعيات الماسونية ، حتى نوادى الروتارى والنوادرى المغلقة ، التى لا يدخلها إلا الخاصة عبد الهوى ، فهناك نادى «جهنم» بالإنجلترا أنشأه «الأهرل» الذى يضم كبار رجال المال والأعمال ، ودير «مادنهام» الذى أقامه السير فرنسيس راشوود ، وأعاد بناءه على حسب الهوى الشيطانى ، وكما تقرره اللوائح الإبليسية .. وأعضاءه جميلات العالم ، وذوى المكانة الاجتماعية والسياسية والمالية بالإنجلترا 12

وفى «جنة الشيطان» يشبع الجنس والشذوذ والتطرف .. ويمارسه النساء والرجال

على السواء .. فى جو من السكر والعريضة والمخدرات ، يتواصلون بالتمسك بعبادة الشيطان وليس الشعارات الدالة على حبه وتعظيمه ..

أما ثقافة هؤلاء العابدين فقد كانت كتب الجنس وتراتيل ومزامير شيطانية .. ومن هؤلاء المشاهير الذين قصدوا هذه النوادى الشاعر «توماس بورتر» .. ولم يخلق هذا الدبر إلا بعد أن ضج الناس من الصخب والجنون الذى لحقهم وأصابهم ، وقد تطورت هذه الاندية لتوافق الأوضاع القانونية .. فأخذت تختار وتنتقى أسماء مهذبة لها .. وتبث دعوتها عن طريق أفلام الجنس ونوادى العراة والكباريهات^(١) .

وامتدت هذه الصرعة حتى تفشت فى بعض أوساط الشباب فى مصر ، فى بداية التسعينيات من القرن العشرين ، وفوجئ الجميع بأن هذه النوادى تدعوا إلى عبادة الشيطان وممارسة الجنس وشرب المخدرات والكفر بالاديان .. وافترعت هذه الظاهرة أولياء الأمور والسلطات وعلماء الأزهر والكنيسة فى مصر .. وحاولوا السيطرة على هؤلاء الشباب .. ولكنى اعتقد أن الأمر أكبر من مجرد خطب وعظية أو نصائح أبوية ثم توجيهها لهم .. وينبغى أن تعمل الدولة والمؤسسات التعليمية على بث رسالة مناهضة إلى هذا الدمار الخفى ، الذى من شأنه هز كيان المجتمع المصرى وتقويض دعائمه عن طريق إفساد جيل الشباب الصاعد .. الذى يمثل ثلث الشعب المصرى ..

فما أصعب أن نرى شباب الإسلام وقد انحرف عن عاداته وتقاليده وترك عقائده .. واتبع حضارة الرصاص والدعارة .. وأهلك نفسه فى بحر من الجنس والمخدرات .. والذى يحدث غالباً فى نوادى وكباريهات وصالات الديسكو وشواطئ العرى ١١ .. فمصر أكبر من أن يسقط شبابها غيلة فى أيدي شياطين اليهود وإعلام الجنس عبر القنوات المشفرة .. عموماً المسألة تحتاج إلى بحث ومراجعة أخرى ، ليس هذا الكتاب مجالها .. ولن يتسع المقام لتناولها .

(١) والعجب فى الأمر أنه عادت هذه الجمعيات فنشطت مرة أخرى .. حتى أصدرت أمريكا قانوناً ترعى فيه الشواذ وحققهم فى الحياة وعمل ما يشاؤون ، وتسلب القانون إلى إنجلترا وفرنسا .. وبدأت نغمة حرية الجنس تشيع على يد جمعيات حقوق الإنسان ، وتبنتها المؤتمرات العالمية لمنظمة الأمم المتحدة ضمن وثيقة حقوق المرأة ١٠٠ وكانت أبرز الفقرات التى خطب الرئيس بيل كلينتون ودعاها فى انتخابات الرئاسة الشواذ ١١

وبعد .. عند النظر إلى حديث الرسول ﷺ ، ينبغي أن يكون لدى الناظر فيها، كل هذا الزخم من الثقافة ، ليعلم أن الأمر أكبر من مجرد أن يكون فعلاً ساذجاً أو تصور بدائياً ، لشیطان يمتلك العالم والفضاء ويسدُّ بقرينه عنان السماء !

فقد كان المعصوم ، ﷺ ، يعلم يقيناً ، ما فعله الإنسان من عبادة الشمس أو عبادة الشيطان والهوى .. وأراد أن ينزه أتباعه من الوضوع في شبهة عبادته ، أو التوجه للشمس بالعبادة كمن سبقهم ، فنهاها محذراً ومشدداً في التحذيرات أن يستقبلوها بعبادة ، هي أبرز وأجل العبادات التي جاء بها ديننا الحنيف ، وهي الصلاة؛ وليعلن مبدأ التبرؤ والمفاصلة بين من يعبد الله الواحد الأحد خالق الكون والبرايا ، وعبدة الشيطان .

* * *

٣- الشيطان وساعة الميلاد

عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه بإصبعيه حين يولد ، غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب »^(١) .

اعترض الإمام أحمد على هذا الحديث واتهم المجبرة بالافتراء على الله ورسوله ﷺ ، وعد هذا الحديث مكذوباً ؛ وهو يحمل عدة معانٍ تعارض الكتاب ؛ إنهم يمنحون إبليس قدرة خرافية على تصريف أمور الإنسان فى الأرض ، وأنه يطلع على ميلاده! .. حتى الأنبياء والمرسلين لم يسلموا من هذا الطعن الذى يزعمون .. عدا مريم وابنها عصمهما الله منه !

هل هذا حال الدليل الحقيقى الصاغر ، كما وصفه الله ، الضعيف الحيلة ؟ فلم يطعن فى خاصرة كل إنسان ، هل يُعلمه أو ليعلنه أنه لن يفلت من قبضته ؟! .. إنه كلام لا معنى له منسوب لرسول الله ﷺ ، يعلنون به أن هناك إلهان أحدهما للخير والآخر للشر كالثنوية تماماً ، وإله الخير عاجز عن مواجهة إله الشر ودفع مكائده!

من المسئول عن تصوير إبليس بهذا الشكل ؛ ثم الحديث عن أسرار وقدرات هذا المخلوق وسعة حيلته فى الاكوان ؟!

يبدو أن شياطين اليهود والمجوس كان لهم دخل فى تعظيم صورة الشيطان فى الإسلام عن طريق الدس فى الحدث ، وهذا الحديث يرويه البخارى ومسلم^(٢) ، وأحمد^(٣) ، ولم يسع أحد لنقد متنه على ضعفه ، خوفاً من أن يتهم بالإلحاد والكفر، والإلحاد والكفر الحقيقى الإيمان به وبالتوحيد الخالص فى آن واحد .

تعود هذه السخافات إلى قوم من المسلمين نسبوا الخير والشر من أفعال البشر لله رب العالمين .. وظنوا أنهم يشبتون له مطلق التوحيد والمشيئة والتصرف فى الاكوان ..

(١) البخارى ٦٠ / ٣٨٩ حديث رقم ٣٢٨٦ .

(٢) عن أبي هريرة ، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٢١ / ٩٢ .

وانظر ومسمى شرح النووى ، ج ١٥ / ١٢٠ حديث رقم ١٤٦ ، ١٤٧ ، المجلد الأسنى ، طبعة الريان ١٩٨٧ م ..

(٣) انظر مسند أحمد ، الجزء الثانى ١ ص ٢٣٣ ٢٧٤١ ٢٨٨١ ٢٩٢١ ٢٩٩١ ٣٠٨١ ٣٠٩١ ٣١٠١ ٣١١١ ٣١٢١ ٣١٣١ ٣١٤١ ٣١٥١ ٣١٦١ ٣١٧١ ٣١٨١ ٣١٩١ ٣٢٠١ ٣٢١١ ٣٢٢١ ٣٢٣١ ٣٢٤١ ٣٢٥١ ٣٢٦١ ٣٢٧١ ٣٢٨١ ٣٢٩١ ٣٣٠١ ٣٣١١ ٣٣٢١ ٣٣٣١ ٣٣٤١ ٣٣٥١ ٣٣٦١ ٣٣٧١ ٣٣٨١ ٣٣٩١ ٣٤٠١ ٣٤١١ ٣٤٢١ ٣٤٣١ ٣٤٤١ ٣٤٥١ ٣٤٦١ ٣٤٧١ ٣٤٨١ ٣٤٩١ ٣٥٠١ ٣٥١١ ٣٥٢١ ٣٥٣١ ٣٥٤١ ٣٥٥١ ٣٥٦١ ٣٥٧١ ٣٥٨١ ٣٥٩١ ٣٦٠١ ٣٦١١ ٣٦٢١ ٣٦٣١ ٣٦٤١ ٣٦٥١ ٣٦٦١ ٣٦٧١ ٣٦٨١ ٣٦٩١ ٣٧٠١ ٣٧١١ ٣٧٢١ ٣٧٣١ ٣٧٤١ ٣٧٥١ ٣٧٦١ ٣٧٧١ ٣٧٨١ ٣٧٩١ ٣٨٠١ ٣٨١١ ٣٨٢١ ٣٨٣١ ٣٨٤١ ٣٨٥١ ٣٨٦١ ٣٨٧١ ٣٨٨١ ٣٨٩١ ٣٩٠١ ٣٩١١ ٣٩٢١ ٣٩٣١ ٣٩٤١ ٣٩٥١ ٣٩٦١ ٣٩٧١ ٣٩٨١ ٣٩٩١ ٤٠٠١ ٤٠١١ ٤٠٢١ ٤٠٣١ ٤٠٤١ ٤٠٥١ ٤٠٦١ ٤٠٧١ ٤٠٨١ ٤٠٩١ ٤١٠١ ٤١١١ ٤١٢١ ٤١٣١ ٤١٤١ ٤١٥١ ٤١٦١ ٤١٧١ ٤١٨١ ٤١٩١ ٤٢٠١ ٤٢١١ ٤٢٢١ ٤٢٣١ ٤٢٤١ ٤٢٥١ ٤٢٦١ ٤٢٧١ ٤٢٨١ ٤٢٩١ ٤٣٠١ ٤٣١١ ٤٣٢١ ٤٣٣١ ٤٣٤١ ٤٣٥١ ٤٣٦١ ٤٣٧١ ٤٣٨١ ٤٣٩١ ٤٤٠١ ٤٤١١ ٤٤٢١ ٤٤٣١ ٤٤٤١ ٤٤٥١ ٤٤٦١ ٤٤٧١ ٤٤٨١ ٤٤٩١ ٤٥٠١ ٤٥١١ ٤٥٢١ ٤٥٣١ ٤٥٤١ ٤٥٥١ ٤٥٦١ ٤٥٧١ ٤٥٨١ ٤٥٩١ ٤٦٠١ ٤٦١١ ٤٦٢١ ٤٦٣١ ٤٦٤١ ٤٦٥١ ٤٦٦١ ٤٦٧١ ٤٦٨١ ٤٦٩١ ٤٧٠١ ٤٧١١ ٤٧٢١ ٤٧٣١ ٤٧٤١ ٤٧٥١ ٤٧٦١ ٤٧٧١ ٤٧٨١ ٤٧٩١ ٤٨٠١ ٤٨١١ ٤٨٢١ ٤٨٣١ ٤٨٤١ ٤٨٥١ ٤٨٦١ ٤٨٧١ ٤٨٨١ ٤٨٩١ ٤٩٠١ ٤٩١١ ٤٩٢١ ٤٩٣١ ٤٩٤١ ٤٩٥١ ٤٩٦١ ٤٩٧١ ٤٩٨١ ٤٩٩١ ٥٠٠١ ٥٠١١ ٥٠٢١ ٥٠٣١ ٥٠٤١ ٥٠٥١ ٥٠٦١ ٥٠٧١ ٥٠٨١ ٥٠٩١ ٥١٠١ ٥١١١ ٥١٢١ ٥١٣١ ٥١٤١ ٥١٥١ ٥١٦١ ٥١٧١ ٥١٨١ ٥١٩١ ٥٢٠١ ٥٢١١ ٥٢٢١ ٥٢٣١ ٥٢٤١ ٥٢٥١ ٥٢٦١ ٥٢٧١ ٥٢٨١ ٥٢٩١ ٥٣٠١ ٥٣١١ ٥٣٢١ ٥٣٣١ ٥٣٤١ ٥٣٥١ ٥٣٦١ ٥٣٧١ ٥٣٨١ ٥٣٩١ ٥٤٠١ ٥٤١١ ٥٤٢١ ٥٤٣١ ٥٤٤١ ٥٤٥١ ٥٤٦١ ٥٤٧١ ٥٤٨١ ٥٤٩١ ٥٥٠١ ٥٥١١ ٥٥٢١ ٥٥٣١ ٥٥٤١ ٥٥٥١ ٥٥٦١ ٥٥٧١ ٥٥٨١ ٥٥٩١ ٥٦٠١ ٥٦١١ ٥٦٢١ ٥٦٣١ ٥٦٤١ ٥٦٥١ ٥٦٦١ ٥٦٧١ ٥٦٨١ ٥٦٩١ ٥٧٠١ ٥٧١١ ٥٧٢١ ٥٧٣١ ٥٧٤١ ٥٧٥١ ٥٧٦١ ٥٧٧١ ٥٧٨١ ٥٧٩١ ٥٨٠١ ٥٨١١ ٥٨٢١ ٥٨٣١ ٥٨٤١ ٥٨٥١ ٥٨٦١ ٥٨٧١ ٥٨٨١ ٥٨٩١ ٥٩٠١ ٥٩١١ ٥٩٢١ ٥٩٣١ ٥٩٤١ ٥٩٥١ ٥٩٦١ ٥٩٧١ ٥٩٨١ ٥٩٩١ ٦٠٠١ ٦٠١١ ٦٠٢١ ٦٠٣١ ٦٠٤١ ٦٠٥١ ٦٠٦١ ٦٠٧١ ٦٠٨١ ٦٠٩١ ٦١٠١ ٦١١١ ٦١٢١ ٦١٣١ ٦١٤١ ٦١٥١ ٦١٦١ ٦١٧١ ٦١٨١ ٦١٩١ ٦٢٠١ ٦٢١١ ٦٢٢١ ٦٢٣١ ٦٢٤١ ٦٢٥١ ٦٢٦١ ٦٢٧١ ٦٢٨١ ٦٢٩١ ٦٣٠١ ٦٣١١ ٦٣٢١ ٦٣٣١ ٦٣٤١ ٦٣٥١ ٦٣٦١ ٦٣٧١ ٦٣٨١ ٦٣٩١ ٦٤٠١ ٦٤١١ ٦٤٢١ ٦٤٣١ ٦٤٤١ ٦٤٥١ ٦٤٦١ ٦٤٧١ ٦٤٨١ ٦٤٩١ ٦٥٠١ ٦٥١١ ٦٥٢١ ٦٥٣١ ٦٥٤١ ٦٥٥١ ٦٥٦١ ٦٥٧١ ٦٥٨١ ٦٥٩١ ٦٦٠١ ٦٦١١ ٦٦٢١ ٦٦٣١ ٦٦٤١ ٦٦٥١ ٦٦٦١ ٦٦٧١ ٦٦٨١ ٦٦٩١ ٦٧٠١ ٦٧١١ ٦٧٢١ ٦٧٣١ ٦٧٤١ ٦٧٥١ ٦٧٦١ ٦٧٧١ ٦٧٨١ ٦٧٩١ ٦٨٠١ ٦٨١١ ٦٨٢١ ٦٨٣١ ٦٨٤١ ٦٨٥١ ٦٨٦١ ٦٨٧١ ٦٨٨١ ٦٨٩١ ٦٩٠١ ٦٩١١ ٦٩٢١ ٦٩٣١ ٦٩٤١ ٦٩٥١ ٦٩٦١ ٦٩٧١ ٦٩٨١ ٦٩٩١ ٧٠٠١ ٧٠١١ ٧٠٢١ ٧٠٣١ ٧٠٤١ ٧٠٥١ ٧٠٦١ ٧٠٧١ ٧٠٨١ ٧٠٩١ ٧١٠١ ٧١١١ ٧١٢١ ٧١٣١ ٧١٤١ ٧١٥١ ٧١٦١ ٧١٧١ ٧١٨١ ٧١٩١ ٧٢٠١ ٧٢١١ ٧٢٢١ ٧٢٣١ ٧٢٤١ ٧٢٥١ ٧٢٦١ ٧٢٧١ ٧٢٨١ ٧٢٩١ ٧٣٠١ ٧٣١١ ٧٣٢١ ٧٣٣١ ٧٣٤١ ٧٣٥١ ٧٣٦١ ٧٣٧١ ٧٣٨١ ٧٣٩١ ٧٤٠١ ٧٤١١ ٧٤٢١ ٧٤٣١ ٧٤٤١ ٧٤٥١ ٧٤٦١ ٧٤٧١ ٧٤٨١ ٧٤٩١ ٧٥٠١ ٧٥١١ ٧٥٢١ ٧٥٣١ ٧٥٤١ ٧٥٥١ ٧٥٦١ ٧٥٧١ ٧٥٨١ ٧٥٩١ ٧٦٠١ ٧٦١١ ٧٦٢١ ٧٦٣١ ٧٦٤١ ٧٦٥١ ٧٦٦١ ٧٦٧١ ٧٦٨١ ٧٦٩١ ٧٧٠١ ٧٧١١ ٧٧٢١ ٧٧٣١ ٧٧٤١ ٧٧٥١ ٧٧٦١ ٧٧٧١ ٧٧٨١ ٧٧٩١ ٧٨٠١ ٧٨١١ ٧٨٢١ ٧٨٣١ ٧٨٤١ ٧٨٥١ ٧٨٦١ ٧٨٧١ ٧٨٨١ ٧٨٩١ ٧٩٠١ ٧٩١١ ٧٩٢١ ٧٩٣١ ٧٩٤١ ٧٩٥١ ٧٩٦١ ٧٩٧١ ٧٩٨١ ٧٩٩١ ٨٠٠١ ٨٠١١ ٨٠٢١ ٨٠٣١ ٨٠٤١ ٨٠٥١ ٨٠٦١ ٨٠٧١ ٨٠٨١ ٨٠٩١ ٨١٠١ ٨١١١ ٨١٢١ ٨١٣١ ٨١٤١ ٨١٥١ ٨١٦١ ٨١٧١ ٨١٨١ ٨١٩١ ٨٢٠١ ٨٢١١ ٨٢٢١ ٨٢٣١ ٨٢٤١ ٨٢٥١ ٨٢٦١ ٨٢٧١ ٨٢٨١ ٨٢٩١ ٨٣٠١ ٨٣١١ ٨٣٢١ ٨٣٣١ ٨٣٤١ ٨٣٥١ ٨٣٦١ ٨٣٧١ ٨٣٨١ ٨٣٩١ ٨٤٠١ ٨٤١١ ٨٤٢١ ٨٤٣١ ٨٤٤١ ٨٤٥١ ٨٤٦١ ٨٤٧١ ٨٤٨١ ٨٤٩١ ٨٥٠١ ٨٥١١ ٨٥٢١ ٨٥٣١ ٨٥٤١ ٨٥٥١ ٨٥٦١ ٨٥٧١ ٨٥٨١ ٨٥٩١ ٨٦٠١ ٨٦١١ ٨٦٢١ ٨٦٣١ ٨٦٤١ ٨٦٥١ ٨٦٦١ ٨٦٧١ ٨٦٨١ ٨٦٩١ ٨٧٠١ ٨٧١١ ٨٧٢١ ٨٧٣١ ٨٧٤١ ٨٧٥١ ٨٧٦١ ٨٧٧١ ٨٧٨١ ٨٧٩١ ٨٨٠١ ٨٨١١ ٨٨٢١ ٨٨٣١ ٨٨٤١ ٨٨٥١ ٨٨٦١ ٨٨٧١ ٨٨٨١ ٨٨٩١ ٨٩٠١ ٨٩١١ ٨٩٢١ ٨٩٣١ ٨٩٤١ ٨٩٥١ ٨٩٦١ ٨٩٧١ ٨٩٨١ ٨٩٩١ ٩٠٠١ ٩٠١١ ٩٠٢١ ٩٠٣١ ٩٠٤١ ٩٠٥١ ٩٠٦١ ٩٠٧١ ٩٠٨١ ٩٠٩١ ٩١٠١ ٩١١١ ٩١٢١ ٩١٣١ ٩١٤١ ٩١٥١ ٩١٦١ ٩١٧١ ٩١٨١ ٩١٩١ ٩٢٠١ ٩٢١١ ٩٢٢١ ٩٢٣١ ٩٢٤١ ٩٢٥١ ٩٢٦١ ٩٢٧١ ٩٢٨١ ٩٢٩١ ٩٣٠١ ٩٣١١ ٩٣٢١ ٩٣٣١ ٩٣٤١ ٩٣٥١ ٩٣٦١ ٩٣٧١ ٩٣٨١ ٩٣٩١ ٩٤٠١ ٩٤١١ ٩٤٢١ ٩٤٣١ ٩٤٤١ ٩٤٥١ ٩٤٦١ ٩٤٧١ ٩٤٨١ ٩٤٩١ ٩٥٠١ ٩٥١١ ٩٥٢١ ٩٥٣١ ٩٥٤١ ٩٥٥١ ٩٥٦١ ٩٥٧١ ٩٥٨١ ٩٥٩١ ٩٦٠١ ٩٦١١ ٩٦٢١ ٩٦٣١ ٩٦٤١ ٩٦٥١ ٩٦٦١ ٩٦٧١ ٩٦٨١ ٩٦٩١ ٩٧٠١ ٩٧١١ ٩٧٢١ ٩٧٣١ ٩٧٤١ ٩٧٥١ ٩٧٦١ ٩٧٧١ ٩٧٨١ ٩٧٩١ ٩٨٠١ ٩٨١١ ٩٨٢١ ٩٨٣١ ٩٨٤١ ٩٨٥١ ٩٨٦١ ٩٨٧١ ٩٨٨١ ٩٨٩١ ٩٩٠١ ٩٩١١ ٩٩٢١ ٩٩٣١ ٩٩٤١ ٩٩٥١ ٩٩٦١ ٩٩٧١ ٩٩٨١ ٩٩٩١ ١٠٠٠١ ١٠٠١١ ١٠٠٢١ ١٠٠٣١ ١٠٠٤١ ١٠٠٥١ ١٠٠٦١ ١٠٠٧١ ١٠٠٨١ ١٠٠٩١ ١٠١٠١ ١٠١١١ ١٠١٢١ ١٠١٣١ ١٠١٤١ ١٠١٥١ ١٠١٦١ ١٠١٧١ ١٠١٨١ ١٠١٩١ ١٠٢٠١ ١٠٢١١ ١٠٢٢١ ١٠٢٣١ ١٠٢٤١ ١٠٢٥١ ١٠٢٦١ ١٠٢٧١ ١٠٢٨١ ١٠٢٩١ ١٠٣٠١ ١٠٣١١ ١٠٣٢١ ١٠٣٣١ ١٠٣٤١ ١٠٣٥١ ١٠٣٦١ ١٠٣٧١ ١٠٣٨١ ١٠٣٩١ ١٠٤٠١ ١٠٤١١ ١٠٤٢١ ١٠٤٣١ ١٠٤٤١ ١٠٤٥١ ١٠٤٦١ ١٠٤٧١ ١٠٤٨١ ١٠٤٩١ ١٠٥٠١ ١٠٥١١ ١٠٥٢١ ١٠٥٣١ ١٠٥٤١ ١٠٥٥١ ١٠٥٦١ ١٠٥٧١ ١٠٥٨١ ١٠٥٩١ ١٠٦٠١ ١٠٦١١ ١٠٦٢١ ١٠٦٣١ ١٠٦٤١ ١٠٦٥١ ١٠٦٦١ ١٠٦٧١ ١٠٦٨١ ١٠٦٩١ ١٠٧٠١ ١٠٧١١ ١٠٧٢١ ١٠٧٣١ ١٠٧٤١ ١٠٧٥١ ١٠٧٦١ ١٠٧٧١ ١٠٧٨١ ١٠٧٩١ ١٠٨٠١ ١٠٨١١ ١٠٨٢١ ١٠٨٣١ ١٠٨٤١ ١٠٨٥١ ١٠٨٦١ ١٠٨٧١ ١٠٨٨١ ١٠٨٩١ ١٠٩٠١ ١٠٩١١ ١٠٩٢١ ١٠٩٣١ ١٠٩٤١ ١٠٩٥١ ١٠٩٦١ ١٠٩٧١ ١٠٩٨١ ١٠٩٩١ ١١٠٠١ ١١٠١١ ١١٠٢١ ١١٠٣١ ١١٠٤١ ١١٠٥١ ١١٠٦١ ١١٠٧١ ١١٠٨١ ١١٠٩١ ١١١٠١ ١١١١١ ١١١٢١ ١١١٣١ ١١١٤١ ١١١٥١ ١١١٦١ ١١١٧١ ١١١٨١ ١١١٩١ ١١٢٠١ ١١٢١١ ١١٢٢١ ١١٢٣١ ١١٢٤١ ١١٢٥١ ١١٢٦١ ١١٢٧١ ١١٢٨١ ١١٢٩١ ١١٣٠١ ١١٣١١ ١١٣٢١ ١١٣٣١ ١١٣٤١ ١١٣٥١ ١١٣٦١ ١١٣٧١ ١١٣٨١ ١١٣٩١ ١١٤٠١ ١١٤١١ ١١٤٢١ ١١٤٣١ ١١٤٤١ ١١٤٥١ ١١٤٦١ ١١٤٧١ ١١٤٨١ ١١٤٩١ ١١٥٠١ ١١٥١١ ١١٥٢١ ١١٥٣١ ١١٥٤١ ١١٥٥١ ١١٥٦١ ١١٥٧١ ١١٥٨١ ١١٥٩١ ١١٦٠١ ١١٦١١ ١١٦٢١ ١١٦٣١ ١١٦٤١ ١١٦٥١ ١١٦٦١ ١١٦٧١ ١١٦٨١ ١١٦٩١ ١١٧٠١ ١١٧١١ ١١٧٢١ ١١٧٣١ ١١٧٤١ ١١٧٥١ ١١٧٦١ ١١٧٧١ ١١٧٨١ ١١٧٩١ ١١٨٠١ ١١٨١١ ١١٨٢١ ١١٨٣١ ١١٨٤١ ١١٨٥١ ١١٨٦١ ١١٨٧١ ١١٨٨١ ١١٨٩١ ١١٩٠١ ١١٩١١ ١١٩٢١ ١١٩٣١ ١١٩٤١ ١١٩٥١ ١١٩٦١ ١١٩٧١ ١١٩٨١ ١١٩٩١ ١٢٠٠١ ١٢٠١١ ١٢٠٢١ ١٢٠٣١ ١٢٠٤١ ١٢٠٥١ ١٢٠٦١ ١٢٠٧١ ١٢٠٨١ ١٢٠٩١ ١٢١٠١ ١٢١١١ ١٢١٢١ ١٢١٣١ ١٢١٤١ ١٢١٥١ ١٢١٦١ ١٢١٧١ ١٢١٨١ ١٢١٩١ ١٢٢٠١ ١٢٢١١ ١٢٢٢١ ١٢٢٣١ ١٢٢٤١ ١٢٢٥١ ١٢٢٦١ ١٢٢٧١ ١٢٢٨١ ١٢٢٩١ ١٢٣٠١ ١٢٣١١ ١٢٣٢١ ١٢٣٣١ ١٢٣٤١ ١٢٣٥١ ١٢٣٦١ ١٢٣٧١ ١٢٣٨١ ١٢٣٩١ ١٢٤٠١ ١٢٤١١ ١٢٤٢١ ١٢٤٣١ ١٢٤٤١ ١٢٤٥١ ١٢٤٦١ ١٢٤٧١ ١٢٤٨١ ١٢٤٩١ ١٢٥٠١ ١٢٥١١ ١٢٥٢١ ١٢٥٣١ ١٢٥٤١ ١٢٥٥١ ١٢٥٦١ ١٢٥٧١ ١٢٥٨١ ١٢٥٩١ ١٢٦٠١ ١٢٦١١ ١٢٦٢١ ١٢٦٣١ ١٢٦٤١ ١٢٦٥١ ١٢٦٦١ ١٢٦٧١ ١٢٦٨١ ١٢٦٩١ ١٢٧٠١ ١٢٧١١ ١٢٧٢١ ١٢٧٣١ ١٢٧٤١ ١٢٧٥١ ١٢٧٦١ ١٢٧٧١ ١٢٧٨١ ١٢٧٩١ ١٢٨٠١ ١٢٨١١ ١٢٨٢١ ١٢٨٣١ ١٢٨٤١ ١٢٨٥١ ١٢٨٦١ ١٢٨٧١ ١٢٨٨١ ١٢٨٩١ ١٢٩٠١ ١٢٩١١ ١٢٩٢١ ١٢٩٣١ ١٢٩٤١ ١٢٩٥١ ١٢٩٦١ ١٢٩٧١ ١٢٩٨١ ١٢٩٩١ ١٣٠٠١ ١٣٠١١ ١٣٠٢١ ١٣٠٣١ ١٣٠٤١ ١٣٠٥١ ١٣٠٦١ ١٣٠٧١ ١٣٠٨١ ١٣٠٩١ ١٣١٠١ ١٣١١١ ١٣١٢١ ١٣١٣١ ١٣١٤١ ١٣١٥١ ١٣١٦١ ١٣١٧١ ١٣١٨١ ١٣١٩١ ١٣٢٠١ ١٣٢١١ ١٣٢٢١ ١٣٢٣١ ١٣٢٤١ ١٣٢٥١ ١٣٢٦١ ١٣٢٧١ ١٣٢٨١ ١٣٢٩١ ١٣٣٠١ ١٣٣١١ ١٣٣٢١ ١٣٣٣١ ١٣٣٤١ ١٣٣٥١ ١٣٣٦١ ١٣٣٧١ ١٣٣٨١ ١٣٣٩١ ١٣٤٠١ ١٣٤١١ ١٣٤٢١ ١٣٤٣١ ١٣٤٤١ ١٣٤٥١ ١٣٤٦١ ١٣٤٧١ ١٣٤٨١ ١٣٤٩١ ١٣٥٠١ ١٣٥١١ ١٣٥٢١ ١٣٥٣١ ١٣٥٤١ ١٣٥٥١ ١٣٥٦١ ١٣٥٧١ ١٣٥٨١ ١٣٥٩١ ١٣٦٠١ ١٣٦١١ ١٣٦٢١ ١٣٦٣١ ١٣٦٤١ ١٣٦٥١ ١٣٦٦١ ١٣٦٧١ ١٣٦٨١ ١٣٦٩١ ١٣٧٠١ ١٣٧١١ ١٣٧٢١ ١٣٧٣١ ١٣٧٤١ ١٣٧٥١ ١٣٧٦١ ١٣٧٧١ ١٣٧٨١ ١٣٧٩١ ١٣٨٠١ ١٣٨١١ ١٣٨٢١ ١٣٨٣١ ١٣٨٤١ ١٣٨٥١ ١٣٨٦١ ١٣٨٧١ ١٣٨٨١ ١٣٨٩١ ١٣٩٠١ ١٣٩١١ ١٣٩٢١ ١٣٩٣١ ١٣٩٤١ ١٣٩٥١ ١٣٩٦١ ١٣٩٧١ ١٣٩٨١ ١٣٩٩١ ١٤٠٠١ ١٤٠١١ ١٤٠٢١ ١٤٠٣١ ١٤٠٤١ ١٤٠٥١ ١٤٠٦١ ١٤٠٧١ ١٤٠٨١ ١٤٠٩١ ١٤١٠١ ١٤١١١ ١٤١٢١ ١٤١٣١ ١٤١٤١ ١٤١٥١ ١٤١٦١ ١٤١٧١ ١٤١٨١ ١٤١٩١ ١٤٢٠١ ١٤٢١١ ١٤٢٢١ ١٤٢٣١ ١٤٢٤١ ١٤٢٥١ ١٤٢٦١ ١٤٢٧١ ١٤٢٨١ ١٤٢٩١ ١٤٣٠١ ١٤٣١١ ١٤٣٢١ ١٤٣٣١ ١٤٣٤١ ١٤٣٥١ ١٤٣٦١ ١٤٣٧١ ١٤٣٨١ ١٤٣٩١ ١٤٤٠١ ١٤٤١١ ١٤٤٢١ ١٤٤٣١ ١٤٤٤١ ١٤٤٥١ ١٤٤٦١ ١٤٤٧١ ١٤٤٨١ ١٤٤٩١ ١٤٥٠١ ١٤٥١١ ١٤٥٢١ ١٤٥٣١ ١٤٥٤١ ١٤٥٥١ ١٤٥٦١ ١٤٥٧١ ١٤٥٨١ ١٤٥٩١ ١٤٦٠١ ١٤٦١١ ١٤٦٢١ ١٤٦٣١ ١٤٦٤١ ١٤٦٥١ ١٤٦٦١ ١٤٦٧١ ١٤٦٨١ ١

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(١) .. فما معنى أنه خالق كل شئ .. فإذا هو خالق الخير والشر من أفعال الإنسان .. وكأنهم لم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً ﴾ ^(٢) ؛ أو أن الإنسان ينقض التوحيد لو كان فعله منه وحده !

وبسبب مقالتهم هذه ذهبوا يؤولون كل نص ، ويكفرون من يسفه قولهم ويتمونه بالجهل وتلاعب الشيطان به !

وطالما أن الله قد خلق الشر من أفعال خلقه ، فقد خلق إبليس وأراد منه فعل الشرأ وهم الجهلاء لو علموا وفقهوا .. لقد اسقطوا معقولية التشريع والتكليف وما يترتب عليه من جزاء وحساب .. كما أنهم ألدوا في التوحيد حيث رفعوا إبليس وجنوده لمقامات الألوهية .. وزادوا على ذلك فاعذروا إبليس بكفره .. وأعذروا كل كافر وفاسق ، ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين أوامر الله الكونية وأوامره الشرعية .. ولم يفرقوا بين الخلق والأمر .. وأن الإرادة الإلهية في الخلق لا ترد ولا تدفع .. وأنها في الأمر تعطى المأمور حرية أن يفعل أو لا يفعل ، وحرية أن يكفر أو يؤمن ، وحرية أن يطيع أو يعصى .. إلخ .

وهذه الحرية .. وهذه الاستطاعة الممنوحة للإنسان ، لتكتمل في حقه أركان التكليف وشروطه .. ولا يصير له حجة على ربه .. وهو أساس الاختبار والابتلاء الذي اختبر وابتلى الله به الإنس والجن ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ^(٣) .

هي من صميم خلق الله .. بإرادته الكونية التي تقول للشئ : ﴿ كُنْ — فَيَكُونُ ﴾ ^(٤) .. فقال للإنسان : كن حراً في فعلك مختاراً ، ولن نجبرك على اختيار ما لا تريد .. ثم كان منه — لحبه أن يهتدى عبده إلى عبادته واختيار طاعته — أن أرسل له رسله بهدائياته ، وتواترت الرسائل واللطاف الله ، تعالى ، بعباده لم تنقطع ،

(١) سورة الأنعام آية ١٠٢ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١٧ .

(٣) سورة الملك آية ٢ .

(٤) سورة يس آية ٨٢ .

حتى أكرم خلقه بسيد البشر وخيرهم سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١) رحمة كان النبي ﷺ . ورسالته هي رسالة الرحمة . . فكيف ينتهم رب الرحمة «الرحمن الرحيم» . بإضلال عباده وخذلانهم ؟
تعالى الله رب العالمين عن مقالة المكذبين .

* * *

٤- القرين !

روى مسلم بسنده عن عائشة ، رضى الله عنها ؛ « أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع . فقال : مالك يا عائشة أغرت ..؟ . . . فقلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك !.. فقال : رسول الله ﷺ : أقد جاءك شيطانك ..؟ قالت : يا رسول الله أو معى شيطان ..؟ قال : نعم . قلت : ومع كل إنسان ..؟ قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي أعانى عليه حتى أسلم ،^(١) .

اختلف العلماء حول فتح وضم كلمة « أسلم » على روايتين مشهورتين ، فعلى الرفع معناه أسلم أنا من شره وفتنته ، وعلى الفتح معناه ان القرين أسلم وصار مؤمناً لا يأمرنى إلا بخير ..

قال القاضى عياض : واعلم ان الامة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه . وفى هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنته ووسوسته ، فأعلمنا بأنه معنا ؛ لنحترز منه بحسب إلا مكان^(٢) .

ولقد علقنا على ما جاء فى كلام القاضى أكثر من مرة ، فليراجع .. وعلى المسلم أن يكون فطن ، فمثل هذا الاثر لا يأخذ على ظاهره ؛ ولكنه باوّل فى ضوء ما عرف من أصول الدين وقواعد اللغة وصرفها ومعانيها . فيحتمل أن يكون هذا القرين هو الهوى والشهوات أو أنه من شياطين الإنس .

والمسألة أبعد من هذا الحديث فى الفكر الجبرى .. فهم يعتقدون ان الله زين للعصاة المعصية بالإرادة والامر معاً ..

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ وَقِضْنَا لَهُمْ قَرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾^(٤) ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(٥) .. ورأى المجبرة

(١) مسلم النووى : شرح صحيح مسلم ١٧١ / ١٥٧ - ١٥٨ . الحديث رقم ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ - واحد ٦ / ١١٥ .

(٢) شرح مسلم ، ١٧ / ١٥٧ ، وانظر الإيجى : المواقف ١ ص ٣٥٨ .

(٤) سورة النمل آية ٤ .

(٥) سورة فصلت آية ٢٥

(٣) سورة الانعام آية ١٠٨

أن الله زين أمراً وإرادة للعصاة والكفار فيما يفعلون .. وهذا لعماهم وجهلهم الذين ورثوه .. ولو علموا أن هذا ينقض التوحيد والعدل .. لعدلوا عما قالوا .. وإليك بيان ذلك ..

فكيف زين الله وحسن للعصاة والكفار ما يصنعون .. وأراد منهم إقامتهم فيها ومشايرتهم عليها ، جل وتقدس عن ذلك ؟ .. بل أمرهم بالإيمان والعدل والإحسان وفعل الخير وترك الشر .. ويستدلون ، كذلك بقوله ، تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ (١) فصدق الله ، جل جلاله ، وكذبوا .

ولو لاحظنا أسباب النزول لانتضح لنا الأمر برمته .. فهذه الآية نزلت في أبي جهل ابن هشام المخزومي - فرعون هذه الأمة - لعنه الله ، وذلك أنه لقي أبا طالب ، عم رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويقع في آباطنا ، واللات والعزى لعن لم يكف عن شتمه آلهتنا لنشتمن إليه . فانزل الله في ذلك ما ذكر في أول هذه الآية : تاديباً للمؤمنين ، فأمرهم بالكف عن شتم أصنام المشركين ، لكيلا يجترئوا بغير علم على شتم رب العالمين (٢) .

وأما التزيين والتقييض الذي جاء في الآيات فهو الإمهال وترك المعافاة لهم بقطع الآجال ، وما كان في ذلك منه لاهل الجهل من التبري منهم والجدل منه ، فسيحانه ، لمن عشا عن ذكر ربه منهم ، فلما أن أمهلوا وعلى ما هم عليه من الشرك والكفر تركوا وبالعقوبات لم يعاجلوا ، وأملئ لهم ليرجعوا فتمادوا ولم ينيبوا وراوا من إمهال الله وتأخيرهم لهم ، وصرف ما عاجل به غيرهم من القرون الماضية والامم الخالية ، من ثمود وعاد وفرعون ذى الأوتاد وقوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرس والأيكة وقوم ثبّع والمؤتفة ، وغير ذلك من القرون المهلكة (٣) .

فزادهم تأخير ذلك عنهم اجتراء وتكذيباً ومجانة وافتراء وترتيباً ، لصرف ذلك

(١) سورة الأنعام آية ١٠٨ .

(٢) انظر أبا الحسن النيسابورى : أسباب النزول ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .. بهامش مختصر تفسير الطبرى ، طبعة دار العدد العربى . القاهرة

(٣) قارن الرمخشى : الكشف ، ٥٦/٢ .

عنهم ما هم عليه من أعمالهم وفاحش قولهم وأفعالهم ، فكان إساءة الله وتركهم ليرجعوا ، أو لتثبت الحجة عليهم وتنقطع المذرة إليهم ، هو الذى أطمعهم وزين عملهم فجاز أن يقول : ﴿ زَيْنَا لَهُمْ ﴾ ^(١) ، إذ قد تفضلنا وأمهلنا وأحسننا فى الثانى بكم ورحمنا .

وكذلك تقول العرب لعبيدها ، يقول الرجل لمملوكه ، إذا تركه من العقوبة على ذنب من بعد ذنب ، وتأنى به وعفا عنه وصفح ، ليرجع ويصلح فتماذى فى العصيان ولم يشكر من سيده الإحسان ، فيقول له سيده : أنا زينتك وأطمعتك فيما أنت فيه إذ تركتك ، وتأنيت بك ولم آخذك ولم أعاجلك .. فهذا على مجاز الكلام المعروف عند أهل الفصاحة والتمام ^(٢) .

وأما تفسير الآية الثانية فهو كالسابقة فالله ، تعالى ، أوجد القرناء وخلقهم ، ولم يجمع بينهم وبين من أطاعهم ، ولم يأمرهم بطاعتهم ولا اتباعهم ، بل خصهم على مخالفتهم ، وأخبر بعداوتهم ، ونهاهم عن اتباع الهوى ^(٣) ، فقال : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِّثْنٍ ﴾ ^(٥) هَمَزُ مِثْنٍ بِمِيمٍ ^(٦) مَنَاعٌ لِلْغَيْرِ مُعْتَدٍ أَلِيمٍ ^(٧) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ^(٨) ^(٩) .

وقال ، تعالى ، فيمن يأمر ويوسوس بالسوء من الشياطين : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ^(١٠) ، فبين ما افترض وأمر به ، فلم يترك لذى علة قبله متعلقاً ^(١١) ، فكان تقيضه لهم ما ذكر من القرناء هو تخليته لهم وتبرئته منهم ، وترك الدفع لنوازل الاسواء عنهم ، وذلك فيما تقدم عنهم من الكفر بربهم والشرك بخالقهم ^(١٢) .

وبعد .. لعلنا قد وفيينا مفهوم التزيين الذى يفعله القرين .. وهل هو موجود أم لا .. وما علاقته وصلته بالإنسان على وجه الحقيقة .. وما الدور الذى أراده الله للإنسان .. وهل تعوقه هذه العلاقة أم لا ؟

ولننظر كيف أفاد التفسير البيانى للقرآن الكريم ، فى توضيح المقصود من التزيين

(٢) قارن الزمخشري : الكشاف ٣٤٨/٣٤ .

(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٦) سورة فاطر آية ٦ .

(١) سورة النمل آية ٤ .

(٣) قارن بالزمخشري : السابق ١٩٦/٤١ ، ١٩٧ .

(٥) سورة القلم الآيات ١٠ - ١٣ .

(٧) قارن ، الكشاف ٥٩٩/٣٤ .

(٨) انظر الهادى : الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية ٢١ / ٢٠٥ - ٢٠٧ .

الذى قصده الله عز وجل فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتُهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَكْمَهُونَ ﴾ (١) .

فقد أسند ، تعالى ، تزيين أعمالهم إلى ذاته فى هذه الآية ، وأسند للشیطان فى آية أخرى حيث قال : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٢) .

فكيف يلتقى النصان ويتوافقان ، واحدهما ينسب الفعل لله .. والآخر ينسبه للشیطان .. وكلاهما يحقق الغرض من تسلط الشيطان على الإنسان ؟

ويلحق بالنص الأخير الذى ذكرناه هذه النصوص التالية :-

١- ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

٢- ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٤) .

٣- ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٥) .

٤- ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٦) .

إن بين الإسنادين فرق ، وذلك أن إسناده إلى الشيطان حفيظة ، وإسناده إلى الله ، عز وجل ، مجاز . وله طريقان فى علم البيان :-

أحدهما : أن يكون من المجاز الذى يسمى الاستعارة .

والثانى : أن يكون من المجاز الحكيم .

وتفسير الأول هو أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق ، وجعلوا إناعم الله ، تعالى ، بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطهرهم وإيثارهم الروح والترف ، وبغارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكانه رين لهم بذلك أعمالهم

وإليه أشارت الملائكة ، صلوات الله عليهم ، فى قولهم : ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ (٧) .

(١) سورة النمل آية ٤

(٢) سورة الأنعام آية ٤٣

(٣) سورة النمل آية ٦٣

(٤) سورة الفرقاد آية ١٨

(٥) سورة النمل آية ٢٤

(٦) سورة الأنفال آية ٤٨

(٧) سورة العنكبوت آية ٣٨

والطريق الثانى : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يُزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين، فاسند إليه ؛ لأن انماز الحكمى يصححه بعض الملابسات .

وقيل : هى أعمال الخير التى وجب عليهم أن يعملوها؛ زينها لهم الله فعملوها عنها وضلوا ، ويعزى إلى الحسن ^(١) .

أما القراء فهى تعنى الأخدان عند الزمخشري .. ويجب على التساؤل التالى : كيف جاز أن يقيض - أى الله تعالى - لهم القراء من الشياطين ، وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم ؟ .. وأجاب عليه على النحو التالى : معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قراء سوى الشياطين .

وهذه الإجابة تتماثل مع ما ذكرنا من حديث الهادى إلى الحق من قبل .. إلا أنه يروق لى أن أذكر طرفاً من تعليق أحد الأشاعرة على الزمخشري ، وأترك الحكم للقارئ لعله يفهم نوعية الفكر الذى كان يحكم هذا الاتجاه ، يقول معلقاً عليه : هذا على مذهب المعتزلة أنه ، تعالى ، لا يقدر الشر . أما على مذهب أهل السنة أنه ، تعالى ، يقدره كالخير ، فلا داعى إلى هذا التكلف . قال ، تعالى : ﴿لَمْ تَرَأْنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ أَوْ يَنْصُرُهُمْ﴾ ^(٢) .. إلخ .

ويقول أيضاً .. على مذهب أهل السنة : «إن الأمر على ظاهره ، فإن قاعدة عقيدتهم أن الله ، تعالى ، قد ينهى عما يريد وقوعه ، ويأمر بما لا يريد حصوله ، وبذلك نطق هذه الآية وأخواتها ، وإنما تأولها الزمخشري ، ليتبعها هواه الفاسد فى اعتقاده أن الله ، تعالى ، لا ينهى عما يريد ؛ وإن وقع فعلى خلاف الإرادة - تعالى الله عن ذلك ، وبه نستعين من جعل القرآن تبعاً للهوى ^(٣) .

هذا هو رجل أهل السنة المفوه الحكيم .. أى إنك إن أردت أن تكون منهم ، عليك أن تؤمن بالله الذى : «قد ينهى عما يريد وقوعه ، ويأمر بما لا يريد حصوله» .. وهذا الرجل وأمثاله من أسوأ الصور التى تعرض للإسلام ، فلكى يقنئك بما يمتقد من ضلالات .. وعقيدة سيئة فى الله ، تصوره على أنه غير عادل وغير حكيم .. يحذرك

(٢) سورة مريم آية ٨٣ .

(١) انظر الزمخشري : الكشاف ٣١ / ٣٤٨

(٣) هامش الكشاف ، ٤ / ١٩٦ - ١٩٧

بان هذه عقيدة اهل السنة .. وان من يعتقد غيرها فهو مبتدع ضال .. وبخوفك بانك تكفر بما جاء من ظاهر القرآن النص ١١ ..

ولو عرف الفرق بين الإرادة الكونية للمخلق ، والإرادة الأخرى التى هى للأمر ..
لامكنه فهم آيات الله فى كتابه فهماً صحيحاً .. فلم يقل أحد من الأولين والآخرين
ان لا يقدر على فعل الشر .. ولكننا وجدنا قوماً عقلاء قالوا : إنه يقدر على فعله ،
ولكنه لا يفعله تنزيهاً لذاته من فعل ما يقدر فى الحكمة أو يناقض العدل والرحمة ..
وقد كتب على نفسه الرحمة ، وأكد على أنه لا يظلم أحداً من خلقه بعد أن حرم
الظلم على نفسه ، وأمر بالقسط والعدل والإحسان .

قال تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٤) .

شرب سائق الخمر ثم قاد سيارته الجديدة فى طريق وعر بسرعة جنونية فانقلبت به ،
فاخذ يلعن صانعها .. فهل هو محق ؟ .. إنه مجنون ؛ لأنه لم يقدها فى طريق ممهد
ولا حسب السرعة المقررة .. وصانعها اتقن صنعها ؛ ولكنه أساء استخدامها .

وكذلك الله رب العالمين - والله المثل الأعلى - فقد خلق الإنسان وأبدع فى خلقه ،
وركب فى صناعته نفساً ، وميزها بأن أعطاها القدرة على الاختيار بين الخير والشر ..
ودعاها إلى الخير ورغبها فيه ، وحذرها من الشر وقبحه لها ، وبين لها عاقبة الاختيار
ونواتجه .. أبعد هذا يقال إن اختيارات الصنعة ، التى هى بمثابة السيارة للسائق ؛
محسوبة على خالقها ١٩

نعم فالصنعة وما تفعل ملك لصانعها .. وكما أنها من خلقه ففعلها من خلقه
كذلك .. إلا أنه لا يمنع أن يكون فى الوقت نفسه أنه أحب لها أن تختار الخير ..

(١) سورة الأنعام آية ١٢ .

(٢) سورة فصلت آية ٤٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٩ .

(٤) سورة النحل آية ٩٠ .

وكره لها أن تختار الشر ؛ وكما أن اختيارها للشر كان اختياراً لشيء من خلق الله ،
فاختيارها للخير هو كذلك من خلق الله .. ويسر لها الأمرين .. ﴿وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ﴾ (١) ، ولم يحل بينها وبين طاعته .. كما أنه لم يقسرها على فعلها ..
والامر كذلك بالنسبة لاختيارها للمعصية ..

غاية ما فى الأمر أن هناك اتجاهات يريد أن ينسب إلى الله ، تعالى ، اختيارات
الشياطين من الإنسن والجن ؛ ليعذرهم على كفرهم وفسقهم .. وهناك فريق آخر يقول
إن اختياراتهم هى لهم وحدهم ، ويحاسبون عليها .. ويجزون عليها بالإحسان
إحساناً وبالسيئات إساءة .. والمسافة فى اعتقادى بين الاتجاهين ، إذا ما نفينا الشكلية
واللفظية ؛ جد قريبة ؛ لولا التعصب وسوء الفهم .

(١) سورة البلد آية ١٠ .

٥- الشيطان والكهان

عن عائشة ،رضى الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : «الملائكة تتحدث فى العنان - والعنان : الغمام - بالأمر يكون فى الأرض فتستمع الشياطين الكلمة ، فتقرها فى أذن الكاهن كما تقرأ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة»^(١) .

يقول الحافظ ابن حجر حديث عائشة فى ذكر الكهان أو رده معلقاً عن الليث ، وقد تقدمت الإشارة إليه فى صفة الملائكة^(٢) ، وقد وصله أبو نعيم فى المستخرج من طريق أبى حاتم الرازى عن أبى صالح كاتب الليث عنه وقال : يقال إن البخارى حمّله عن عبد الله بن صالح^(٣) .

وتوقف فى وصل هذا الحديث ، وبين طرقه لبيان أن البخارى قد تفرد به فقال : قوله «حدثنا محمد حدثنا ابن أبى مريم» قال الجياني : محمد هذا هو الذهلي ، وقال أبو ذر بعد أن ساقه : محمد هذا هو البخارى ، وهذا هو الأرجح عندي ، فإن الإسماعيلي وأبانعيم لم يجدا الحديث من غير رواية البخارى فأخرجاه عنه ، ولو كان عند غير البخارى لما ضاق عليهما مخرجه ، ونصف هذا الإسناد الأعلى مدنيون ، ونصفه الأدنى مصريون .

كما ذكره البخارى فى كتاب «الطب» باب «الكهانة» فقال : حدثنا على بن عبد الله حدثنا هشام بن يوسف أخبرنا معمر عن الزهرى عن يحيى بن عروة بن الزبير «عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال : ليس بشئ . فقالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثوننا أحياناً بشئ فيكون حقاً ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرأها فى أذن وليه ، فيخلطون معها مائة كذبة»^(٤) .

نقل عن الخطابي أن النبي ﷺ بين أن إصابة الكاهن أحياناً إنما هى لأن الجنى يلتقى إليه الكلمة التى يسمعها استراقاً من الملائكة ، فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على

(١) البخارى ٦١ / ٣٨٩ حديث ٣٢٨٨ .

(٢) فى الفتح ٦١ / ٣٥٠ حديث ٣٢١٠ .

(٣) الفتح ٦١ / ٣٩٤ .

(٤) البخارى ١٠٠ / ٢٢٧ حديث ٥٧٦٢ .

ماسمع ، فربما أصاب نادراً وخطؤه الغالب .. ويسمعا كما يسمع صوت الزجاجة إذا حلت على شئ أو ألقي فيها شئ .. واختلف العلماء هل يقرها كما تقرر القارورة .. أوقر الزجاجة .. أوقر الدجاجة ١٩ .. وبدى أن فى الأمر اجتهاد فى التصوير ، وآخر فى إثبات رواية وتغليط أو تصحيف أخرى .

قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ لَمَّا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) .^(١)

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَقُولِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٢) .^(٢)

والكاهن عند العرب فى الجاهلية راعى بيت الأصنام الذى كان يقدم الذبائح والقرايين ويمتولى الشعائر والطقوس الدينية التى تقام لها ... وقد عرفت الكهانة كوظيفة فى الجاهلية ؛ ولا يستبعد نشأة علاقة بين الكهان والجان .. سيما أن هؤلاء كانوا يتسمعون فى الملا الأعلى ويسترقون الأخبار .. والكهان يدعون معرفة الغيب وأمر السماء وما سيحدث فى غد .. وقد أكذبهم الله فى ذلك حيث قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٤) ، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٥) فقد كذب الجن على الإنس ، وصدقوهم .. وظن الشقى منهم أن له حظوة أو ميزة على غيره .. ولكنهما فى العذاب المهين .

(٢) سورة الحاقة آية ٤٢ .

(٤) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(١) سورة الطور آية ٢٩ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٧٩ .

(٥) سورة الحن آية ٢٦ .

٦- الشيطان والرؤى

عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال النبي ﷺ : «الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه ، فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها ؛ فإنها لا تضره» .^(١)

كما روى البخارى فى كتاب « الطب » باب « النفث فى الرقية » الحديث عن يحيى ابن سعيد ، قال : سمعت أبا سلمة ، قال : سمعت أبا قتادة يقول : «سمعت النبي ﷺ يقول : الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان . فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث حين يستيقظ ثلاث مرات ، ويتعوذ من شرها ، فإنها لا تضره» .^(٢)

وفى معنى الحلم من الشيطان قال المهلب : سمي الشارع الرؤيا الخالصة من الاضغاث صالحة وصادقة ، وأضافها إلى الله ، وسمى الاضغاث حلماً وأضافها إلى الشيطان إذ كانت مخلوقة على شاكلته ، فاعلم الناس بكيدِهِ وأرشدهم إلى دفعه ، لئلا يبلغوه أربه فى تحزينهم والتهويل عليهم ، وقال أبو عبد الملك : أضيفت إلى الشيطان ؛ لأنها على هواه ومراده ، وقال ابن الباقلانى : يخلق الله الرؤيا الصالحة بحضرة الملك ويخلق الرؤيا التى تقابلها بحضرة الشيطان ، فمن ثم أضيف إليه ، وقيل : أضيفت إليه ؛ لأنه يخيّل بها ، ولا حقيقة لها فى نفس الامر^(٣) .

ويبدو من سكوت الحافظ ابن حجر رضاه وقبوله لهذه الاجتهادات السابقة ، وأياً منها يجوز ؛ إلا أن قول الباقلانى يحتاج إلى دليل من الشارع ؛ لأن طريق هذه المعرفة السماع ، وطالما أنه لا سماع يؤيده يبقى اجتهاده معلقاً أو محمولاً على جملة ما جاء فى باب الرؤيا والتعبير ، وأحسن الحافظ فى قوله (ولا حقيقة لها فى نفس الامر) .. لأن الشيطان لا قدرة له على الدخول إلى وجدان الإنسان والعبث بالذاكرة الحافظة والمبدعة ، وكذلك البصيرة التى تستقبل الصور من عالم الغيب .. فكل ذلك من أمر الله ولا قدرة له على ذلك . إلا إذا قصد الباقلانى أن من الخواطر ما يسمى ملكاً إذا

(١) البخارى ٦ . ٣٩ حديث ٣٢٩٢ .

(٢) البخارى ١٠٠ / ٢١٨ حديث ٥٧٤٧ .

(٣) الفتح ١٢١ / ٣٨٦ - ٣٨٧ .

كان الداعى إليها خير ، ويسمى ما يدعو إليه إلهاماً ، ومنها ما يسمى شيطاناً إذا كان الداعى إليها شر ، ويسمى ما يؤدى إليه وسوسة كما قال الغزالى فى «الإحياء» (١) .

وروى البخارى بسنده فى باب «الرؤيا من الله» عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ يقول : «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هى من الله ، فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هى من الشيطان فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» (٢) .

يقول الحافظ فى قوله : (وإذا رأى .. الشيطان) ظاهر الحصر أن الرؤيا الصالحة لا تشتمل على شئ مما يكرهه الرائي ، ويؤيده مقابلة رؤيا البشرى بالحلم وإضافة الحلم إلى الشيطان ، وعلى هذا فى قول أهل التعبير ، ومن تبعهم ، أن الرؤيا الصادقة قد تكون بشرى وقد تكون إنذاراً نظراً ، لأن الإنذار غالباً يكون فيما يكره الرائي ، ويمكن الجمع - أى بين الرايين - بأن الإنذار لا يستلزم وقوع المكروه كما تقدم تقريره ، وبأن المراد بما يكره ما هو أعم من ظاهر الرؤيا ومما تعبر به .

وقال القرطبى فى «المفهم» : ظاهر الخبر أن هذا النوع من الرؤيا يعنى ما كان فيه تهويل أو تخويف أو تخزيين هو المأمور بالاستفادة منه ؛ لأنه من تخیلات الشيطان ، فإذا استعاذ الرائي منه صادقاً فى التجاءه إلى الله ، وفعل ما أمر به من النقل والتحول والصلاة ، أذهب الله عنه ما به وما يخافه ، من مكروه ذلك ولم يصبه منه شئ .

وظاهر كلام القرطبى الذى فسر الأثر على ظاهره أن للشيطان قدرات خرافية هائلة يمكنه بها تكوين صور وخیالات فى ذاكرة الإنسان بما يحب أن يكون من رؤى ، وهو ما ندرك تماماً عدم حدوثه ؛ لكونه أمراً يدرك بالحواس ولا حقيقة لذلك . أما على سبيل المجاز وأنه يحدث للإنسان ما يسر عدو الله من رؤيا مفزعة أو محزنة لذلك أرشد الشارع إلى الاستعانة والتحول والصلاة ، لتغيير كمياء الجسم وتفاعلات الإنسان البيولوجية والسيكولوجية ، فيعود مرة أخرى إلى النوم هادئ البال ويتلاشى من الذاكرة ما كان سبباً فى هذا الكابوس ، فهو أمر صحيح ومقبول عقلاً ونقلًا ﴿مَا كَانَ

(١) انظر الغزالى : الإحياء ٣١ / ٤٢ والحديث رواه أحمد والبخارى والترمذى عن أبى سعيد ، انظر السيوطى ١٦ / ٢٦ .

(٢) البخارى ١٠١ / ٣٨٥ - حديث ٦٩٨٥ .

لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ ﴿١﴾ فالشيطان ينفى وجود أى تأثير أو سلطان منه فعلى حقيقى على الإنسان . فلم يصر الإنسان على الكذب - على عدوه - وتعليق أوهامه على شناعة الشيطان ١٩

وقيل : بل الخبر على عمومه فيما يكرهه الرأى بتناول ما يتسبب به الشيطان وما لا تسبب له فيه ، وفعل الأمور المذكورة - من ذكر ودعاء وصلاة - مانع من وقوع المكروه ، كما أن الدعاء يدفع البلاء والصدقة تدفع ميتة السوء وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، ولكن الأسباب عادات لا موجودات ، وأما ما يرى أحياناً مما يعجب الرأى ، ولكنه لا يجده فى اليقظة ولا ما يدل عليه ، فإنه يدخل فى قسم آخر وهو ما كان الخاطر به مشغولاً قبل النوم ، ثم يحصل النوم فيراه فهذا قسم لا يضر ولا ينفع ^(٢) .

وهذا الحديث قد يساعدنا فيما بعد لدراسة علم النفس عند المسلمين ، وهو مبنى على أصول أهمها الكتاب والسنة ؛ فقد اهتم المسلمون بالوجدان اهتماماً بالغاً وصل لحد تعيين مراكز الفهم والحفظ والاسترجاع والذاكرة وأهمية كل جزء من هذا الجهاز من العقل والجهاز العصبى فى الإنسان . ولا يخلو الأمر من نقد بعض آرائهم أو معتقداتهم التى جاء العلم الحديث بخلافها .

ومن الرؤيا الصادقة رؤية النبى ، ﷺ ، فى المنام فقد جاء فى الحديث أنه قال : «من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل بى» ^(٣) ويصعب تحديد الدواعى التى تؤدى بالإنسان إلى الرؤيا ..

وكل تعليل لها أو تفسير هو مجرد اجتهاد .. فلماذا يجب على الإنسان أن ينام ، وماذا يحدث بعد ذلك ؟ هى أمور غيبية .. غير أن الثابت طبياً أن النوم ضرورة حياتية .. والكائن الحى يحتاج أن ينام فى اليوم على الأقل ست ساعات متصلة .. ماذا يحدث فى هذه الساعات الست .. وأين تذهب الروح ؟ يحكمنا قانون الغيب .. كما أننا فى ساعات اليقظة يحكمنا قانون الشهادة .. «والله . لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون» .. «الناس فى غفلة فإذا ماتوا انتبهوا» قال تعالى

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

(٢) الفتح ١٢١ / ٣٨٩ .

(٣) أخرجه مسلم : ١٥ / ٢٤ كتاب الرؤيا ، والبخارى وأحمد والترمذى ، انظر السيوطى الجامع الصغير ٢١ / ١٧١ .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) .. إن الروح قلقه من سجن الجسد ، تحاول الخلاص منه دائماً ، وهو ما لا يحدث إلا فى النوم أو بالموت ..

ماذا يحدث لكيمياء الجسم .. كيف يتلاشى الزمان والمكان ويطوى .. ما علاقة مانرى فى النوم بما يحدث فى عالم الوجود الحاضر .. ١٩

فى النوم ننتقل حيث لا زمان ولا مكان .. ونتجول فى الماضى والحاضر والمستقبل ونسافر حيث نشاء . ونقابل من يستحيل مقابله فى عالم الشهود أو من لم نقابله من قبل .. فما علاقة الرؤيا بالنبوة ..

قال ، ﷺ ، «رؤيا المؤمن جزء من ست وأربعين جزء من النبوة» (٢) . لم نجد بعض الناس لا يحتاجون فى رؤاهم إلى تعبير أو تفسير لها ، وتأتى فى المستقبل كما راوها تماماً ١٩ .. إنه أمر يحكمه اعتبارات عديدة ، فلا ينفرد به علماء النفس وحدهم .. ولا علماء الطب .. ولا أصحاب التجربة بل الجميع .. فمثلاً هل يحكمنا فى النوم ما حدث لنا فى اليقظة أو ما جال فى عقولنا من خواطر وتداعيات استحضرتها .. هل فى قدرة بعضنا أن يحلم حلماً بعينه ، كما يعرفه علماء «التيوصوفية» .. فنحلم حلماً إرادياً ١٩ كل ذلك من عالم اللاشعور ..

هل يمكن أن تسافر الروح وصاحبها يقظان ، فتأتيه بالآخبار من عالم بعيد كما يفعل «أو يدعى» أصحاب الرياضات من صوفية الهند والإسلام .. وكيف تتقاطع الخطوط ما بين النوم واليقظة ، فيتصل ما كان رؤية بما كان يقظة ، وكأنه لم تكن هناك مسافة بين الاثنين ١٩ ..

اعرف رجلاً يرى فى نومه أحداثاً تقع كما هى ، بعد يوم أو شهر أو حتى بعد وقت بعيد كما هى .. أو تفزعه الرؤيا بحدث سيحدث فى العاجل .. ويرى الموتى من أقاربه ينبؤونه بما سيحدث له أو لجيرانه أو من يعرف كما سيحدث ، وكأنه يقرأ من

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٢) أخرجه مسلم ١ / ٢٢ / ١٥ كتاب الرؤيا ، والبخارى عن أبى سعيد واحمد وابن ماجه عن أبى رزى ، والطبرانى عن ابن مسعود ، الجامع الصغير ١٦ / ٢٥ .

اللوح المحفوظ .. كما يقول الغزالي .. ولولا ثقتي بمن يحدثني ، وأنه لا يكذب على
أو على الله ، لم أهتم أو آبه لكلامه .. ولقد جربته كثيراً فصدق .. وهو على دين ..
فمما بال من نقرأ عنهم يحدث لهم ذلك ، وهم غير ذوى دين بالمرّة ، أو من الماچنین
الفساق ١٩

لا شك أن لتصفية النفس وقراءة كتاب الكون بالتأمل فى الملك بهامعان .. وقلة
الاختلاط بالناس فى الأسواق وسعة الاطلاع - اياً كانت عين طريق القراءة أو وسائل
الإعلام المختلفة أو تجارب الحياة - تساعد هذه الاشياء على صدق الرؤيا .. فمن الناس
من يرى الرؤية فتأتى مثل فخلق الصبح ..

ولكن الغالب من الرؤى ما يحتاج إلى تأويل وتعبير .. وفى القرآن الكريم يحدثنا
الله ، تبارك وتعالى ، عن سيدنا يوسف ، عليه السلام ، وقد كانت أبرز معجزاته
وكراماته تعبیر الاحلام ومعرفة ما فى الغيب من أسرار - بإذن الله - وما حدث له فى
بيت عزيز مصر ، وبراءته على يد الطفل ، إذ تكلم فى المهد ، وتعبيره بعد ذلك رؤيا
السجينين ... ورؤيا الملك بعد ذلك .. وكيف جاءت الاحداث مؤكدة لصحة
تأويله ..

وإذا فالرؤيا حق .. وهى من الله ، تعالى ، يثبت بها قلوب عباده ، وهى عبارة عن
تحذير لهم أو لغيرهم حتى يعودوا إلى حظيرة الإيمان .. أو هى أحداث كونية لا علاقة
لها بالدين أو الاخلاق والسلوك .. فهل أضغاث الاحلام والكوابيس ، التى أشار إليها
الحديث الذى نحن بصددّه ، لها أصل ، أم هى من الشيطان كما قال ﷺ ١٩ ..

إن الصراع والمشاكل والاحداث الحياتية والخواطر التى تنسرب إلى الإنسان من
مشاهداته وتجاربه ، أو تنسب فى عقله عبر الزمن .. تمثل مجموعاً كبيراً متشابكاً ..
قد لا يقوى بعض الناس على هضمه أو تمثله والتخلص منه ، كما يحدث للسموم فى
الكبد ، فيؤثر عليه سلباً .. عن طريق الاحلام والكوابيس .. فكان الشيطان فعل بهم
ذلك .. أو من قبله .. وعلاجها يكون بمحاولة الإنسان التخلص من أسباب هذه
الخواطر الشريرة والاستعانة بالطب النفسى بما فيه من علاج مفيد لهذه الحالات ..

وكذلك الذكر والدعاء والصلاة والتوجه إلى الله بالعمل الصالح .. ومد يد العون
إلى الفقراء والمساكين واليتامى والمشاركة فى العمل التطوعى ، والشعور بأبناء
المسلمين فى الوطن .. كل ذلك يعجل بالشفاء ويعيد للنفس توازنها .

٧- عمر، رضى الله عنه، والشيطان

عن سعد بن أبي وقاص قال : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، قال : عجبت من هؤلاء اللاتي كنّ عندي ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . قال عمر : فانت يا رسول الله كنت أحق أن يهين . ثم قال : أى عدوات أنفسهن ، أتهيننى ولا تهين رسول الله ﷺ ؟ ١٩

قلن : نعم ، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ : والسدى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك^(١) .

والحديث ورد كذلك فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « مناقب عمر بن الخطاب » ، رضى الله عنه^(٢) .. أما ما ورد فيه من أن الشيطان يفر من عمر ، رضى الله عنه ، ويهرب من الطريق الذى يسلكه وذلك قوله ﴿ ما لقيك الشيطان قط سالكاً ... الحديث ﴾ فيقول الحافظ ابن حجر : فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضى أن الشيطان لا سبيل له عليه . لا أن ذلك يقتضى وجود العصمة ، إذ ليس فيه إلا فرار الشيطان منه أن يشاركه فى طريق يسلكها ، ولا يمنع ذلك من وسوسته له بحسب ما تصل إليه قدرته^(٣) .

والحافظ رحمه الله صرف الحديث إلى شيطان الجن دون شيطان الإنس ، والأولى أن يفر منه شيطان الإنس من الكفار والفساق والمنافقين العصاة ، لأنه يراهم ويعرفهم ويدركون عقابه لهم لو تمكن منهم ، فهم يفرون من العقاب أو رهبة منه وهيبة ، ولمعرفتهم بقوة شكيمة وشخصيته وأنه لا يخاف فى الحق لومة لائم ..

أما شياطين الجن فهم يفرون من طريقه على سبيل المجاز فهؤلاء يراهم الذين يرونه ، فلا مواجهة ولا لقاء ولا مشافهة فلم يهربون من طريقه ، ثم من قال أن مكان الشياطين هو الأرض ؟ .. والراجع أن مكانهم فى الهواء أو الفضاء البعيد ، ولو كان

(٢) السابق ٧١ / ٥٠ حديث ٣٦٨٣ .

(١) البخارى ٦١ / ٣٩٠ حديث ٣٧٩٤ .

(٣) الفتح ٧١ / ٥٨

منهم من يسكن الأرض فهو فى الصحراء أو البوادر والنجوع والخرابات والاماكن المهجورة ..

والمعنى أن شياطين الإنس يهابون عمر ويخشون سطوته عليهم ، وكذلك من يفعل فعلاً يجارى فيه فعل الشيطان من الفسق والعصيان يخاف من عمر لجراته فى الحق ، ولكونه القائم مقام الوزير من الرسول ﷺ الذى يحافظ على الأمن ويباشر امور الحسبة فى دولة الإسلام ، وهو حق له مشروع أقره عليه الرسول ، ﷺ ، ورضيه الناس ، ثم بعد ذلك لكونه أمير المؤمنين والخليفة الثانى بعد رسول الله ﷺ ..

وهناك معنى نفسى هو أن عمر ، رضى الله عنه ، قوم أخلاقه وهذب نفسه وزكاها بالتقوى والعمل الصالح وقهر باطلها وسيئ عملها فانتفى عنه كل فعل هو طاعة للشيطان ، لذا يخافه ويهابه لأنه لا يوجد شئ مشترك بينهما فعمر فى درجات الأولياء ، والشيطان عدو لله قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ السَّيِّئَةِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) ^(١) . وحق لعدو الله أن يخاف من أوليائه كما يخاف منه .

قال الحافظ : فإن قيل : عدم تسليطه عليه بالوسوسة يؤخذ بطريق مفهوم الموافقة ؛ لأنه إذا صنع من السلوك فى طريق ، فأولى أن لا يلابسه بحيث يتمكن من وسوسته ، له فيمكن أن يكون حفظ من الشيطان ، ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة له ، لأنها فى حق النبى واجبة وفى حق غيره ممكنة . ووقع فى حديث حفصة عند الطبرانى فى « الأوسط » بلفظ « إن الشيطان لا يلقي عمر منذ أسلم إلا خروجه » وهذا دال على صلابته فى الدين ، واستمرار حاله على الجد والصرف والحق المحض .

وقال النووى : هذا الحديث محمول على ظاهره وأن الشيطان يهرب إذا رآه ، وقال عياض : يحتمل أن يكون ذلك على سبيل ضرب المثل ، وأن عمر فارق سبيل الشيطان وسلك طريق السداد فخالف كل ما يحبه الشيطان ^(٢) .. وهذا هو الصواب الذى نرتضيه لأن الشارع يذكر ما يذكر على سبيل ضرب المثل للتقريب والتفهيم والتعليم ، وهو هنا للتقريب وكناية عن قوة عمر ، رضى الله عنه ، ومهابته ولكن الحافظ اختار الرأى الأول فقال . والأول أولى ^(٣) .. وهو مجرد اجتهاد والله هو الهادى إلى الرشاد .

(٢) انظر شرح النووى على صحيح مسلم : ١٥ / ١٦٦ .

(١) سورة يونس آية ٦٢ .

(٣) الفتح ، ٧ / ٥٩ .

المبحث الثالث

منهج الإمام أحمد بن يحيى في نقد فكر المجبرة حول إبليس

ويشتمل على أربعة فصول:

- الفصل الأول : أصل قصة حي بن يقظان .
- الفصل الثاني : أساسيات المنهج عند المسلمين .
- الفصل الثالث : التكليف .
- الفصل الرابع : عقيدة المجبرة في إبليس .
- الفصل الخامس : إبطال مزاعم المجبرة في إبليس .
- الفصل السادس : حول الرسالة :-
 - ١- ترجمة المؤلف ومصنفاته .
 - ٢- وصف المخطوط .
 - ٣- منهجى في التحقيق
 - ٤- نماذج من المخطوط .

البَصْرِيُّ الْبَاقُونَ
أصل قصة «حي بن يقظان»

كنت أعتقد قبل أن يقع هذا النص بين يدي أن قصة «حى بن يقظان»^(١) . هي إبداع خالص لابن سينا ٤٢٨ هـ ، ونموذج رائع للقصاص السلفى المبكر فى تاريخنا الإسلامى ؛ ثم جاء من بعده من فلاسفة الإسلام كابن طفيل ت ٥٨١ هـ ، والسهروردى المقتول ٥٨٧ هـ صاحب كتاب «حكمة الإشراق» ، وكذلك ابن النفيس ت ٦٨٧ هـ ؛ فأخذوا هذه الفكرة عنه وكتبوها كما تراءت لهم !

هذا هو الاعتقاد السائد ، إلا أنه ينبغى له أن يتغير بعدما وجدنا الإمام أحمد بن يحيى ت ٢٢٥ هـ قد سبقهم إليها ، فقد توفى قبل ابن سينا بمائة عام تقريباً ، مما يجعلنا نقطع بأن ابن سينا قد أخذ فكرة هذه القصة الفلسفية من الإمام أحمد ؛ وهو غير مستبعد ، فقد كان جل فكر ابن سينا فلسفى ، وأساسه فى الفلسفة وقد سبقه إلى سبر أغوارها الفارابى والكندى . فقد عرفا الفلسفة اليونانية وترجم منها الكثير ، ولهما شروح على أرسطو وأفلاطون . . وإن كان ناثراً الكند بأرسطو أوسع ، وقد نشر له د / محمد عبد الهادى أبو ريذة مجموعاً من رسائله ، سماه «رسائل الكندى الفلسفية» بالقاهرة سنة ١٩٥٠ م . أما الفارابى فقد تأثر بأفلاطون تأثراً كبيراً ، وبفكره السياسى على وجه اخص .

إن الفكرة الأساسية التى تدور حولها قصة «حى بن يقظان» هى هل من الممكن أن يحصل الإنسان المعرفة بدون وجود وحى من السماء أو سابق معرفة له بالطبيعة أو ما ورائها ؟ . . وهو ما نسميه بالخبرة المتوارثة هل لهذا الإنسان أن ينشئ معرفة من نفسه ، تدله عليها فطرته مستخدماً مداركه الحسية والعقلية أم لا ؟ .

والظاهر من كلام الجميع إمكانية ذلك ؛ غير أن الإمام أحمد زاد عليها أن هذه المعرفة تحدث صحيحة بتأييد الله ، عز وجل ، وتوفيقه ودون تدخل لمعوقات طبيعة أو غير طبيعة لإفسادها أو تعطيلها . وقد عالج الغربيون هذه الفكرة فيما بعد إبان عصر النهضة فى أدبهم ، وفى سنة ١٧٩٥ تقريباً وجد عالماً فرنسياً غلاماً فى الغابات أخذه إلى باريس وحاول تعليمه الكلام ، والاستفادة من تجربته فى حياة الطبيعة مع الحيوانات .

(١) انظر حى بن يقظان : تحقيق د / يوسف زيدان - هيئة قصور الثقافة .

ويبقى الإشارة إلى أن القصة على يد ابن سينا قد اتخذت طابعاً فلسفياً خالصاً واكتنفها كثير من الغموض والرمز والتركيب ، في حين أنها عند الإمام أحمد كانت بسيطة ، ومع ذلك لم تكن ساذجة ؛ وتشير إلى عنصر فكري واحد وهو إمكانية المعرفة دون وحي أو سابق خبرة ؛ مع التركيز على حرية الإنسان في المعرفة .

ويبدو لي أن هذه القصة ذات جذور أبعد من ذلك ، فربما كانت من القصص العالمي الذي يصعب نسبته إلى بلد معين أو شعب ، أو أنها نشأت في الوسط الإسلامي على يد القصاص والمحدثين لتقريب فكرة المعرفة المطلقة بالعالم والكون والالهية للناس .

وهذه القصة عند الإمام أحمد يُردُّ بها على تعنت المجبرة في أن الله قد أعطى الإنسان الحرية في الاختيار والقدرة والاستطاعة على الإيمان ، ويسر له طريق التكليف ثم أقدر عليه عدوه إبليس لينال منه ويتلاعب به ، ويتدخل بقدرته فيفسد طاعته لربه وإيمانه به وتوحيده له . . . ويبدو أنهم كانوا يرغبون في الوصول إلى القول بأن الحياة وما فيها معادلة متعادلة الأطراف ليس فيها رابح أو خاسر . . . وهي تبدأ وتنتهي كلعبة لها أصول ولكل واحد فيها دور . . . وقد وضع مصممها كل شيء مسبقاً ، وما الناس والمخلوقات إلا دمي أو قطع خشبية على رقعة الشطرنج ، وسينتهي الأمر إلى أن الجميع لا شأن لهم بما كان يحدث ، إذ إنهم فعلوا ما قضى وقدر الصانع ، ولم يكن في وسعهم أن يفعلوا غير ما فعلوا ، وسبق وأن رسمه لهم !

فزعموا بأن لإبليس قدرة على التصرف في قلب الإنسان مما يؤثر على عقله وفعله ، دون أن يكون للإنسان قدرة على دفع هذا البلاء عن نفسه ، لقدرة إبليس الفائقة ، فهو قادر على أن ينسيه وقادر على أن يغويه وقادر على أن يرديه . . إلخ .

فقال الإمام أحمد إذا كان هذا جاء عندكم في حق إبليس ، فما الفرق بينه إذا وبين رب العالمين ؟ وهل يستطيع فعل ذلك : (في رجل وامرأته كانا في المركب ثم باق بهم المركب فخرجوا إلى جزيرة ، فكان الرجل من مرته ^(١) ، فحملت غلاماً ، ثم بلغ الغلام ثلاث سنين ؛ ثم ماتا وتركاه ، أيصل إلى قلبه الأمر بالصلاة والصيام وجميع

(١) كناية عن الجماع .

(٢) انظر النص ١٣٤١ ظ .

الفرائض بلا مخبر له ولا مصير^(١) . وللمسألة جذور في الفكر الإسلامي ، ملخصه
أنا مكلفون بمعرفة الله ، تعالى ، قبل مجئ الشرع .

والإمام أحمد يتجاوز الحديث عن معرفته بالطبيعة من حوله وصولاً إلى اليقين ،
وأن وراء هذا الكون خالق رازق مبدع له ابدعه ، ينبغي عبادته وطاعته وقبول
تكليفه .. وعند إذ يتوقف ليتسائل ، هل يمكن أن تحدث له هذه المعرفة التكليفية
بالصيام والصلاة وغيرها من الفرائض والأحكام دون إرسال رسول له يخبره بأن الله
الواحد الأحد يأمره بها ؟ وهو رأى له اعتباره عند فريق من الإسلاميين .

وطبيعي "الإقرار بالمعرفة الأولى ، وإنكار الثانية ، فإن كانت الفطرة قد دلت الإنسان
على معرفة الله وتوحيده ؛ فمن أين لها معرفة مراد الله في خلقه ؛ فالأوامر الشرعية
لا بد لها من تبليغ ووحى ، وهذا يجزنا إلى القطع بأن الإمام أحمد يرى أن المعرفة بالله
ضرورية : وفطرية لا تحتاج إلى نظر أو استدلال ، أو على الأقل لا تحتاج هي الأخرى
إلى وحى وتبليغ ، وقد قال بمقالته الجاحظ وفريق من المعتزلة ؛ غير أن جمهور العلماء
يقول بأن هذه المعرفة هي الأخرى تحتاج إلى الوحي والتبليغ وإلى النظر والاستدلال
العقلي المصاحب له .

ويريد الله أن يبطل حجة الناس في أنه أخذهم أو عذبهم دون إرسال رسل إليهم
بالوحي الذي يكلفهم بتوحيده وعبادته قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا
وَلَكِنْ رُحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ
مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴿ (١) . فقد أرسل موسى ، عليه السلام ، لهذا الغرض .. وكذلك
رسولنا ، ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ

(١) سورة القصص الآيات ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة الزخرف الآيات ٦ - ٨ .

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ^(١) . وهذا هو شأن من كفل الله له حرية الاختيار بعد أن منحه مسئولية التكليف .

أما في حق رسول الله ﷺ ، قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ^(٣) . ويقف الرسول عند حدود الدعوة ولا يكره أحداً على الإيمان به .

وقد أرسل الله أنبياءه ورسله ليقطع على المكذبين طريق الاحتجاج بأنه لم ينذرهم ويحذرهم قبل نزول العذاب أو أن يلحقهم العقاب : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ لَعَلَّأ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ^(٥) . فإرسال الرسل سبيل لانقطاع حجة المكذبين .

لقد خلق الله إبليس لطاعته وافترض عليه طاعته ، ولا يعقل أن يكون إبليس في إضلاله وإغوائه للخلق مطيعاً لله . . . وعلى هذا فإن إبليس في إضلاله للغلام في الجزيرة قد عصى ربه واتبع هواه وخالف خالقه ووجب عذابه بمعصيته . إن افتراضنا قيامه بذلك ، كما يظن المجبرة أنه دوره الذي خلقه الله له .

ثم كيف يضل إبليس ذلك الغلام في الجزيرة ويغويه وكذلك ذرية آدم ، هل لإبليس قدرات خارقة يستطيع بها ذلك . . . أم أن الأمر مجرد وهم في عقولهم ، دعت إليه النظرة الجبرية والقصور العقلي لديهم ؛ في أن الله خلق الإنسان وسلط عليه بعض خلقه لقهره وإضلاله وهي مجرد تمثيلية افتعلها لتعذيب الإنسان !

ويعمد هؤلاء إلى المخالفة والمجادلة بالباطل ، حول مفهوم العدل والحكمة والظلم بين الله ، تعالى ، وخالقه . . فيزعمون أن مفهومهما يختلف في عالم الشهادة عنه في عالم الغيب . . وما كان في حق مكتسبه ظلماً ، فليس بالضرورة أن يكون كذلك في حق خالقه . . . !

(٢) سورة الانبياء آية ١٠٧ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٨٤ .

(١) سورة الحديد آية ٢٦ .

(٣) سورة الفتح آية ٨ .

(٥) سورة النساء آية ١٦٥ .

فهلا قال لهم الله ، عز وجل ، إن العدل الذى أمرت به أو أن الظلم الذى نهيت عنه
يختلف مفهومه بالنسبة لذاتى ، عن الذى بينته لكم وفرضته عليكم ١٩
اسمع هذه الآيات ثم أطلق لنفسك عنان التأمل ، لعلك تهتدى لما لم يهتد إليه
الظالمون المفترون :

قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ (١) .

فالله صادق .. والله عادل .. وما كان له أن يكذب علينا ، فياמרنا وهو لا يريد أن
نفعل ما أمر .. أو ينهانا وهو يريد أن نفعل ما نهى ، والعياذ بالله .. تقدر ربنا عما
يقول الظالمون .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٥٨) ﴿ (٢) فهل هذا شأن من يجوز فى حقه أن يظلم خلقه ١٩

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩٠) ﴿ (٣) . والله هو العدل ، وهو صفة كمال ، فكيف
ننسب له ما هو قدح فى ذاته ، ويكون عيباً لو اتصف به أحد من خلقه ١٩ .

(١) سورة الأنعام آية ١١٥ .

(٢) سورة النساء آية ٥٨ .

(٣) سورة التحل آية ٩٠ .

الفصل الثاني

أساسيات المنهج عند المسلمين

١ - مصادر المنهج الإسلامى

١ - ينبغي الرجوع إلى الكتاب والسنة :

قال تعالى : ﴿ اَلرَّكَّابُ اَنْزَلْنَاهُ اِلَيْكَ لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّورِ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ اَلرَّكَّابُ اَنْزَلْنَاهُ اِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدُبُّرِهَا اَيَّاهُ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ اَطِيعُوا اللّٰهَ وَالرَّسُوْلَ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِيْنَ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وَاَطِيعُوا اللّٰهَ وَالرَّسُوْلَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُوْنَ ﴾ ^(٤) .

فما اصول التشريع التى يعتمد عليها المنهج الإسلامى ؟ .. لاتأخذ الاحكام الشرعية إلا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عند بعض الفرق .

١ - والكتاب الكريم : هو القرآن الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى : ﴿ حَتَّمْ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِيْنِ ٢ اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا ٣ ﴾ ^(٥) ، ﴿ هٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ١ ﴾ ^(٦) ، ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْاٰنِ وَكِتَابٌ مُّبِيْنٌ ١ ﴾ ^(٧) .

ويشتمل على العام والخاص ، والمجمل والمفسر ، والمطلق والصريح والكناية .

وفيه ايضا دليل الخطاب ومفهومه ، وكل هذه الوجوه منه أدلة على مراتبها ، وإن كان بعضها فى الاستدلال به على مدلوله اجلى من بعض ، وما غمض منه وجه دلالة ، على الضعيف فى نظره ، يعلمه المستنبط الموفق ، لقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمَّ يَسْتَنْبِطُوْنَ مِنْهُم ٨ ﴾ .

اما تاويل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَاْوِيْلَهُ اِلَّا اللّٰهُ وَالرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ اٰمَنَّا بِهِ ٩ ﴾ . فقال فريق من العلماء : معنى ليس يعلم تاويل المتشابه إلا الله ، ولم يُطلع احداً من خلقه عليه . وهؤلاء وقفوا فى قراءة الآية على لفظ الجلالة .. وأعربوا « الواو » فى « والراسخون » على الاستئناف .

(٢) سورة ص آية ٢٩ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٣٢ .
(٦) سورة الاحقاف آية ١٢ .
(٨) سورة النساء آية ٨٤ .

(١) سورة ابراهيم : ١ .
(٣) سورة آل عمران : ٣٢ .
(٥) سورة الزخرف الآيات ١ ، ٣ .
(٧) سورة النمل آية ١ .
(٩) سورة آل عمران آية ٧ .

وقال فريق آخر : إن المعنى فى الآية أنه قد يعلمه الراسخون فى العلم ، وإن هذا القول عطف ، أى أن «الواو» فى «والراسخون» للعطف ، فهى معطوفة على لفظ الجلالة ، واحتجوا بقول الشاعر :

الريـح تبكى شجوه .. والبرق يلمع فى غمامه

قالوا : فالبرق معطوف على الريح ^(١) .

أشار الأشعرى إلى موقف الناس من المحكم والمتشابه ، فقال : اختلفت المعتزلة فى محكم القرآن ومتشابهه :

١- فقال «واصل بن عطاء» و «عمرو بن عبيد» : المحكمات ما أعلم الله ، سبحانه من عقابه للفساق ، كقوله : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ ^(٢) وما أشبه ذلك من أى الوعيد ، وقوله : ﴿وَأَخْرُ مُتَشَابِهَاتٍ﴾ ^(٣) نقول : أخفى الله عن العباد عقابه عليها ، ولم يبين أنه يعذب عليها ، كما بين فى المحكم منه .

قال «أبو بكر الأصم» : محكمات : يعنى حججاً واضحة لا حاجة لمن يعتمد إلى طلب معانيها كنعحو ما أخبر الله ، سبحانه ، عن الأمم التى مضت ممن عاقبها ، وما يثبت عقابها ، وكنحو ما أخبر عن مشركى العرب أنه خلقهم من النطفة ، وأنه أخرج لهم من الماء فاكهة وأبا ، وما أشبه ذلك ؛ فهذا محكم كله ؛ فقال : قال الله سبحانه : ﴿آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أَمُ الْكِتَابِ﴾ أى الأصل الذى لو فكرتم فيه ، عرفتم أن كل شئ جاءكم به محمد ، ﷺ ؛ حق من عند الله ، سبحانه ﴿وَأَخْرُ مُتَشَابِهَاتٍ﴾ ^(٣) .

وهو كنحو ما أنزل الله من أنه يبعث الأموات .

٢- أما السنة : التى يؤخذ عنها أحكام الشريعة فهى المنقولة عن النبى ، ﷺ ، إما بتواتر يوجب العلم الضرورى كنقل أعداد الركعات وأركان الصلاة ونحوها ، وإما بخبر مستفيض يوقع العلم المكتسب كنقلهم نصب الزكاة وأركان الحج ، وإما برواية الأحاد التى توجب روايتهم لها العمل دون العلم .

(١) الأشعرى : المقالات ١١ / ٢٧١١٢٧٠ .

(٢) سورة النساء آية ٩٣ .

(٣) سورة آل عمران آية ٧ .

ووجوه دلائل السنة على الاحكام كوجوه دلائل القرآن من عام وخاص ومجمل ومفسر وصريح وكناية وناسخ ومنسوخ ودليل خطاب ومفهومه وامر ونهى وخبر ونحوها .

٣- وأما الإجماع : المعتبر فى الحكم الشرعى فمفصور على إجماع أهل عصر من اعصار هذه الامة على حكم شرعى ، فإنها لا تجتمع على ضلالة .

٤- وأما القياس : فى الشرعيات فإنما يستدرك به معرفة حكم الشئ الذى ليس فيه نص ولا إجماع على حكمه .

١- احدها القياس الجلى : وهو الذى يكون فرعه أولى بحكمه من أصله كتحریم ضرب الأبوين ، لقياسه على ما حرم ، عز وجل من قول الولد لهما : اف ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آلَافَ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٤) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ... ﴿ (١) .

٢- والثانى قياس فى معرفة الأصل المقيس عليه من كل وجه كقياس العبد على الامة فى تنصيف الحد لتساويهما فى الرق ، وقياس الامة على العبد فى التقوم على أحد الشريكين ، إذا أعتق نصيبه منه وهو موسر ، وكما حرم الله ، عز وجل ، البيع فى وقت النداء للجمعة ثم قسنا عليه عقد الإجارة ، وسائر العقود فى ذلك الوقت ، وليس الأصل فى هذه الاحكام باكثرهما شبهاً .

٣- والثالث : قياس شبه فى فرع بين أصليين متعلق باكثرهما شبهاً ، وقياس خفى كالعلة فى فروع الربا ، إذا قيس فيه الفروع منها على الحنطة والشعير والتمر والملح والذهب والورق ، وهذه وجوه مدارك احكام الشريعة على أصول أهل السنة .

وقد خالف أهل السنة فى هذه الأصول البراهمة فأنكروا جميع الشرائع جملة وتفصيلاً ، وأنكروا بعثة الانبياء والكتب السماوية ؛ اما الخوارج فقد أنكروا الإجماع وحججته بعلل ليس هنا مكان عرضها ، وكذلك أنكروا السنن الشرعية ، أما الروافض

الغالية فقد أنكرت جميع أحكام الشريعة وأبطلتها ، بفكرة الوصاية والدور ^(١) الذى يدعونه ولذلك أكفرتهم جميع طوائف المسلمين ، بما فيهم الشيعة أنفسهم ؛ وشارك النظام وأصحابه من المعتزلة الخوارج فى إنكار الإجماع والقياس ^(٢) .

وقد شخص الإمام أحمد أسباب خطأ الإنسان فى فهم الدين فقال : « إن الخلق تركوا معدن الهدى ، واتبعوا الهوى ، فخالفهم الردى .. ومالوا إلى الدنيا وتقليد الرؤساء .. كما أنهم تركوا الحكم بالكتاب والسنة والاجتهاد فى النص بما يوافق مقاصد الشريعة ، وتجاهلوا أهل العلم الراسخين فيه وعلى رأسهم أهل البيت المطهرين فوقعوا فى الجهل والمراء ^(٣) . قال ، ﷺ : « من كتم علماً وهو يعلمه ألجمه الله بلجام من نار » ^(٤) .

وقد حكم الناس الظن فى فهم الدين كما حكموا الهوى والتقليد من قبل رغم أن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً ، وقد أفاض القرآن فى التحذير من الظن والهوى وتقليد الآباء والكبراء ، فهى التى أردت القدماء فعبدوا الأصنام وأشركوا بالرحمن وقتلوا أبناءهم وبناتهم واستباحوا حرماهم قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا بِمُخْرَصُونَ ﴾ ^(٥) .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ^(٧) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ^(٨) .

وقد عقد الإمام يحيى بن حمزة العلوى ت ٧٤٩ هـ فصلاً فى الاجتهاد والتقليد من

(١) انظر كتابنا الرد على الروافض .. فقد أشرنا إلى ذلك .. وجاء مخطوط القاسم الرسى ليؤكد كفر قائل هذا الكلام ١٨٩١ ، ١٠١ .

(٢) انظر فى هذا الموضوع البغدادي : أصول الدين ، ص ١٣ - ١٩ .

(٣) انظر النصر ١٢٥١ و .

(٤) رواه ابن ماجه ١ / ٩٧ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٤٩٩ ، ٥٠٨ ، وفى طبقات ابن سعد عن ابن مسعود ، وهو ضعيف ، الجامع الصغير ، ٢ / ١٨٠ وفى معناه أيضا : من سئل .. فى الترمذى وأبى داود .

(٥) سورة الانعام : ١١٦ .

(٦) سورة الروم آية ٢٩ .

(٧) سورة المؤمنون آية ٧١ .

(٨) سورة البقرة آية ١٧٠ .

كتاباه «الرائق في تنزيه الخالق»^(١) ، بين فيه مفهوم الاجتهاد والتقليد واحكامهما في الإسلام ، ووضح الفرق بين المجتهد الكامل والناقص ، وما يجوز فيه الاجتهاد وما لا يجوز ، وكذلك ما يجوز فيه التقليد وما لا يجوز . . ومتى يكون محموداً ومتى يكون مذموماً .

ويرسم الإمام أحمد منهجاً في فهم قضايا الدين عموماً ، وهذه القضية التي نحن بصدددها ، وهي قدرة إبليس على الوسوسة وإغواء بنى آدم وهم لا حول ولا قوة لهم في رد ولا صد ذلك البلاء عنهم ؛ لقدرة عدوهم القادرة وقوته الفائقة على التحايل عليهم والدخول عليهم من كل باب وسبيل ؛ فيقول ينبغي عند فهم هذه القضية وكل قضايا الدين طرح الهوى جانباً والمكابرة ومعاودة المعقول ، فكل ما لا يقبله عقل ولا شرع ويقدر في أصول التوحيد والعدل ينبغي طرحه جانباً قال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦) ﴿^(٢) .

ويشير الإمام أحمد إلى أن القرآن الكريم لا يتناقض ولا يختلف أحكامه فمثلاً لا يقرر الله قاعدة التيسر في التكليف ، ثم يكلفنا بما يشق علينا قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٣) ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٤) ، وقال ، ﷺ : «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» .

وقال تعالى عن التكليف ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥) . ومن أشد أنواع التعسير والتعنت أن يكلفنا الله بما لا نفهمه ولا نعقله ولا يصح في مداركنا ومعارفنا ، والوسوسة ، - التي يزعمها المجبرة لإبليس - من هذا القبيل^(٦) .

ولذلك يقول الإمام أحمد المرة بعد الأخرى : القرآن لا يتناقض ولا يختلف ، وأن لكل معنى من هذا الجنس - أى ادعاء إغواء إبليس وتسلطه على الإنسان - تاويل

(١) انظر دراستنا « عقيدة التنزيه عند المسلمين » وتحقيق النص من ١٢٣ - ٢١٩ .

(٢) سورة ص آية ٢٦ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٤) سورة الحج آية ٧٨ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٦) انظر النص ١٣٨٠ و

يرده إلى الحق والعدل والحكمة والبراءة من التناقض والعيب والفساد^(١) . فدعا إلى وجوب النظر والتأويل وتنزيه القرآن عن التناقض .

٢- موقف العلماء من تعارض النصوص

وهذا يجعلنا نبين موقف علماء الإسلام من تعارض النصوص ، فقد اختلفوا في ذلك .. فإذا كان لكل من الآيتين حكم مخالف لحكم الأخرى ، مما قد يجوز أن يجتمع حكمهما ، على اختلافهما ، على إنسان في وقتين ، ويتنافيان في وقت واحد .

كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾^(٢) فحكم الله سبحانه ، قبل المواريث أن يوصى الرجل عند موته بماله لوالديه وأقربائه ، ثم حكم للوالدين بالميراث في فرضه المواريث ، ثم قال : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ﴾^(٣) !

(١) فقال قوم : نسخت آية المواريث للوالدين آية الوصية لهما ، وهم الذين قالوا : « لا ينسخ القرآن إلا القرآن » .

(٢) وقال مخالفوهم : ليست آية المواريث للوالدين بناسخة لآية الوصية لهما ، وإنما نسخت آية الوصية لهما سنة رسول الله ، ﷺ ، وهي قوله : « لا وصية لوارث »^(٤) ، ولولا سنته بذلك كانت الوصية للوالدين على حالها جائزة ؛ لأن الله ، سبحانه ، إنما حكم بالمواريث لأهلها من الوالدين وغيرهما من بعد وصية يوصي بها الرجل أو دين .

ولولا سنة رسول الله ، ﷺ ، أنه « لا وصية لوارث » كان للرجل إذا احتضر أن يوصي بماله لوالديه ؛ لأن الله ذكر ميراثهما ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ﴾ ، فإن لم يوص لهما كان لهما الميراث بآية الموارثة .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٠ .

(١) انظر النص ١٤٥١ ظ .

(٣) سورة النساء آية ١١ .

(٤) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي ، وفي طبقات ابن سعد ج٢ ق ٢ ص ١٣١ ، وأحمد في مسنده ١٨٦ / ٤ و ٥ / ٢٦٦ ، والطحاوي في ١١٢٧ .

وقال أهل هذه المقالة : إنما الناسخ والمنسوخ ما ينفي حكم الناسخ حكم المنسوخ ، أن يحكم به على عين واحدة أو في حالين ، لتنافي ذلك في المعنى كقوله : ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(١) وقال : ﴿وَاللَّائِي يُمْسِنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾^(٢) ، فجعل عدة اللواتي حضن الاقراء ، واللائى لم يحضن لصغر أو كبر الشهور ، ثم نسخ من هؤلاء المطلقات اللاتى لم يدخل بهن ، فقال : ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾^(٣) ، فخرجن اللواتى لم يدخل بهن من حكم الآيتين جميعاً^(٤) .

وهكذا قد آثرنا ذكر موقف العلماء فى هذا المسألة .. لبيان الفرق فى التعارض بين آيات الاحكام وآيات العقيدة والتوحيد .. وأن ما يجوز فى الاولى - مع تحفظنا فى كونه نسخاً - لا يجوز فى الثانية .

ويحتوى القرآن على المحكم والمتشابه والمجمل والمفسر والمطلق والمقيد ؛ والعوام لا يدركون من ذلك شيئاً ، كما أنهم يقع فى مداركهم أوهم ليست من القرآن فى شئ ، ولذلك يقول الإمام أحمد : وفى القرآن الكريم آيات متشابهات لها تأويل لا يعقله العوام ولا الغيبة من الأنام ، ولها أيضا معانى دقيقة فى لغة العرب تعرفها العرب فى كلامها ويجوز فى خطابها ، لما خاطبها رسول الله ﷺ . وعلى آله عن الله ، جل ثناؤه بلسانها العربى المبين ، الذى لا عوج فيه ولا عمابة فى نسقه ولا خفاء عنهم فى تصريحه ، ولذلك لزمهم به الحجة ، إذ هو عربى لا يخفى عليهم منه حرف واحد فما فوقه ؛ لانه عربى مبين ، كما قال الله ، عز وجل : ﴿٥٠﴾ .

وجدير بالذكر الإشارة إلى موقف المتكلمين من حال العامة ، إن جال بخاطرهم شبهة من التشبيه .. يقول الأشعرى : واختلف الناس فى العامة والنساء الذين على جملة الدين ، إذا خطر ببالهم التشبيه على مقالتين :-

(١) فقال فريق : عليهم أن يتفكروا فى ذلك ؛ ويتبعوا فى ذلك حجة .

(١) سورة البقرة آية ٢٢٨ .

(٢) سورة الطلاق آية ٤ .

(٣) سورة الاحزاب آية ٤٩ .

(٤) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ٢١ / ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٥) انظر النص ١٣٩٠ و .

(٢) وقال آخرون : ليس ذلك بواجب عليهم ؛ وقد يجوز أن يعرضوا عنه فلا يعتقدوا فيه شيئاً ، ولكن عليهم أن يعتقدوا إن كان ناقضاً للجمله التي هم عليها ، فهو باطل ^(١) .

ومن عدل الله عز وجل ، ورحمته بعباده أنه يخاطبهم بما يعقلون عنه بمداركهم وما أعطاهم من حواس وعقل ويفهمونه : وليس يجوز في عدل الله ، جل ثناؤه ، أن ينهى عن أمر لا يقدر أحد على دفعه عن نفسه ، ولا يجوز أن يحذرنا عن أمر لا نعقله ، ولا نقف على كیفیته ولا نهتدى إلى وصفه ، ولا ندرى حتى يقع بنا من ليل أو نهار ... لأن هذا ليس من صفة العادل الحكيم الرحيم المتفضل الحسن الفعل الذي لا يجوز ولا يظلم ^(٢) .

والله ، عز وجل ، لا يجوز ولا يظلم ولا يفعل قبيحاً ، كما يزعم المجبرة .

ومما لا يعقل في حق الله ، تبارك وتعالى ، أن يحذرنا النار ثم يدس علينا شخصية إبليس لنقع فيها ... وبعد أن يقدم لنا الإمام أحمد مثلاً يقيس عليه فعل الحق تبارك وتعالى بنا فلا يجوز في ذاته تعالى أن : « يحذرنا من النار ومن عمل يقربنا إلى الخلود منها أهد الأبيد .. ثم يدس إبليس وجنوده في خفاء فيأتونهم من الموضع التي لا يقدرון الحذر منها ... » ^(٣) .

وقد جاء بعد الإمام أحمد من استفاد من نظريته في فهم التشابه في القرآن الكريم ، ومن هؤلاء القاضي عبد القاهر المبرجاني في «دلائل الإعجاز» والزمخشري في «الكشاف» و«الأساس» .. حيث أبدع الأول نظرية النظم ؛ وتحدث الثاني عن التفسير البياني للقرآن الكريم ، وقد بين ذلك بوضوح الإمام يحيى في كتابه «الشامل» ، و«الرائق» ^(٤) .

(١) الأشعري : المقالات ٢١ : ١٠٣ .

(٢) انظر النص ١٤٢٠ ظ

(٣) انظر النص ١٤٣١ و .

(٤) انظر الرائق في تنزيه الخالق بتحقيقنا والدراسة التي عليه . ص ١٦٠ - ١٦٢ .

٣ - المنهج واللغة

ويتابع الإمام أحمد فى رسم خطوط المنهج وخطواته فيقرر أن هناك من آيات القرآن ما لا يفهم إلا فى ضوء معانيها وما تنصرف إليه من لغة العرب فيذكر الفرق بين الحقيقة والمجاز ، واللغة العربية مجازية ، فيقول : « ومن الحجة لنا على من خالفنا وصرف معانى القرآن على ما يظن هو ، قول الله ، عز وجل : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(١) ... ولا يعقل أنه خلق من عجل ولكن العجل منه هو .. فيقول : إن أهل اللغة واللسان العربى يقولون : إن مجاز ذلك مثل قولهم عرضت الدابة على الماء . يعنى الماء على الدابة ، ومثل قوله ، تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ^(٢) ، وإنما الوجه أن تكون العيشة مرضية ^(٣) .

ورد الزمخشري على من تسائل بقوله : لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ^(١١) ، ^(٤) ، اليس هذا من تكليف ما لا يطاق ؟ .. وأجاب بقوله : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ، لأنه أعطاه القدرة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة ^(٥) .

أما الآية الثانية «فراضية» منسوبة إلى الرضا ؛ كالدارع والنايل ، والنسبة نسبتان : نسبة بالحرف ، ونسبة بالصيغة . أو جعل الفعل لها مجازاً وهو لصاحبها ^(٦) . ويقول ابن قتيبة فى كتابه «مشكل القرآن» : ومنه أن يجئ المفعول به على لفظ الفاعل ^(٧) .

كقوله سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ ﴾ ^(٨) أى لا معصوم من أمره .

وقوله : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ ^(٩) ، أى مدفوق ^(١٠) .

-
(١) سورة الانبياء : آية ٣٧ .	(٢) سورة الحاقة آية ٢١ .
(٣) النص ١٤٧١ و .	(٤) سورة الإسراء آية ١١ .
(٥) انظر الزمخشري : الكشاف ٦٥١ / ٢١ .	(٦) المصدر السابق : ٦٠٣ / ٤ .
(٧) ابن قتيبة : مشكل القرآن ١ ص ٢٧٥ حتى ٢٩٨ .	(٨) سورة هود آية ٤٣ .
(٩) سورة الطارق آية ٦ .	(١٠) انظر فى ذلك مجاز القرآن لأبى عبيدة ٣١ / ٢٦٨ .

وقوله : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ ^(١) ، أى مأموناً فيه .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ^(٢) ، أى مبصراً بها .

والعرب تقول : ليل نائم ، وسر كاتم ، قال « وَعَلَةُ الْجُرْمَى » :

ولما رأيت الخيل تترى أئامجاً .. علمتُ بأن اليوم أحمرُ فاجرُ

، أى يوم صعب مفجور فيه ^(٣) .

وهذا ما يسميه علماء اللغة والبلاغة المقلوب من الكلام ، فيقصد المتكلم اسم

المفعول ويذكر اسم الفاعل أو العكس . وهو انواع عديدة غير ما ذكرنا .

(١) سورة العنكبوت آية ٦٧

(٢) سورة الإسراء آية ١٢

(٣) انظر الأصمعيات ، ص ١٩٨ .. وهو مطلع قصيدة من بحر الطويل .. وانظر المعاني الكبيرة لابن قتيبة كذلك ،

. ٩٤٦/٢

٤ - عرض السنة على الكتاب

ومن القواعد التي يذكرها كذلك الإمام أحمد لتفادي أكاذيب القصاص والمحدثين على رسول الله ﷺ ، عرض السنة على الكتاب : وأما ما روي من الأحاديث في الشيطان ، وما أكثروا الرواية في ذلك عن النبي ﷺ ، وغيره فما أمكن التأويل في القرآن كان التأويل في الأحاديث أجدر وأحرى ، وليس كل حديث روي يجب أنه حق ، لما قد عرفنا من كذب كثير من الأحاديث مما يبطله القرآن .

وقد قال صلوات الله عليه وعلى آله وسلم : « ما آتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق الكتاب فهو منى ، وأنا قلته » ، وما خالف الكتاب يمكن تقريره بالقاعدة التالية :-

١ - التثبت من الحديث سنداً وممتناً .

٢ - إذا خالف الحديث ، الصحيح السند ، صريح القرآن يرد إلى التأويل ، ما أمكن ذلك ، في ضوء الكتاب .

٣ - إن استحال التوفيق ، أو تأويل الحديث ، بعد عرضه على كتاب الله يرد؛ الحديث لمخالفته لحكم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وحتى لا يبطل الكتاب والسنة جميعاً ، وهى قاعدة يوافقه عليها أغلب المحدثين .

وقد اختلف العلماء في موضوع نسخ القرآن والسنة - عند من أجاز النسخ - فقالوا: هل يُنسخ القرآن بقرآن أو بسنة ؟ والسنة هل ينسخها القرآن أولاً ينسخها إلا سنة مثلها ؟ .. وجاءت آراؤهم على أقسام :-

(١) فقال قوم : لا ينسخ شئ من القرآن بسنة رسول الله ﷺ ، .. وهذا صحيح إن سلمنا بجواز النسخ في القرآن وهو موضوع طويل ، غير أن كثيرين من القائلين بالنسخ في القرآن الكريم ، يقصدون به التدرج في التشريع .. وإلا كيف يجوز البداء على الله ؟

(٢) وقال آخرون : السنة تنسخ القرآن وتقضى عليه ؛ والقرآن لا ينسخ السنة ولا يقضى عليها . واكثر هؤلاء من المحدثين .. وهو كلام يحتاج إلى نظر .. إذ كيف تقضى السنة بنسخ الكتاب ووجودها من وجوده .. ولم يكن النبي نبياً إلا بالوحي المنزل من السماء ؟ .. والأصح أن السنة مبينة للكتاب وموضحة لمقاصده .. فالشرع كتاب وسنة لا يتناقضان حتى يقال بالنسخ بينهما .. إلا إذا كان توجيهاً وتصحيحاً لمسيرة الدعوة في زمن التنزيل ، كما حدث في أسرى بدر مثلاً .. فقد قضى الرسول ، ﷺ ، بحكم .. وعاتبه الكتاب على ذلك وبين له الحكم الآخر .. أو كما فعل الرسول ﷺ ، مع عبد الله بن أم مكتوم ، رضى الله عنه ، اجتهداً منه .. ولامه الوحي في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١)﴾ (١) ..

(٣) أما من قال بأن القرآن ينسخ السنة ، والسنة لا تنسخ القرآن .. فهو أقرب للصحة والصواب لما ذكرنا من قبل .

(٤) أما مقالة الفريق الأخير التي قال فيها : إن القرآن والسنة حكمان من حكم الله ، عز وجل ، العلم والعمل بهما على الخلق واجب ، فجائز أن ينسخ الله القرآن بالسنة ، وأن ينسخ السنة بالقرآن ؛ لأنهما جميعاً حكمان لله ، سبحانه ، ينسخ من حكمه بحكمه ما شاء (٢) .

وهذا الفريق يبدو من كلامه الرحمة ، إلا أن النقاش معه يطول بداية من زعمه أن الله حفظ السنة كما حفظ الكتاب .. وكونهما بمنزلة واحدة .. ونهاية بقضية النسخ .. فهل تنسخ السنة الكتاب ١٤ .. ومناقشة هذا الفريق تطول لكثرة جداله .. وتطبيقه الخطأ على مفاهيم لا نسلم بها أصلاً .

* الأمثال في القرآن الكريم :

كما ذهب الإمام إلى أن هناك من آيات الله في القرآن الكريم ما هو ضرب للأمثال لتقريب المعاني للمفاهيم قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ (٤٢)﴾ (٣) .

(٢) الأشعرى : المقالات ٢١ / ٢٥١ .

(١) سورة عبس آية ١

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٣

فأخبر أنه قد ضرب أمثالاً لا يعقلها إلا العالم بها ، وليس يجوز قولهم في الوسوسة على أحد له أدنى عقل ؛ إذ لا حجة معهم توجب قبول ذلك ممن خالفهم ، « والدليل على الخلق الاضطرار إلى قبوله ، وليس معهم في الوسوسة حجة تضطر أحداً إلى قبولها ... »^(١) .

وتفسير هذه الآية يساعد في فهم المراد من النص ؛ فقد كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذهاب والعنكبوت ويضحكون من ذلك ، فلذلك قال : ﴿ وَمَا يَخْلُهَا إِلَّا الْفَعْلُونَ ﴾^(٢) ، أى لا يعقل حسننها وفالذتها إلا هم ؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي طرق إلى المعاني المحتججة في الأشياء ، حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للفهم ، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحاول الموحد ، وعن النبي ، ﷺ ، أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه »^(٣) .

ويقول الإمام أحمد في هذا الصدد : « هذه الأمثال والمعاني تحتاج إلى التأويل وطاعة العلماء والمستخلفين من أهل بيت النبوة ، عليهم السلام .. لأنه لا يعقلها إلا أهل العلم ولا علم لمن جهل معدن الحق وقدر النبوة وخيرة الأمة »^(٤) وما عظم المهجرة إبليس ورفعوا من شأنه إلا لجهلهم وتجاوزهم في عقائدهم ، فأشركوا من حيث لا يدرون شركاً كبيراً حيث نسبوا له قدرة خارقة وأعمالاً لا يأتى بها إلا الله الواحد .

ومن الأمثلة التي ذكرها الإمام أحمد من القرآن الكريم ، التي ضربها الله ، عز وجل ، للتفهيم والتقريب ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(٥) والسموات والأرض لم تقبل ولم تات على وجه الحقيقة ، وإنما هو مثل لأنها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا ترى ولا تتكلم وليس لها وجدان أو عاطفة بها تشعر ، ولكنه مثل منه ، عز وجل ، يفيد أنها لو كانت تعقل كما يعقل الإنسان وتفهم كفهمه لما حملت الأمانة كما حملها ، ولاشفقن منها^(٦) .

(٢) سورة العنكبوت آية ٣٤ .

(١) النص ١٤٩١ و .

(٣) الزمخشري : الكشاف ، ٣ / ٤٥٥ ، وبهامشه أخرج الحديث داود بن الجبر .. والواحدى والبخارى ، وذكره ابن الجوزى في الموضوعات .

(٥) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

(٤) ، (٦) انظر النص ١٤٩١ و .

ويذكر الطبري في تفسير هذه الآية والتي بعدها ، أن الله ، جل ذكره ، لما استخلف آدم على ذريته ، وسلطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطيور والوحش - عهد إليه عهداً أمره فيه ونهاه ، وحرّم عليه وأحل له ، فقبله ، ولم يزل عاملاً به إلى أن حضرته الوفاة .

فلما حضرته ، ﷺ ، سال الله أن يعلمه من يستخلف بعده ، ويقلده من الأمانة ما قلده فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ، ومن العقاب إن عصى ، فأبين أن يقبلنه شفقاً من عقاب الله .

ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال ؛ فكلها أباه ، ثم أمره أن يعرضه على ولده ؛ فعرضه عليه ، فقبله بالشرط ، ولم يتهيب منه ما تهيبته السماء والأرض والجبال . . . ولذلك كان « جهولاً » بعاقبة ما تقلد لربه ^(١) . .

وبعد أن عرض بعض الاجتهادات الأخرى في تفسير الآية ، قال الطبري : « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، ما قاله الذين قالوا : إنه عني بالأمانة في هذا الموضع جميع الأمانات في الدين وأمانات الناس . وذلك أن الله لم يخص بقوله : « عرضنا الأمانة » بعض معاني الأمانات ، لما وصفنا » ^(٢) .

ومن قواعد اللغة التي ينبغي مراعاتها وملاحظتها عند النظر في القرآن الكريم ما يذكره الإمام أحمد ، وهو جواز مخاطبة الجميع بما يصح إطلاقه على الفرد ، فقال : « يجوز في لغة العرب التي يخاطب بها ، الجميع بالشئ الذي هو في البعض دون الكل .

والذي يقول عنه ابن قتيبة « باب في مخالفة ظاهر اللفظ معناه » ويذكر أن منه أن يجتمع شيان لأحدهما فعل ، فيجعل الفعل لهما ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيًا حُوتَهُمَا ﴾ ^(٣) مع أن الذي نسى هو يوشع بن نون ، أما موسى ، عليه السلام ، فلم ينس ^(٤) .

(١) انظر تفسير الطبري ٢٢٤ / ٣٨ - ٤٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢٢١ / ٤١ .

(٣) سورة الكهف آية ٦١ .

(٤) انظر ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٨٦ وما بعدها .

ومن أهم دواعى نقد المجبرة جهلهم بالعربية ومعانيها فى القرآن الكريم ، وفى ثنايا هذه الرسالة يقول الإمام أحمد معلقاً على سذاجة تفكير المجبرة : « فقد بان هذا وصح ، وبطلت فيه دعوى كل كاذب على الله ، عز وجل ، وعلى كتابه ، إذ جهلوا القرآن ومعانى اللغة العربية فيه »^(١) .

فهل كان العرب يعرفون معانى القرآن الكريم ، ويميزون بين الحقيقة والمجاز والكناية والاستعارة ، واختلاف المعنى مع اتفاق اللفظ والعكس وغير ذلك ؟ ..

يقول الإمام أحمد : « وللقرآن معانى تحتاج إلى التأويل والمعرفة باللغة التى خاطب الله ، عز وجل ، بها رسوله ، صلوات الله عليه ، وخاطب بها رسوله الله ، ﷺ ، العرب الذين عرفوا عنه ما تلا عنهم ، ولم يخف عليهم من ذلك حرف واحد فى التلاوة ، ولا فى التأويل ؛ لأنه لو عيى عليهم حرف واحد ؛ لقالوا : هذا حرف لا نعرفه فى اللغة العربية ، ولو جهلوا شيئاً من القرآن لم تلزمهم به حجة »^(٢) .

(١) النص ١٣٨٤ و .

(٢) النص ١٥١٤ ظ .

٥ - المنهج والعقل

يأتى بعد ذلك لتسمام خطوات المنهج المعرفى الإسلامى مراعاة قواعد النظر والاستدلال العقلى ، فإذا كانت المعرفة نصية تعتمد على النقل والوحى ، فالجانب الآخر منها هو العقل ، وللعقل أدوات للإدراك يشير إليها الإمام أحمد فى رسالته فيقول : « لا نعقل الوسوسة والأمر بالفحشاء ولا وعد الفقر إلا على قدر البينة التى نبأنا الله ، عز وجل ، عليها وما جعل لنا من الإدراك بالحواس الخمس وبخاطر العقل .. وليس البينة التى نحن عليها تعقل الأشياء ولا تصل إلى علمها إلا من هذه الجهات ، وهى الحواس الخمس = التى لا سبيل لبنى آدم إلى شئ مما يدركونه إلا بها - وقد سقطت كلها عما ادعوا ، وإن إبليس لم يأتنا قط من قبل الحواس الخمس .

وقد أكد الإمام أحمد على أثر الإدراك الحسى فى المعرفة فخاطب المجبرة فى ادعائها الوسوسة بأنه يلزم عن ذلك أنه لا يعقل إلا بإدراك الحواس الخمس ، وقد صح أن الحواس لا تدرك إلا ما كان محسوساً ، ولذلك سميت الحواس لحسها الأشياء كلها ، وإدراكها لها كلها ؛ ولذلك يقع عليها التأديب والتكليف بالأمر والنهى والجزاء بالشواب والعقاب ^(١) .

ثم بين أهمية هذه المدارك فى النظر والاستدلال على قضية الوجود والتوحيد ، وقد نوه القرآن الكريم ونبه إلى أهمية التفكير والتدبر والتذكر والتأمل فى ملكوت السموات والأرض والآنفس والآفاق لإدراك العبرة فيها وإعجاز خالقها وحكمته وتامل الإتيان فى صنعها ؛ فإذا عطلنا الإدراك الحسى والعقل فقد أبطلنا الشرع والعقل جميعاً ولا خطاب لمن لا عقل له .

وعلى هذا فكل ما لا تدركه الحواس فلا حجة فيه عليها لله الواحد ، ولذلك كان ﷺ يؤكد على أنه رفع القلم عن ثلاث النائم حتى يستيقظ وعن الطفل حتى يبلغ وتكتمل أدوات المعرفة عنده ، وكذلك يسقط التكليف عن المضطر ؛ لكون الحرية شرط فيه ، والمجنون والساهى لامتناع وجود العقل : « ما لا تدركه الحواس فلا

حجة عليها فيه لله الواحد ، الذى لا يدرك بالحواس ، وبذلك وجبت له الوجدانية ؛ واستحق الربوبية ، إذ لا يدرك ولا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس^(١) . وعلى هذا فإن إدراك التكليف شرط من شروط قبوله .

٦ - الحواس

ولاهمية الحواس فى تحديد معالم المنهج العقلى يجدر الإشارة إلى أن القدماء شغلوا بتحديد ماهيتها إلى مذاهب مختلفة ..

١- فقالت المانوية : الإنسان هو الحواس الخمس وأنها أجسام ، وإنه لا شئ غير الحواس ؛ لأن الأشياء عندهم شيان نور وظلمة ، وينقسم النور إلى خمس حواس ، وكذلك الظلام : هى السمع والبصر والذوق والشم واللمس ..

٢- أما الديسانية ، وهى ديانة شرقية كذلك ، تؤمن بالاثنيانية فقد نفت عن الظلام الإحساس ؛ لأنه عندها موات جاهل ؛ وأثبتت للنور الحياة وبالتالى الإحساس ؛ بنفسه .. وكذلك أثبتت وحدة الحواس وإن اختلفت المدارك لاختلاف الأعراض .. وحاولوا تفسير خلق الألوان ، رغم أن العالم عندهم لونين هما الأبيض والأسود ، اللذان يرمزان للنور والظلمة ، بأن اختلاط الاثنين وامتزاجهما أدى لهذه النواتج اللونية .

٣- وقدم المرفونية تفسيراً لماهية الذات الإنسانية ، أقرب للفكر الفلسفى الشرقى القديم ، فقالوا بأن البدن كل مجموع من الروح والحواس الخمس ، ومع ذلك تتمايز الجسمية / البدن ، عن الروح / القلب / النفس ، عن الحواس .

٤- أما من أنكر الأعراض فقد أنكر الحواس ، أو بمعنى أصح أنكر الإدراك الحسى ، وأثبتوا مع ذلك سماعياً بصيراً ؛ دون إثبات للسمع والبصر .. وكلامهم جدلى بحث ليس فيه من العقل شئ ، حيث أثبتوا ونفوا ما أثبتوا .

٥- ولكن الإسلاميين أثبتوا الحواس الخمس .. وأخذوا يبحثون عن حاسة سادسة اختلفوا فى تحييدها .. كما أنهم ميزوا بين الإدراك والحاسة التى يدرك بها الإنسان .. ولذلك تسائلوا هل الحواس جنس واحد ؟

وهل الشم والذوق واللمس إدراك للمشموم والمذوق والملموس ، كما بحثوا كيفية رؤية الأجسام والأعراض .. وهل هذه الحواس تدرك المحسوسات بنفسها أم بغيرها .. وما سبب الإدراك ، بمعنى هل تدرك الحواس باختيارها أم لعل طارئة عليها ١٩

كما تطرقوا إلى قضية محل الإدراك من جسم الإنسان، هل يدرك الإنسان المثلثات بعينه فقط ، أم أن العين وسيلة حسية حتى ينتهى الإدراك إلى محله الأصلي ، وهو القلب / العقل ، (١) .

وقصدت من ذكر ما سبق إلى بيان أنه قد كان فى تاريخ الفكر الإسلامى تياراً واعياً يدرك الأشياء إدراكاً متكاملأ .. وله قدرة على تحديد القضايا وتحليلها وتفسيرها .. فى مقابل تيار آخر أشبه بالراوى والقصاص فى صعيد مصر .. لا تخرج دائرة المعرفة لديه عن بعض الحكايات التى ورثها أو جمعها من رحلاته بين البلاد .. ولذلك هو لا يضيف ولا يبدع فى المعرفة ، وحدود ما يعرف هو تلك الخبرة المتوارثة المنقولة .. ولذلك يستهلكها حكاية ونظراً .. ويفسر بعضها ببعض .. وربما كان هذا القصاص وأمثاله أحد زوايا مثلث التخلف فى تاريخ الفكر ؛ لأن لكل مشكلة حلاً جاهزاً أبدعه القدماء ، لا ينبغى تجاوز أبعاده بحال من الأحوال .. وهذا التيار هو تيار التكفير والتفسيق والإرهاب الفكرى فى كل زمان، ولا نتجاوز إن سميناه **الأصولى المتزمت** .

ففى حين يؤصل القدماء للمنهج وحدوده وأبعاده ، والأطر التى تفيد الممارسة العلمية وتنميتها .. يبقى هذا التيار المتزمت حاصراً نفسه فى مروياته العاجزة .. والغريب هناك من يصدره دائماً ليتحدث باسم الإسلام، حتى فى زماننا ، ليعيرنا به ١١

(١) انظر الاشعرى : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، الجزء الثانى ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٥٩ ، ٦٠ .

٧ - المنهج وإنصاف الخصوم

كما بين الإمام أحمد أن من أهم أسس المنهج النقدي للخصوم ، هو ذكر مقالاتهم على وجهها - دون تشويه - كاملة ، ويعد ذلك من الإنصاف ؛ كما أنه يسلم لهم إن جاءوا بحجة قاطعة : « ونحن من بعد هذا كله نقول لهم إن جاءوا بحجة قاهرة ودلالة باهرة تشهد عليها عقولنا وعقول من سمعها من غيرنا ، سلمنا لهم »^(١) .

والعكس صحيح « فإن لم يأتوا بحجة توجب لهم علينا أن لإبليس اللعين الدليل الضعيف ، قدرة أقدره الله ، عز وجل ، كقدرته هو تبارك وتعالى الذي لا يقدر على مثل قدرته أحد غيره ، فالقول قولنا والحق معنا دونهم »^(٢) .

ولا يعد إنصاف الخصوم شكاً في الحجج ولكن من تمام إقامة المنهج وصحة المناظرة والمجادلة بالحسنى التي من أهم أهدافها الوصول إلى الحق لانصرة الرجال والمذاهب أو تقليد الرؤساء والكبراء والأجداد ؛ ولذلك يشير الإمام أحمد أنه لم يأت بدعاً من القول فقد سبقه جده الإمام على بن أبى طالب في ذلك الأمر عندما تجادل مع الخوارج في شأن موقفه من التحكيم ورميهم له بالشك في نفسه فرد عليهم بقوله : إنما قلت هذا من طريق الإنصاف ، وقد قال الله ، عز وجل ، لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٣) وقد علم ، صلوات الله عليه ، أنهم لا يأتون بكتاب أهدى من كتابه أبداً ، وإنما هذا لحد الإنصاف ...^(٤) .

وقد ورث الإمام أحمد من جده الإمام القاسم الرسى ت ٢٤٦ هـ هذا الإنصاف في مجادلة الخصوم .. كما ورث من أجداده كذلك أدب الحوار والجدل ، وهو سمة بارزة وراسخة في المنهج الإسلامى ، قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٥) .

وعلى قدر ما دعا القرآن إلى الجدل بالحسنى والنصح والوعظ للخصوم ، والأدب في الحوار .. فقد نفر من الجدل المغالطى ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا

(٣) سورة القصص آية ٤٩ .

(٥) سورة النحل آية ١٢٥ .

(١) ، (٢) انظر النص ١٤٩١ ط ،

(٤) النص ١٥١١ و .

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١﴾ .. وكره المجادلة دون علم أو نظر : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٢) .

يقول الإمام القاسم : « فلا بد لمن أنصف خصماً في منازعته له ومجادلته ، من ذكر مايرى الخصم أن له حجة من مذهبه ومقالته ، فإذا ذكر ذلك كله ، بان ما فيه عليه وله ، فكان ذلك لباطله أقطع ، وفي الجواب له أبلغ وأجمع » (٣) .

وقد جادل خصومه من النصارى ، مراعيّاً أبعاد وحدود هذا المنهج : « والنصارى فهم خصماؤنا في الله ، فلا بد من تبين ما افتروا فيه على الله ، وهم ممن قال الله فهم : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (٤) ، ومن الذين قال فيهم : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (٥) ، فهم في ذلك كغيرهم من كفره الاعم » (٦) ، أى لهم حق الإنصاف ، وعدم الجور عليهم أو الاعتداء على عقائدهم أو نفوسهم .

ثم قال : « فليفهم من قرا كتابنا هذا ، ما نصفه فيه من قولهم ، فننصفه بما يعلمه علماء كل فرقة منهم ، إن شاء ، ونعرفه ونستقصى لهم فيه كله ، ما استقصوا لانفسهم من المقال .. ثم نجادلهم فيه على الحق ، بالتى هى أحسن وأبلغ فى الجدل ، وندعوهم إلى سبيل ربنا وربهم ، بالحكمة والبينة ونعظهم ؛ إن شاء الله ، فيه بالمواعظ البليغة الحسنة » (٧) .

هكذا كان المسلمون القدماء أكثر تسامحاً وأدباً فى الحوار ، ولديهم مساحة واسعة يعيشون فيها مع خصومهم فى العقيدة على أرض واسعة رحبة ، ومن وحى هؤلاء العظماء القدوة ينبغى أن نأخذ منهم سنة التسامح ، ومشاركة الآخرين فى كل ما تسمح به الظروف المعاشية ، فلا مانع من الشراكة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. طالما أن الآخر متفاهم أو مواطن ، فيكون له نفس حقوق المواطنة مثلاً بمثل ، دون أى انتقاص أو افتتاعات أو فتنة .. وهكذا نضمن للوطن أمنه وأمانه ، ونفوت على أعدائنا الحقيقيين فرصة الوقيعه بيننا .

(٢) سورة الحج آية ٨ .

(١) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

(٣) انظر القاسم الرسمى : الرد على النصارى ، ص ٣٢ بتحقيقنا .

(٥) سورة الحج آية ١٩ .

(٤) سورة لقمان آية ٢٠ .

(٧) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْقَاسِمِ

التَّكْلِيفِ

وفى إطار بيان شروط التكليف تحدث الإمام أحمد عن الاستطاعة وكونها لازمة لصحة التكليف ؛ فقد منح الله الإنسان الحرية والعقل والاستطاعة أى القوة والقدرة على الاختيار وترك له حرية أن يؤمن أو يكفر ، أو أن يفعل الطاعات وما كلفه به أو يتركه ويعصاه ، ورتب على ذلك الجزاء ، وهو من جنس العمل ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴿ (١) .

الإنسان محاسب بقدر ما منحه الله من الحرية والقدرة على استقبال التكليف وأدائها كما أمره ؛ فمن أكره أو اضطر الى فعل معصية أو الكفر به أسقط عنه التكليف وبالتالي لم يحاسبه لعدم وجود القدرة والاستطاعة والحرية فى الاختيار .. وكذلك سقط التكليف عن المجنون والنائم ، وقبلاً على ذلك سقط التكليف عن المريض إن كان مرضه سبباً فى عجزه عن أداء ما كلف به ..

ويؤكد القرآن دائماً على يسر التكليف ، ومعقوليتها وإمكانية إدراكها ومعرفة العلة أيضاً من تشريعها بالعقل ، وجعل الأولى شرطاً فى إقامتها أما الثانية فلا ، لأنه لا حصر لحكمة الله من التشريع فما أدركه الإنسان من علل التشريع ، فبتوفيق من الله وهدايته ، وما غاب عنه من حكمة بعض التشريعات فرحمة من الله به ، والله فضل يعطيه من يشاء من عباده .

عموماً قد أعطى الله كل المكلفين من عباده القدرة على الاستطاعة ؛ وكلفه ما هو فى طاقته ووسعته ، كما أنه جعل هذه الاستطاعة قبل الفعل ، لأن الله عز وجل فى عدله وحكمته ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ ، نطق بذلك الكتاب وشهدت به رسله (٢) .

ولذلك نقد الإمام أحمد المجبرة فى زعمها أن الاستطاعة بعد الفعل بانه يلزم من ذلك أنه قد أمره - أى آدم عليه السلام أو المكلف - بأمر هو خارج عن طاقته ، وأنه قد كلفه ما ليس فى وسعه ؛ وانتقض قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٣) و ﴿ إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (٤) . كما يلزم من ذلك اعتقاد المجبرة بإبطال القرآن وهو حجة الله التى لا ترد ولا تبطل .

(٢) انظر النص ١٤٨ و .

(٤) سورة الطلاق آية ٧ .

(١) سورة الزلزلة الآيات ٧ ، ٨ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

وإبليس من جملة المكلفين ، هو جميع الجن ، قال تعالى : ﴿ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ ^(١) ولذلك فهو وذريته وجميع الجن لهم استطاعه على الفعل فمن آمن منهم ، آمن باختياره ومن كفر وعصى كفر وعصى باختياره ، ولم يجبره الله على فعل أو اضطره إليه ^(٢) .

ويقول صاحب الكشف في هذه الآية : « أى وما خلقت الجن والإنس إلا لاجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها . ورد على التساؤل التالى : لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا كلهم عباداً ؟ .. فأجاب بقوله : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لانه خلقهم ممكنين ، فاختر بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها ، ولو أرادها على القسر والإجاء لوجدت من جميعهم ^(٣) .

وخطأ المجبرة فى زعمها أن الاستطاعة مع الفعل أو بعده ، بين واضح ، إذ كيف يتيسر للمكلف الاختيار بعد الاضطرار أو حدوث الفعل حسبما اتفق ؟ .. إنهم يصورون قضية الحق والوجود على أنها تمثيلية اضطر الخالق إليها ، وقد انتهى من حسم النتائج قبل بداية الخلق كما يريد ، خلقاً وأمرأ ، ولا يفرقون بين إرادة الخلق التى هى له ، وإرادة الأمر التى منح بها عباده - بقدرته - اختياراً حراً .

وإذا شئنا بعض التفصيل حول مسألة التكليف أخذنا فى بيان أن الاستطاعة والطاعة والقدرة والقوة ألفاظ مترادفة ، إذا أضيفت إلى العبد يراد بها كلها معنى واحد فى مصطلح أهل الأصول .

يقول المرحانى ت ٨١٦ هـ صاحب « التعريفات » عن الاستطاعة : « هى عرض يخلقه الله فى الحيوان ، يفعل به الأفعال الاختيارية . والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع والطاقة متقاربة المعنى فى اللغة ، أما فى عرف المتكلمين : فهى عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك .

والاستطاعة الحقيقية : هى القدرة التامة التى يجب عندها صدور الفعل ، فهى لا تكون مقارنة للفعل . والاستطاعة الصحيحة : هى أن ترتفع الموانع من المرض وغيره » ^(٤) .

(٢) انظر النص : الصفحة نفسها .

(٤) المرحانى : التعريفات ، ص ٣٠ .

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٣) الزمخشري : الكشف ، ٤ / ٤٠٦ .

فالمعاني الدالة على القدرة واحدة واختلفت الأسماء ، وعلامة اتفاق هذه الالفاظ فى المعنى ، أنك لو أثبت ببعضها ونفيت ببعض لتناقض الكلام ،^(١) .

وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين :

١- القسم الأول : المقصود به سلامة الاسباب والآلات وصحة الجوارح والاعضاء ، وهى المعينة بقوله تعالى : ﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾^(٢) . قيل هى الزاد والراحلة^(٣) .

وبقوله : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾^(٤) ، أى لم يكن له الآلات السليمة والاسباب الصالحة ، وبقوله تعالى : خبراً عن أهل النفاق : ﴿ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾^(٥) ، أى لو كانت لنا الآلات السليمة والاسباب .

وصحة التكليف تعتمد على هذه الاستطاعة ، إذ العادة جارية أن المكلف لو قصد اكتساب الفعل عند سلامة الاسباب وتوفر الآلات ، لحصلت له القدرة الحقيقية ، وإنما لا تحصل له لاشتغاله بضد ما أمر به ، فصار مضيقاً لحقيقة القدرة^(٦) .

٢- أما القسم الثانى : الاستطاعة التى هى حقيقة القدرة ، وهى المعينة بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾^(٧) ، ألا ترى أن الله ، تعالى ، قد ذمهم بذلك ، والذم إنما يلحقهم بانعدام حقيقة القدرة عند وجود سلامة الاسباب وصحة الآلات ، لا بانعدام سلامة الاسباب وصحة الآلات ؛ لأن انتفاء تلك الاستطاعة لا يكون بتضييعه ، بل هو مجبور ، فلم يلحقه الذم بالامتناع عن الفعل عند انتفائها^(٨) .

والاستطاعة الثانية عرض .. تحدث عند الأشاعرة والماتريدية مقارنة للفعل .. ولكن المعتزلة خالفوهم فقالوا بأنها تقدم الفعل وتسبقه ، قال القاضى عبد الجبار :

(٢) سورة آل عمران آية ٩٧ .

(٤) سورة المجادلة آية ٤ .

(١) القاضى عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة ، ص ٣٩٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٥) سورة التوبة آية ٤٢ .

(٦) انظر النسفى : كتاب التمهيد لقواعد التوحيد ، ص ٢٥٨ .

(٧) سورة هود آية ٢٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

« القدرة متقدمة لمقدورها غير مقارنة له » ^(١) . وكذلك قال الخياط في كتابه « الانتصار » ^(٢) ، ووافقهم الزيدية في أن الاستطاعة قبل الفعل ^(٣) .

أما الضرارية أتباع ضرار بن عمرو فقد وافقوا الماتريدية والأشاعرة في القول بخلق الأفعال وفي نفى التولد ، ووافقوا المعتزلة والزيدية في الاستطاعة ^(٤) أما النظام فقد كان يرى أن الإنسان قادر بنفسه ^(٥) ، ونفى الأسواري وأبو بكر الأصم الاستطاعة إذ إنها ليست معنى وراء المستطيع .. بل الإنسان مستطيع بنفسه ^(٦) ..

وعند تحليل رأيهما نجد لفظي لا يعبر عن شيء ، إذ إنهما يريان الاستطاعة مركبة في الإنسان يستدعيها قبل فعله .. وهو كذلك صحيح .. ولكن جاء الخلاف من أن الآخرين ذهبوا أنها غير الإنسان .

والدليل على أنها معنى وراء الجسم ، هو أن نجد رجلاً سليم الجوارح يحمل مرة حملاً مقداره خمسين رطلاً ، ثم يحمل بعد ذلك حملاً آخر مقداره مائة رطل ، دون زيادة في أعضائه !!

ويوافق الماتريدية والأشاعرة المعتزلة في أن الاستطاعة ، التي هي بمعنى سلامة الأعضاء والآلات ، سابقة على الفعل .. وخالفوهم في الثانية فقالوا القدرة إنما تكون ليحصل بها الفعل ، فلو كانت مقارنة للفعل لما كان حصول الفعل بالقدرة أولى من حصول القدرة بالفعل والقول به محال ^(٧) .

قال القاضي : وه الذي يدل على فساد مذهبهم - أي الأشاعرة - هو أنه لو كانت القدرة مقارنة لمقدورها ، لوجب أن يكون تكليف الكافر بالإيمان ، تكليفاً لما لا يطاق ، إذ لو أطاقه لوقع منه ، فلما لم يقع منه دل على أنه غير قادر عليه ، وتكليف ما لا يطاق قبيح ، والله ، تعالى ، لا يفعل القبيح ^(٨) .

(١) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ٣٩٠ .

(٢) الخياط : الانتصار ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٩٦ .

(٣) انظر يحيى بن حمزة : الرائق ، ١٩٤ بتحقيقنا ، والاساس : للقاسم ، ص ١٠٥ .

(٤) انظر الشهرستاني : الملل والنحل : ١ / ١١٤ - ١١٦ .

(٥) انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ، ١ / ١٧٤ .

(٦) النسفي : التمهيد ، ص ٢٦٤ .

(٧) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ٣٩٦ . والباقلاني : التمهيد ، ص ٢٩٤ .

واتفق أغلب المتكلمين على أن من زعم بوجوب وجود الفعل ممن لا قدرة له ، واستحالة وجوده من القادر فهو عديم الحظ من العلم والعقل ^(١) .

« القائل إن العبد كلف بتحصيل فعل لا قدرة له عليه وقت الفعل ، قائل بتكليف ما يطاق ، ولو لم يكن هذا حماقة ووقاحة فلا وجود لهما في الدنيا » ^(٢)

وتأتى ثمرات التكليف موافقة لطبيعة اختيار العبد ، والله عادل عدالة مطلقة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ^(٣) ، فيعرض المطيع لأعلى درجات الثواب ، ويعاقب المسيء أو يعفو عنه برحمته وفضله ^(٤) .

ويشير القاضي عبد الجبار إلى ذلك : « وثمرته أنه ، تعالى ، إذ خلقنا وأحيانا وأقدرنا وأكمل عقولنا وخلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلا بد من أن يكون له فيه غرض ، وغرضه إما أن يكون إغراء له بالقبيح ، والتكليف لا يجوز أن يكون غرضه الإغراء بالقبيح ؛ لأن ذلك قبيح ، وقد ثبت أن الله ، تعالى ، لا يفعل القبيح ، فلم يبق إلا أن يكون غرضه بذلك التكليف ، وأن يعرضنا بالتكليف إلى درجة لا تنال إلا به » ^(٥) .

محاولة المكلف معرفة علة كل تكليف أمر مرهق ، ولا معنى له إذا شغله عن العمل ، أو رفض العمل بالتكليف حتى يعرف علة وقصد الله منه ؛ وهو أمر ليس في قدرة كل واحد من البشر ، وإن جاز عقلاً أن يتعاون جمع على دراسة علة جميع التكاليف الشرعية ، ولن يعرفوا كل الوجوه ؛ لأنهم لن يحيطوا بحكمة الله وعلمه .

وكما أن رد الشرع كفر فإن الحكم بعدم عليته مرفوض ؛ لأن المشرع حكيم عادل والحكمة صفة كمال ، وفعله يأتي موافقاً لحكمته وعدله ورحمته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ ^(٦) ، وقد قام علم أصول الفقه على معرفة العلة من الأحكام ، وتوظيف ذلك في خدمة القياس الشرعي بأنواعه المختلفة ^(٧) .

(١) التنقيح : المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) سورة يونس آية ٤٤ .

(٤) إمام عبد الله : الآراء الكلامية للقبشيري ، والصوفية ٣٢٥ .

(٥) القاضي عبد الجبار : المصدر السابق ، ص ٥١٠ . (٦) سورة الدخان آية ٣٨ .

(٧) إمام عبد الله : الآراء الكلامية للقبشيري والصوفية ، ص ٣٢٦ .

الفصل الرابع

حقيقة المجبرة في إبليس

١- يعتقد المجبرة أن إبليس قادر على أن يعدهم ويمنّهم ويوسوس إليهم ويغويهم ويأمرهم بالفحشاء والمنكر فيأثمرون بأمره ، وأنه قريب منهم قرب الملائكة وقرب الحق ، تعالى ، من حبل الوريد ، وأنه يوصل إليهم ما يريد ويلقيه في قلوبهم ، وهم لا يدرون كيف يحدث ذلك كله وحجتهم في ذلك آيات من كتاب الله - لم يدركوا تاويلها ولم يحسنوا فهمها - ومن ذلك قوله ، عز وجل :-

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (١)

﴿ لَكِنَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ (٣)

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (٤)

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٥)

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٦)

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٧)

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٨) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٩)

ففهموا من هذه الآيات أن الشيطان يفعل كل ذلك وزيادة ، ويأمرهم من حيث لا يرونه ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (١٠)

٢- ونفى أهل الوسطية والاعتدال هذا الافتراء على الله ، عز وجل ، وبينوا للمجبرة أنهم قد غلطوا وأخطأوا في التأويل والتعبير ، وحقيقة الأمر أن الله ، عز وجل ، حكى لنا في كتابه أن إبليس ومن أطاعه ، يريدون ويتمنون أن لو اتبعناهم وعصينا كما عصوا وكفرنا كما كفروا ، وهي مجرد حكاية كقول الرجل لابنه : افعل أو افعل كذا ..

(١) سورة البقرة آية ٢٦٨ .

(٢) سورة محمد آية ٢٥ .

(٣) سورة الإسراء آية ٦٤ .

(٤) سورة الزخرف آية ٣٦ .

(٥) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٦) سورة الأنعام آية ٤٣ .

(٧) سورة يوسف آية ٤٢ .

(٨) سورة المائدة آية ١٠ .

(٩) سورة الأعراف الآيةان ١٦ ، ١٧ .

أما إنه أراد ، تعالى ، أن يثبت لإبليس ومن تبعه من الجن والإنس قدرة على خلقه وأفعالاً خارقة تلهيهم عن طاعته وذكره وأن لهم سلطاناً على قلوب عباده كسلطانته ، فهو باطل من القول وافتراء وزوراً ، فلا إبليس ولا غيره من الجن قادرون على أن يلقوا إلينا قليلاً أو كثيراً لا سراً ولا علانية ولا مواجهة ولا فى خفاء . قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦) ﴿ (١) .

فمن أين أتى لهذا الضعيف الكيد الذليل النفس الحقير الشأن ، هو ومن تبعه إلى يوم الدين ، الذى لحقته لعنة رب العالمين فى الدنيا والآخرة ، كل هذه القدرات الخارقة التى لم يمنحها الله للملك مقرب ولا لنبي مصطفى ولا لولى مختار ؟

٣- إن من يعتقد هذه العقيدة فى إبليس وأعدائه قد أشرك بالله رب العالمين شريكاً هو له عدو مبين ، وقدح فى توحيده وأفسده ، ومن أجل ذلك عليه أن يصحح عقيدته فى إبليس والجن ، وأن يضعهم فى حجمهم الحقير الذى شاء الله أن يضعهم فيه ، وأن لا يعدوا قدره فيهم فينسب لأعداء الله وشرار خلقه ما هو الله ، ذاتاً وصفاتاً وأسماء ، فيكفر من حيث لا يدري .

وأول ما ينبغى اعتقاده فى إبليس هو أنه خلق من خلق الله ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ (١٥) ﴿ (٢) ، ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ (٤٧) ﴿ (٣) .. وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٥١) ﴿ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) ﴿ (٥) .

٤- فإبليس من خلق الله ، وهو من الجن بنص الكتاب ، وقد أمره هو والجن بطاعته وعبادته ، كما أمر الإنس بطاعته وعبادته ، ولكنه وحده عصى ربه وفسق وفجر وأبى طاعة ربه .. فهو إذن مخلوق للطاعة لا للمعصية والفسوق وإغواء خلق الله .. وهو فى إغوائه لبنى آدم عاص لله فاسق .. ولا يمثل أمر ربه ، وكل من اتبعه من ذريته أو

(٢) سورة الرحمن آية ١٥ .

(٤) سورة الكهف آية ٥٠ .

(١) سورة النساء آية ٧٦ .

(٣) سورة الحجر آية ٢٧ .

(٥) سورة الذاريات آية ٥٦ .

من بنى آدم ، هم مثله فسقوا كفسقه وعصوا كعصيانه ، ولذا فهم له اتباع وهو لهم سيد ومتبوع .

فقد فسق باختياره ، والله ، عز وجل ، حذرنا من اتباعه ، ولأمننا عند اقتفاء نهجه وأثره فى المعصية ، ولا يمكن أن يحذرنا الله ، عز وجل ، شيئاً سلطة علينا أبداً ، ولو كان مكلفاً بإغواء الناس ، لكان مطيعاً لأوامر ربه فاعلاً ما كلفه به ؛ ولا يقول بذلك مسلم عاقل ؛ لأن فى ذلك نقض للقرآن وإبطال لآيات الرحمن ، وخروج من حظيرة الإيمان .

إن إبليس أمر بالعبادة والطاعة فعصى وفسق ، وهو فى عصيانه لأمر ربه ملوم .. ووجب عذابه بمعصيته .. ولم يقدره الله على خلقه ؛ لأن ذلك يلزم عنه كونه خالقاً مع الله قادراً قوياً ، وهو شرك يخرج من الدين .

إن المجبرة فى إدعائها أن لإبليس قدرات خاصة خالفوا القرآن وجعلوه شريكاً لله فى ملكه ومسلطاً من دونه على عباده ، ويلزمه من ذلك أنه خير من الأنبياء والأولياء والملائكة المقربين ؛ لأنه أعطى ما لم يعطوا من منزلة شريفة ومرتبة رفيعة ، وصارت خطراً عظيماً يحسدونه عليه ، ومن يجوز أن يكون للعاصي الفاسق ما لا يكون للطائع العابد ، فهو إما جاهل أو معاند كفور .

• • •

الْفَضْلُ الْخَامِسُ

إبطال مناعهم المجرية في إبليس منه وجوه

ذهب الإمام أحمد إلى إبطال حجج المجبرة فيما نسبوه لإبليس من قدرات فائقة على الخلق بها يوسوسهم ويغويهم عن سواء السبيل بما يلي :

١- الحجة الأولى : وتمثلت في أن كل ما ادعوه من آيات القرآن وذكر فيها ، تعالى ، وسوسته لنبي آدم بمنصرف إلى الهوى ، الذى بهواه الناس مع شيطان بنى آدم أيضا . . وإنما الهوى شيطان ؛ لأنه رضا للشياطين ^(١) .

قال تعالى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أُغْفَلَاتِهِ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ ﴾ ^(٤) .

٢- الحجة الثانية : أن الذى يعد الناس ويمنيهم هو شيطانهم من الإنس لا الجن ، والناس عاجزون من جميع الوجوه فى صرف هذا المعنى إلى الجن دون الإنس ، فنحن وهم لم نشاهد أحداً يعد بالفقر وبامر بالفحشاء إلا شيطان بنى آدم : فكيف جاز لهم أن يقطعوا الشهادة على شيطان الجن دون شيطان الإنس ، ^(٥) ١٩ .

وقد أعلمهم الله ، عز وجل ، أن فى الإنس شياطين وفى الجن شياطين ، قال ، تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ ^(٦) .

وقال ، تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ^(٧) .

وعلى هذا يقطع أهل العدل والتوحيد بأن الله لم يقدر إبليس على ما يفعل من المعاصى والذنوب وإغواء الخلق ، وإلا لزم من ذلك فساد حكمة الحكيم وبطلان عدله : ولزمه أن حكمة الحكيم ها هنا غير حكمة ؛ وحسن نظره لخلق غير حسن نظر ، .. إذ أقدر عليهم عدواً باتيهم من حيث لا يعلمون ، وقد أمرهم بمخالفته بعدما أقدره عليهم ..

ويلزم من ذلك بيان كيف يعد إبليس ويوسوس لبنى آدم ، بما يتفق مع العقل

(٢) سورة النجم آية ٢٣ .

(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٦) سورة الانعام آية ١١٢ .

(١) النص ١٣٦١ ط .

(٣) سورة القصص آية ٥٠ .

(٥) النص ١٣٧٤ ط .

(٧) سورة البقرة آية ١٤ .

وتقبله مدارك الإنسان ؛ كما أنه يلزم من كلام المجبرة إقدار الله لإبليس على الاطلاع على القلوب وعلمه ما فى الضمائر وقدرته على تصريفها وتقليبها ، وهو أمر مدح الله به نفسه ولا يكون إلا له .

والتساؤل الذى يلزمهم هل هناك وسوسة أصلاً ، أم أنه فهم خطأ للقرآن وآياته ، وأن لها تأويلاً وتفسيراً وبياناً غفلوا عنه واستهواهم نسبة إله للشر ، كما فعل المجوس والمناوية والثنوية وعبداء الأصنام فى كل زمان ۱۹

وخلاصة القول أن الهوى هو الذى يدعو الإنسان إلى كل خير أو شر ، وهو الذى يوسوسه ولا فاعل لذلك غير الإنسان ، إذ لا قادر على تصريف القلوب وتصريفها سوى الله الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له .

ثم ما هو ذلك الوسواس المقصود فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يُوسُّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۖ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (٦) ؟ (١)

الوسواس هو ما يخطر على قلب آدمى ، من ذكره الجنة والناس ، لا أنه يوسوسونه فى صلاته .. فاما غير الصلاة فإن شياطين بنى آدم توسوس إخوانها بكل شئ مما تأمرها به ، وتشير عليها من القتل والزنا والسرقة والشرب للخمر وجميع المعاصى (٢) .

إن الهوى اعظم ألف مرة من إبليس فى إغواء الإنسان ، وقد سمى الله إلهاً ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (٣) .

إن إبليس وذريته يروننا من حيث لا نراهم ﴿ إِنْ يَرَاكُمْ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ وفى الآية نفى تام لأن يكون لإبليس وقبيلته حديث أو أى معاملة مع الإنسان .. ولذلك ينبغى تفسير العديد من الآيات التى يذكر الله فيها الشياطين إلى شياطين الإنس دون الجن ، فهم أقدر على إغوائنا ووسوستنا من شياطين الجن ، فشيطانك أيها الإنسان النفس والهوى المتبع ، وعدوك من شياطين الإنس الذين يقتدون بإبليس .

(١) سورة الناس آية ٥ . ٦

(٢) النص ١٣٩١ و .

(٣) سورة المجاثبة آية ٢٣

إن المجبرة تنسب علماً خارقاً لإبليس والجن ، لا يكون إلا الله تعالى أو من ارتضى من رسله ، فلا يعلم الغيب إلا الله ولا يطلع على غيبه سوى صفوة رسله الذين خصهم بعلم بعض الغيب ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) ﴿١﴾ .. وكل علم ينسبه المجبرة لإبليس هو الله ، تعالى ، دون غيره باطل ، ويدل على جهلهم بالتوحيد الخالص ، إذ كيف يعلم ما يعلمه الله ويتصرف في الملك كربه ، مع أنه ، تعالى ، وصفه بالضعف والصغار والذلة ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (٢) ولكن المجبرة لا يقدرّون الله حق قدره ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (٣) .

ثم إنه إذا كان إبليس يلقي في قلوب بني آدم مضطراً ، فمن الذى اضطره ؟! .. والله يقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ (٤) ﴿١﴾ وإذا كان فعلاً مضطراً فهو معذور .. ومن يفترى على الله الكذب فيدعى بعد ذلك أن الله اضطره إلى غواية عباده ، فقد كفر بالله وخرج من الدين وأسقط علم التوحيد ..

فقد حذرنا الله من إبليس وغوايته ، ودعاه إلى الهداية فما اهتدى وفضل العناد والمكابرة على أن يخضع ويستسلم لأمر ربه ؛ وجعل الله كل من يفعل فعله ويعصى عصيانه ويفسق ، كهو ، تماماً لا فرق بينهما .. ثم بعد ذلك تكذب المجبرة على ربها بادعائها أن الله وظف إبليس لإغواء خلقه ووسوستهم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى على الله كذباً﴾ (٥) !

ومن عجائب مقالة المجبرة في الوسوسة أن إبليس منقاراً ، يتوصل به إلى قلب الإنسان عن طريق أذنه فيوسوسه ! .. وهو كلام سخيف جداً لا يصمد لاي نقد .. فإى منقار هذا الذى له ، وكيف يدخل أذن آدمى دون أن يحس أو يدرك وجوده ؟!

والنتائج المترتبة على مقالة المجبرة السالفة الذكر تؤدي إلى إبطال المعرفة العقلية حيث أبطل المجبرة الإحساس بالمدارك الحسية ، كذلك الخروج عن حد العقل والدخول في الخرافة والجهل ؛ وتكذيب النص ومناقضة الإسلام .

(٢) سورة المائدة آية ٧٣ .

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(١) سورة الجن آية ٢٦ .

(٣) سورة الانعام آية ٩١ .

(٥) سورة الانعام آية ١٤٤ .

وما سبق ليس بمستغرب عليهم حيث كانت بعض البيئات التى قالت بالجبر، قد ابتدعت القول بالتشبيه من قبل ، وأنكرت الوعد والوعيد ، فأجازوا على الله ، عز وجل ، أن يخلف وعيده وتطرف بعضهم فأجاز أن يخلف وعده أيضاً...

ويبدو أن الذين أمروا على أن الله لا يخلف وعيده ، أو أوجبوا عليه تحقيق وعيده ، كما قال فى كتابه .. كانوا ينظرون إلى عدله ، تعالى ، والوجوب الذى قصده هو الوجوب الأخلاقى لا غير...

ويضاف إلى فضائحهم عقيدتهم فى إبليس هذه التى تناقض التوحيد وتنقضه من أساسه ، حيث جعلوه لله شريكاً ونداً وسوى .

٣- أما الحجة الثالثة : فى إبطال زعم المجبرة بأن لإبليس قدرة على الخلاق وبيان ضعفه وعجزه ، هو أن الله ، عز وجل ، لا يفعل الجور ولا الفساد ولا يضل العباد ولا يصددهم عن الرشاد ، وقد بين الإمام أحمد أن من تمام عدله ، تعالى ، أن يخاطبنا بما نعرف ونعقل ونفهم : « ولا يجوز أن يحذرنا عن أمر لا نعقله ولا نقف على كيفيته ولا نهتدى إلى وصفه .. لأن هذا ليس من صفة العادل الحكيم الرحيم المتفضل الحسن الفعل الذى لا يجور ولا يظلم » .

فالنفس هى التى توسوس الإنسان ، وليس إبليس ، قال تعالى ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ ^(١) فنفسه هى التى طوعت له قتل أخيه وليس إبليس ، وكذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ^(٢) .. وفى العقل لا يجوز أن يحذرنا الله النار ، ثم يدس علينا إبليس لنقع فيها ، فذلك ليس من صفات الحكيم .

٤- الحجة الرابعة : شهادة بعض العصاة المذنبين أنهم قد أتوا ما أتوا من أنفسهم ومن ذلك قول السامرى لموسى ، عليه السلام ، حين سألته عن العجل الذى صنعه من حلى بنى إسرائيل ولم زين لهم عبادته من دون الله فقال : ﴿ كَذَلِكَ سَوَّيْتُ لِي نَفْسِي ﴾ ^(٣) وأنكر أن يكون إبليس هو الذى وسوس له أو دفعه إلى فعله هذا ، أو كونه شريكاً له فى صنيعه .

(١) سورة المائدة آية ٣٠ .

(٢) سورة طه آية ٩٦ .

(٣) النص ١٤٣١ و .

(٤) سورة يوسف آية ٥٣ .

أما قوله تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦١ ﴾ ^(١) فيخرج على معنيين :-

أحدهما : التهديد والتخويف ، وقد كانت العرب تستخدم هذا الأسلوب في لغتها .. فيدعون أحدهم أن يقتل فلاناً ، وهم لا يريدون قتله ، وإنما يقصدون تهديده وتخويفه .

والثانى : أنهم إذا فعلوا هذه المعاصي فزنوا وسرقوا وتعاملوا بالربا فهم مشاركون لإبليس فى عصيانه لله تعالى ^(٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. ﴾ ^(٣) الآية فيخرج على أنه الهوى .. لما يلزم من الظاهر والمعنى الصريح منه بالقول بأنه واجههم وراوه وعابنوه وهو يناقض القرآن الكريم .

كما يمتنع أن يوسوسهم إبليس فى بدر جميعاً فى وقت واحد ، إلا أن ينسب لإبليس قدرة تفوق كل قدرة ، وهو فاسد غير معقول ..!

يقول الزمخشري : واذكر - يا محمد - ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. ﴾ ^(٣) .
التي عملوها فى معاداة رسول الله ، ﷺ ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ؛ وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطعته مما يجبرهم ؛ فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرا منهم ، أى بطل كيده حين نزلت جنود الله ؛ وكذا عن الحسن رحمه الله : كان ذلك على سبيل الوسوسة ، ولم يتمثل لهم .

وقيل : لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذى بينها وبين بنى كنانة من الحرب ، فكان ذلك يشبههم ، فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقه بن مالك ابن جهمم الشاعر الكناني - وكان من أشرفهم - فى جند من الشياطين معه راية ، وقال : لا غالب لكم اليوم ، وإنى مجيركم من بنى كنانة .

فلما رأى الملائكة تنزل ، نكص .

(١) سورة الإسراء آية ٦٤ .

(٢) انظر كذلك الزمخشري : الكشاف ، ٢ / ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

(٣) سورة الأنفال آية ٤٨ .

وقيل : كانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فلما نكص . قال له الحارث : إلى أين
أتخذلنا فى هذه الحال ؟

فقال : إنى أرى ما لا ترون ، ودفع فى صدر الحارث وانطلق ، وانهمزوا ، فلما بلغوا
مكة .

قالوا : هزم الناس سراقه ، فبلغ ذلك سراقه .

فقال : والله ما شعرت بمسيركم ؛ حتى بلغتني هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه
الشیطان .

وفى الحديث : « وما رؤى إبليس يوماً أصفر ولا أدهر ولا أغیظ من يوم عرفة ،
لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رؤى يوم بدره »^(١) .

ولا مانع من أن يوسوس إبليس لنفر قليل من قريش ؛ فيقومون بالوسوسة
للقبيلة بأسرها .. أو أن يجرى كلاماً على لسان آدمى ، حتى يقنع الناس
بمنطقه والأعيبه فيصدقوه .. وهذا فى الشرع والعقل مقبول .. سيما أن
له سابقة مع أبينا آدم - عليه السلام - ولكن ليس بالضرورة أنه يفعل هذا مع
كل جنس بنى آدم ، لما فى ذلك من غلو فى شخصيته التى لا تتفق مع قوله
تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾^(٢) ، إذ إنه على تصورهم لا يكون
كذلك .

٥- الحجة الخامسة : المجبرة تستعين بكثير من النصوص وتروى الأكاذيب عن الجن :
وتستعين المجبرة بكثير من النصوص والروايات الكاذبة ، لتثبيت عقيدتهم فى
إبليس والجن ، ويلاحظ فى رواياتهم عن الجن أنهم لا يحدثون عنهم إلا بكلام
نطقوا به وأخبار أخبروا بها ، لا وسوسة كما ادعوا أنهم يوسوسهم فى
صدورهم !

وهذه الأحاديث والأشعار التى رووها عن الجن ، تقتضى المواجهة التى تبطل
بدورها الوسوسة ..

(١) أخرجه مالك فى الموطأ .. والبيهقى فى الشعب . وانظر الزمخشري : الكشاف ٢١ / ٢٢٨ .

(٢) سورة النساء آية ٧٦ .

كما يكذبون على الجن فيدعون ملاقاتهم في مواطن عديدة من الأرض ، أو أنهم يتمثلون لهم في أشكال آدمية أو حيوانية ^(١) ..

وكلامهم في المواجهة والمشافهة يناقض كلامهم في الوسوسة ، مما يسقط كلامهم بعضه بعضاً . ثم من أخبرهم حين تمثلهم في أشكال حيوانية أنهم جن !!

٦- الحجة السادسة : نص القرآن الكريم بأن شيطان الإنسان وإبليس ، حقيقة ، هو هواه الذى يدلّه على الشر والفساد ، ويغويه بالميل إلى الشهوات والملذات ، قال تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .. وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَهِلُّوا كَثِيرًا ﴾ ^(٣) ، ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ^(٤) .

لقد اعتمد المجبرة على التشابه وتجاهلوا المحكم وأسس العدل والتوحيد ، كما جهلوا تاويلها وفهم معانيها ، وقليل من التأمل يوضح الحق جلياً ^(٥) .

٧- الحجة السابعة : أن معانى القرآن الكريم تساعد على فهم التشابه على وجهه الصحيح ، وهو من قواعد المنهج عند أهل العدل والتوحيد ، حيث يعتمد تاويل القرآن وتفسيره فى ضوء معانى اللغة وبلاغتها ، فالعرب أعرف الناس بلغتهم ، والقرآن كتاب عربى صميم .. فمنها ما يأتى على سبيل المثال والتصوير والمجاز ومقلوب الالفاظ والمعانى .. إلخ .

٨- الحجة الثامنة : الزعم بمشاركة إبليس للإنسان فى الأموال والأولاد يسقط حقيقة العدل الإلهى .. فلا يجوز ذلك فى عدل الحكيم ، والله لا يأمر بالباطل ولا يقضيه ^(٦) ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ^(٧) ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ^(٨) ١٢

(١) سورة ص آية ٢٦ .

(٢) سورة القصص آية ٥٠ .

(٣) النمل ، ١٤٧ ط .

(٤) سورة النساء آية ١٢٢ .

(١) انظر النمل ، ١٤٥ و .

(٣) سورة المائدة آية ٧٧ .

(٥) النمل ، ١٤٥ و .

(٧) سورة النساء آية ٨٧ .

٩- الحجة التاسعة : نقد زعم المجبرة أن الاستطاعة مع الفعل ، وبيان أن الاستطاعة قبل الفعل ؛ لأن الله عز وجل في عدله وحكمته لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، نطق بذلك الكتاب وشهدت به رسله . قال تعالى : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٢) ﴿ ١ ﴾ .

١٠- الحجة العاشرة : أنه لا يعقل أن يكون الله عز وجل قد وهب لعدوه إبليس قدرة تفوق قدرة أوليائه ومن هؤلاء الملكين الموكلين بكل إنسان (٢)

* * *

(١) سورة المؤمنون آية ٦٢ .

(٢) النص ١٥١١ و

تصور ابن حزم الظاهري لإبليس والجن

ويُجمل ابن حزم الظاهري موقفه وموقف أهل الظاهر من الجن فيقول : أخبر ، عز وجل ، أن الجن والناس يوسوسون في صدور الناس ، ونحن نشاهد الإنسان يرى من له عنده ثأر فيضطرب وتتبدل أعراضه وصورته وأخلاقه وتثور ناريتة ، ويرى من يحب فيحدث له حال أخرى ويستهج وينشط ، ويرى من يخاف فتحدث له حال أخرى ، من سفرة ورعشة وضعف نفس ، ويشير إلى إنسان آخر بإشارات يحيل بها طبائعه فيغضبه مرة ، ويخجله أخرى ؛ ويفزعه ثالثة ، ويرضيه رابعة ؛ وكذلك يحيله أيضا بالكلام إلى جميع هذه الأحوال .

فعلمنا أن الله ، عز وجل ، جعل للجن قوى يتوصلون بها إلى تغيير النفوس والقذف فيها بما يستدعونها إليه ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووسوسته ؛ ومن شرار الناس وعلى هذا جريه من ابن آدم مجرى الدم ،^(١) .

يشير ابن حزم عند تحليل مقالته إلى قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾^(٢) الذي يوسوس في صدور الناس ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾^(٣) ورأينا كيف نقد الإمام أحمد الاتجاه الجبري في تفكيره ، ووقف على خطوره دعواه ، وفند حججه وبين وجه الحق ، وتاويل معنى الوسوسة في الآيات السابقة .

كما تعرض ابن حزم إلى الانفعالات الإنسانية في الرضا والغضب والفرح والحزن ، والأمن والخوف ، والرغبة والجرأة والشجاعة ثم علقها كلها على فعل الشيطان في قوى الإنسان .. ١١ .

لهذا الحد انساق هذا المفكر الكبير وراء التيار الجبري .. وأدى مذهبه الظاهري إلى وقوعه في خية الجبر .. وصار من المعقول لديه أن يعطي الله أحكم الحاكمين ، العادل في حكمه المنصف في قضائه ، عدوه إبليس وجنوده من مردة الشياطين تصرهفاً تاماً لجوانيه وداخلية الإنسان ، والتحكم في مشاعره وقواه وقدراته وميوله ونوازعه ودوافعه ... ! ..

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٥ / ١١٢ .

(٢) سورة الناس الآيات من ٤ - ٦ .

ماذا أقول بعد أن صدمنا ابن حزم بقوله : « فعلمنا أن الله ، عز وجل ، جعل للجن قوى يتوصلون بها إلى تغيير النفوس ، والقذف فيها بما يستدعونها إليه »^(١) . ! وقد كان في زمانه من أكبر الشخصيات الناقدة للفكر الرجعى .. فحارب التقليد .. ونقد الفقهاء الأربعة ونادى بمذهب جديد - هو المذهب الظاهرى - فى بلاده ، وأبلى بلاء حسناً ، ولكن لكل جواد كبوة ، ولكل عالم ذلة !

ويمكن مراجعة رسالة الإمام أحمد ومنهجه فى التفكير .. حتى يتيسر لنا كيف نفهم ديننا ، ونقف عند حدود أصوله وأساسياته ، دون الوقوع فى نقض التوحيد والشرك بالله .. ولا داعى لتكرار ما سبق الإشارة إليه ..

لقد تجاوز أهل الظاهر عن وضع لغة القرآن فى موضعها الصحيح من المنهج ، فادى بهم مسلكهم إلى الخطأ الفادح فى الفهم لقضايا القرآن ، فلغة القرآن تصويرية وبيانية ذات مستوى رفيع فى التركيب على أحسن وأفضل ما عرف العرب من لغتهم . فلما سمع العرب قوله تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ الْقُرْآنَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ جَدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾^(٣) لم يعقل منهم أحد أنها على ظاهرها ولكن قال قائلهم .. إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمشم وإن أسفله لمغدق .. إلخ .. من عظمة ما وجده من علو نظم القرآن الكريم ..

ولم يخطأ من وصف اللغة فى القرآن بأنها مجازية أى تصويرية تعتمد على الاستعارة والتشبيه والكناية .. وتعتمد على البيان قال تعالى : ﴿ السَّرْحَمَنُ ۝ ١ ۝ عِلْمُ الْقُرْآنِ ۝ ٢ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ ٣ ۝ عِلْمُهُ الْبَيَانُ ۝ ٤ ۝ ﴾^(٤) وعلى ضرب الأمثال ، والمجاز أنواع ليس هنا محل عرضها ..

ولهذا لم يكن غريباً من ابن حزم أن يفهم من قوله تعالى ﴿ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾^(٥) أن للشيطان تأثيراً فى المصروع يكون باللماسة .. والذى سنشرحه فيما بعد ، ونبين مراد القرآن من ذلك .

(١) سورة يوسف آية ٨٣ .

(٢) سورة الرحمن الآيات من ١ - ٤ .

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة الكهف آية ٧٨ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

ويؤخذ على ابن حزم ، على ما وهبه الله من قدرة عالية على التفكير والتحليل والنقد وجرأته في مواجهة الخصوم ، يؤخذ عليه مصادرتة بشكل واضح على من خالفه فيقول في هذا الموضوع (فلا يجوز لأحد أن يزيد على ذلك شيئاً ، ومن زاد على هذا شيئاً فقد قفا ما لا علم له به ، وهو حرام لا يحل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ^(١) . وهذه أمور لا يمكن أن تعرف البتة إلا بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ ، ولا خبر عنه ، عليه السلام ، بغير ما ذكرناه ^(٢) .

ويصف ابن حزم ما يفعله الشيطان في المصروع من مُسٌ فيقول : « إن الشيطان يمسُّ الإنسان الذي يسلطه الله ، عز وجل ، عليه مَسّاً ، كما جاء في القرآن ، يشير من طبائعه السوداء والأبخرة المتصاعدة إلى الدماغ ، كما يخبر به عن نفسه كل مصروع بلا خلاف ، فيحدث الله ، عز وجل ، له الصرع والتخبط حينئذ ، كما نشاهده ، وهذا هو نص القرآن وما توجبه المشاهدة ، وما زاد على هذا فخرافات من توليد العزَّامين والكذابين .. » ^(٣) .

ويحمل كلام ابن حزم العديد من التناقضات ، فهو يعتمد منهجاً يؤدي به ، لا محالة ، إلى الوقوع في الخطأ ، وهو الأخذ بالظاهر ، وليس في ظاهر القرآن تسليط الله لأعدائه على أوليائه .. أو منح عدوه الذي أخرجه من الجنة صاعراً ذليلاً حقيراً قدرة على التغلغل في أعماق النفس الإنسانية والعبث بها ، وليس في القرآن كذلك نص يفيد أن الله ، تعالى ، خلق الجن لإغواء البشر وتضليلهم ..

انظر إلى قوله : « .. فيحدث الله ، عز وجل ، له الصرع والتخبط حينئذ ، بأسبحان الله لقد جعل قدرة الله وفعله تابعة لقدرة إبليس وفعله .. حتى التسوية بين قدرة إبليس وقدرة خالقه تجاوزها ابن حزم ، وجعلها تابعة لإبليس ! .

ثم مَنْ من المصروعين أخبره عندما أفاق أن ما حلَّ به كان فعلاً وكيداً

(١) سورة الإسراء آية ٣٦ .

(٢) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥١ / ١١٣ .

(٣) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥١ / ١١٣ .

للسيطان؟! .. إن أدوات الحس والإدراك تنفى تماماً أن يكون الشيطان قد دخل وحل في جسم المصروع^(١) وعطل عقله وتلاعب بكيمياء جسمه ..

ولكن لاغربة إن كانت هذه ثقافة عصر ابن حزم ، الغريب حقيقة أن نجد مسلماً في القرن العشرين والحادي والعشرين ، تكون كل معارفه الدينية وثقافته في تحدى الغرب ومواجهته ، هي مجموعة خرافات مركبة تركيباً معقداً ، بحيث لا ينفك منها المسلمون؟! .. ويظلون قابعين في ردهات الجهل والتخلف والتصورات الجائرة للتوحيد الإلهي ، وحرية الإنسان وقدرته على الاختيار والفعل ..

ليس من الخير في شيء بقاء العقلية الإسلامية صريعة الوهم متجاوزة منهج القرآن في النقد والتفكير والاستدلال والنظر .. وبدعوى أن ما يقوله مهاويس الحشوية وأتباعهم من أنصاف المتعلمين ، تعلماً دينياً ، من أن هناك أحاديث وروايات أو آيات تلزمهم بنقض التوحيد ، وجعل إبليس وجنوده شركاء لله ، تعالى ، بما يدعونه من سلطان الشياطين على الإنسان وقدراته وملكاته التي وهب الله لها ..

لقد وقع تصور المسلمين للتوحيد في مأزق صعب عندما آمنوا بالله الواحد الأحد القادر القاهر الغني الملك المتكبر القدوس ، وآمنوا مع ذلك بإبليس والجن والشياطين القادرين على التصرف والتحول والوسوسة والإغواء وتغيير المقادير ، حسب ما يحلو لهم ، أو على أسوأ الأمور حسب ما أمكنهم الله منه .. فمن هذا اللعين الذي أدخل في روع المسلمين أن الله أمكن الشيطان من إغواء الإنسان ، بعدما هداه إليه بحوله وقوته !

(١) انظر كذلك الأشعري : المقالات ٢١ / ١٠٩ .. لقد كان لعلماء المسلمين القدماء موقفاً من صرع إبليس للإنسان مشرفاً .. فليراجع .. وإن حكى الأشعري مذهب المجرة فيمن ذكرهم .

الفصل الثاني

حول الرسالة

١ - ترجمة المؤلف ومصنفاته .

٢ - وصف المخطوط .

٣ - منهجى فى التحقيق .

٤ - نماذج من المخطوط .

١- ترجمة المؤلف ومصنفاته

هو الإمام أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنى العلوى ؛ الناصر لدين الله ؛ إمام زيدى يمانى مشهور .. ومن كبار علمائهم وبسلائهم .. عرف بالجهاد ونصرة دين الله ؛ ولد سنة ٢٧٥هـ ولا يعرف أين ولد .. وربما كان ذلك بجبال الرس قبل أن يخرج والده الإمام يحيى بن الحسين ت ٢٩٨هـ مجاهداً وفتحاً لليمن وإقامته لدولة الزيدية بصنعاء .. وذلك لأن الرس وما حولها ارتضاها جده الإمام القاسم بن إسماعيل الرسى موطناً له ، لما حطت به عصا الترحال ، بعد جهاد كبير للدولة العباسية عرف فيه طعم الغربة وعذابها لمدة عشر سنوات كاملة .

عرف الإمام أحمد الحفيد بما عرف به أجداده وأبأؤه من آل البيت الاطهار ، من تقوى الله وورع وحب للدين والعلم ، والجهاد فى سبيل الله ، واشتهر من بينهم بأنه ترجمان الدين ، وذلك لغزارة علمه ونباهته ؛ ونابى الإمام أحمد الإمامة باليمن بعد أن قدم عليها فى بداية القرن الرابع الهجرى واعتزال أخيه لها - محمد المرتضى - طواعية وعرفاناً بمقدرة أخيه على القيادة وإدارة أمور الحكم ، سياسياً وعسكرياً .. وغير ذلك .

وما لبث الإمام أحمد إلا أن جهز جيشاً كبيراً قوامه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل لمواجهة دولة الباطنية الكافرة .. وتوجه به نحو الغرب ، فانتصر عليهم انتصاراً باهراً ، ودخل عاصمتهم عدن .. ونكل بالقرامطة .. وظل وضع الدولة قوياً ومزدهراً فى عهده حتى توفى بصعدة سنة ٣٢٥ / ٩٣٧م .

قال عنه ابن الوزير فى كتابه «هداية الراغبين» : «كان من الأئمة السابقين وعيونهم المعتبرين وساداتهم المطهرين ، وكان عالماً فاضلاً ورعاً وزاهداً ؛ جامعاً لشرائط الإمامة ، كاملاً فى صفات الزعامة ، سالكاً منهج آبائه الأئمة الاطهار ، فى أحواله الخاصة والعامة » .

كما قال الفقيه حميد فى وصفه فى كتابه «الحدائق الوردية» : «نشأ على الزهادة والعبادة ، واقتبس من نور والده الوقاد ؛ وارتوى من علم الآباء والأجداد ؛ فأحرز من علمهم الصافى الكثير ، وانتفع من ودق أصحابهم الجون الغزير » .

وقد اشارت كتب الطبقات إلى تصانيفه العلمية ، بما فيها كتابه النجاة الذى شمل على ثلاث رسائل منها رسالتنا - هذه - التى قمنا بتحقيقتها .. فقالوا فى وصف كتبه : « له ، عليه السلام ، التصانيف الرائعة الشافية .. والكتب البالغة الوافية ، فى الأصول والفروع والمعقول والمسموع » .. ثم ذكروا كتبه على النحو التالى :

١- كتاب النجاة الفريد المتميز بقولهم : وفيه علم عجيب وكلام حسن غريب .. وهو مجلد كبير يحتوى على عدة رسائل ، منها مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس . . . وسيصدر قريباً بتحقيقنا بإذن الله .. بعد أن أمضينا فى تحقيقه ودراسته عامين كاملين .

٢- كتاب الدامغ .

٣- كتاب التوحيد .

٤- كتاب الفقه .

٥- كتاب التنبيه .

٦- كتاب مسائل الطبريين .

٧- كتاب الرد على الإباضية . حققناه وسيصدر قريباً ، إن شاء الله .

كما أن له كتاباً فى علوم القرآن تشهد له بالإصابة والتبريز منها كتابه المشهور

٨- كتاب المفرد فى الفقه .

وقد ذكره الإمام حميد ..

ومن عجائب هذا الإمام العظيم المجاهد فى العلم والعمل .. أنه كان يخرج لغزواته ومعه كتبه وأدوات الكتابة من حبر وورق .. فيؤلف المسائل الصعبة والكتب الطوال وهو على ظهور الخيل .. وهو أمر لم نجد لاحد من السلف أو الخلف - له مثيل - على السواء !!

الكتب التى ترجمت للإمام أحمد :

١- هداية الراغبين : لابن الوزير لوحة ١١٣ و - حتى ١١٥ و

وهو مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم تحت رقم ٢٧٤٤ .

- ٢- حميد المولى : الحقائق الوردية ج٢ ورقة ١١١ - ١١٢
- وهو مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم تحت رقم ٢١٣٦ .
- ٣- عبد الله بن حمزة : الشافى ج١ ورقة ١٦٦
- وهو مصور بدار الكتب المصرية ميكروفيلم تحت رقم ٢٣٤ .
- ٤- أحمد القرشى : بلوغ المرام ؛ ص ٣٣ طبع بمصر ١٩٣٩ .
- ٥- اتحاف المسترشدين ، ص ٤٥ .
- ٦- الجندارى : تراجم الرجال ج٢ .
- ٧- الزركلى : الاعلام ؛ ١ / ٢٦٨ .
- ٨- كحالة : معجم المؤلفين ١ / ٣٢٣ .

٢- فى وصف المخطوط

١- هذا المخطوط يمثل جزء هاماً من تراثنا الفكرى الإسلامى الناضج والحر ، والذى جاء فى فترة مبكرة من تاريخ الامة العربية والإسلامية .. فقد كتبه الإمام أحمد والفقه إجابة على أسئلة بعض أتباعه ، ورداً على المغيرة الذين روجوا للجبر فى القضاء والقدر ، وذلك من خلال قصص القصاص والإسرائيليات والخرافات والاساطير الموروثة عن الشعوب والادب العالمى ، بكل ماتحملة من تأثيرات عقائدية فى الديانات المختلفة ، وخصوصاً الديانات الشرقية كالثنوية والمناوية والبوذية والمجوسية .

بالإضافة إلى تصور إبليس فى الديانات السماوية كاليهودية بماتحملة من تصور مادى وسطحى لحقيقة الألوهية والنصرانية وهى عقيدة حلولية .. ودور إبليس فى عقيدة التشليث هام وبارز ، وعليه عولوا فى سبب نزول ابن الله ، على ما يزعمون ويفترون - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ؛ لفداء العالم !

٢- تمثل نهايات القرن الهجرى الثالث فترة ازدهار فكرى وأدبى واجتماعى .. ولم يمنع هذا من ظهور الدولة الطولونية بمصر ثم الإخشيدية ، وانفصال اليمن وقيام الدولة الزيدية به سنة ٢٩٦ هـ ، وكذلك انفصال الأندلس من قبل بنحو مائة وخمسين عاماً .

٣- القصد من ذلك أن العباسيين فى بغداد جمعوا من حولهم كل الانجاهات والتيارات المذهبية .. وتحولوا بعد عصر المأمون والمعتصم عن التوجهات الفكرية الناضجة إلى التقليدية ، وحارب المتوكل الانجاهات الحرة فى الفكر ، حتى يتيسر له حكم الدولة دون منازعات أو ثورات على الأوضاع السيئة ، وتقدم المحدثون والقصاص صفوف العلماء مما كان له أسوأ الأثر فى تاريخنا كله .. وراج الفكر الجبرى والتواكل ، وتأخر على إثر ذلك العلم الطبيعى .. وشاعت طوائف الزهاد والعباد والصوفية ، وتلاشت النهضة العلمية التى قدر لها أن تظل متوارية وباهتة .. فورثت أوربا مناهج العلم والفكر الحر فى أواخر القرون الوسطى ، وبنت عليها أسس نهضتها فى بداية العصر الحديث .

٤- ما يعرضه الإمام أحمد في هذه الرسالة تلقفته أيدي فلاسفة أوروبا في عصر النهضة وأولوه كل عنايتهم .. ومن ينظر مقارناً يلاحظ لأول وهلة ويجد أن فكر المسلمين الأوائل الحر ، والذي يقوم على الكتاب والسنة المتواترة ومنهج العقل ، بعيداً عن الغموض الفلسفي من جهة ، والانحراف الأسطوري والخرافة من جهة أخرى ، هو أساس البناء المنهجي الذي قام به زعماء الفكر الغربي بداية من المنهج الديكارتي والتجريبية عند كوبرنيكس وكانت ، والمنهج الاستقرائي والبراجماتية عند جون لوك وجون ستيوارت مل .. ثم ظهور نظرية العقد الاجتماعي والعدالة الاجتماعية ، وإرساء قواعد الدستور والديمقراطية والنظم التعددية .. كل ذلك خرج من عباءة الفكر الإسلامي الناضج في البدايات ..

٥- ولذلك نقول إن هذه الرسالة ، ومثيلاتها من فكر الإمام أحمد بن يحيى وكتب أبيه يحيى بن الحسين ت ٢٩٨هـ ، وجده القاسم بن إسماعيل الرسي ت ٢٤٦هـ ، هو من أفضل ما قدم وكتب المسلمون في القرن الثالث الهجري حول التوحيد والعدل .. وإرساء قواعد المنهج وأسس الحرية الإنسانية وحرية الفعل الإنساني بمنهجية ناضجة وواضحة .

٦- جاءت هذه الرسالة في مجموع الإمام أحمد بن يحيى .. والذي سنصدره محققاً تبعاً ، إن شاء الله ..

وعنوانها :

١ - (مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس وسائر الشياطين) .

ب- وصفحاتها تقع بين ١٣٤ و - ١٥١ ط .

ج- والنسخة التي بين أيدينا نسخة فريدة ومتميزة في نوعها .. فقد كتبت بخط نسخي جيد سنة ٥٤٨هـ ، وعلى حواشيها بعض الشروح .. غير أن ذلك وقع في هوامش رسالة النجاة .. وسلمت من شروح النساخ والمعلقين من القراء عليها .

د - جاء على هامش هذا المجموع وبداخله ، كثير من التملكات والتوقيعات ، التي تبين مسيرة انتقال هذه النسخة بين أئمة الزيدية وكبار علمائها ..

هـ- توجد عدة أسباب لوجود هذه النسخة وحيدة في مكتبتنا العربية ، من ذلك حرص الزيدية على تراثها من جهة ، وعامل الزمن وكيد الخصوم لهذا التراث .. اما لم لم تحقق وتخرج للنور ، رغم أهميتها البالغة ، فهو لزهد كثير من الدارسين في التراث الفكرى ولصعوبته ، سواء من حيث التحقيق أو من حيث الدراسة .. وكذلك لظنهم أن النسخة قديمة ، وقد تعرضت لعوامل الزمن التى غيرت من معالمها .. غير أن هذا التفسير لم يؤثر على الكلام بحال .. ولكنه يخدع الناظرين إليها .

ز- ومسطرتها : ثنتان وعشرون سطراً (٢٢) .

ح- ومقاسها : ٢٠ × ٢٧ سم .

ط- النسخة التى قمنا بتحقيقها مصورة عن النسخة اليمنية الموجودة بمكتبة الجامع الكبيرة بصنعاء تحت رقم ١٤١ علم الكلام - كتاب ٣٨ ..

وقد قامت بعثة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المختصة بالخطوط العربية، والتابعة لجامعة الدول العربية بتصويرها فى الثلاثاء ٢٤ من رجب ١٣٩٤هـ الموافق ١٣ من اغسطس ١٩٧٤ وإيداعها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، تحت رقم ١٥٧ يمن شمالى .. ومنها صورنا نسختنا .

٣- منهجى فى التحقيق

- ١- قمت بمراجعة المخطوط مرات عديدة ، للتأكد من سلامته من النقص وعوامل التعرية .. ثم قمت بتصويره .
- ٢- تحققت من نسبة المخطوط لصاحبه ، بمراجعة كتب الفهارس وقائمة كتب الزيدية وكذلك قائمة كتب الإمام أحمد .
- ٣- نسخت المخطوط وقرنته إملائياً .
- ٤- وضعت للقضايا عناوين ، وللمسائل عناوين داخلية ، وقسمته إلى فصول .. حتى ييسر الانتفاع به .. كما نسبت الآراء والأفكار والمذاهب إلى أصحابها فى كتبهم الأصلية .
- ٥- خرجت الآيات والأحاديث التى وردت بالرسالة ، ووضعت له فهرساً عاماً .
- ٧- ترجمت للشخصيات ، وعلقت على القضايا والمصطلحات .
- ٨- كما قدمت للمخطوط بدراسة عن «إلهيس فى التصور الإسلامى بين الحقيقة والوهم» .. ووضعت مقدمة له ، وترجمت للمؤلف . ومصنفاته .

هذا وأسأل الله العلى القدير ،

أن ينفع به ، وهو ولى التوفيق ،

القاهرة فى ٢٥ / ٢ / ٢٠٠٠م

٤- نماذج من المخطوط

[illegible][illegible][illegible][illegible]

জাতি

ثانياً (النص)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين ،
وعلى آله الطيبين ؛

قد فهمنا - أكرمك الله - ما ذكرت عن القوم الذين جرى بينهم الكلام والمناظرة
في وسواس الجن وإبليس ، عليه لعنة الله ؛ كيف يصل إلى الإنسان وكيف الأمر منه
لنا، والعداوة التي قال الله ؛ عز وجل ، أنه يعد بني آدم ويأمرهم بالفحشاء ^(١) .

حكاية موقف الناس من إبليس

وذكرت أن قوماً قالوا : إن إبليس يلقي في قلوب الإنس أمراً وعدة ، وسؤل لهم ،
وهو - زعموا - شئ لا يدرون كيفية وصول ذلك إلى قلوب الخلق ؛ واحتجوا بكتاب
الله ، عز وجل ، فقالوا : قال الله عز وجل : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ
بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ^(٢) .

ثم قال ، عز وجل ، يحكى عنه - إذ قال : ﴿ لَا مَرْئُهُمْ فَلْيَتَكَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئُهُمْ
فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

ثم قال : ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ ^(٤) !

ثم قال إبليس - اللعين : ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(٥) ثم
لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ ﴾ ^(٦) .

١٣٤ ط / ثم قال : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٧) .

(١) يشير إلى قوله تعالى ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ^(١٢) النساء / ١٢٠ - وقوله ، تعالى :
﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ البقرة / ٢٦٨ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ النور / ٢١ .

(٢) سورة النساء آية ١١٩ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٨ .

(٤) سورة محمد آية ٢٥ .

(٥) سورة الاعراف آية ١٦ .. وجاءت في الاصل خطأ هكذا ﴿ رب بما اغويتنى ... ﴾ (٦) سورة الحشر آية ١٦ .

قالوا : فقد نراه ها هنا يأمر ويعدُّ ويوسوس بالقول ، وذلك أنه يصلُّ - زعموا - إلى قلوبهم منه شيءٌ ؛ ويلقى إليهم ، ولا يدرون - زعموا - كيفية وصوله إليهم ١١٩ وذلك أن الله ، عز وجل ؛ قال : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ^(١) وأنه - زعموا - : يجرى من الإنسان مجرى الدم ^(٢) ١

* ثم قال آخرون : صدق الله في كتابه ، وهو كما قال الله ، عز وجل ؛ غير أن تاويل الآيات خلاف ماتاولتم ، فمن ثم غلطتم ؛ إن إبليس ومن معه لا يقدر أن يلقى قلوبنا شيئاً ، كما يلقى الشيء في الشيء ، ولا يصلُّ إلى قلوبنا منه شيء ؛ ولا يأمرنا بشيء ، لا مشافهة ولا خفاء ولا سراً ولا علانية ؛ ولم يصل إلينا منهم شيء قط ؛ ولم نسمع بذلك منهم في حالة ما .

وإنما وصلتنا الحكاية التي حكى ^(٣) الله ، عز وجل ؛ في كتابه على لسان نبيه ، ﷺ ؛ فأبطلت لنا الحكاية من الله ، عز وجل ؛ وأخبرتنا أن إبليس ، ومن أطاعه من الجن يريدون منا إتيان المعاصي وارتكاب الفواحش ؛ وأن ذلك إرادتهم منا ، وأنه يرضيهم عنا إتيان ذلك ؛ بحكاية الله ، عز وجل ، لنا ذلك في كتابه أن ذلك من مرادهم ، فالحكاية الواصلة بنا الأمر منهم لنا ، كأمر الرجل لابنه ولغلامه : إفعل كذا وكذا ^(٤) ١٠٠

وبعد ؛ فأخبرنا عن الله ، عز وجل ، أقدرَ على أن يوصل الأمر بالطاعة إلى قلوبنا ، من غير سفير ولا معبر ولا حكاية ١٩

فإن قالوا : إبليس أقدر على ذلك من الله .. كفروا وخرجوا من ملة الإسلام .

وإن قالوا : الله أقدر على ذلك .

(١) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٢) هذا معنى حديث أخرجه البخاري في صحيحه في أكثر من موضع منها (كتاب الأحكام باب ٢١) ١٣ / ١٦٨ «عن علي بن حسين أن النبي ﷺ أتته صفية بنت حيي ، فلما رجعت اطلق معها ، فمر به رجلان من الأنصار ، فدعاها ، فقال : إنما هي صفية . قال : سبحان الله ١ . قال : «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» ، ورواه الدارمي ١ / ٤١١ وكتاب الرقائق باب ٦٦٥ ، وأحمد في مسنده ٣١ / ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩ ، ٦ - ٣٣٧ .

(٣) في الأصل : حكا .

(٤) في الأصل : كذى وكذى .

قصة الغلام الوحيد على الجزيرة :

قلنا لهم : فى رجل وامرأته ، كانا فى المركب ، ثم باق^(١) بهم المركب ؛ فخرجنا إلى جزيرة ، فكان الرجل من مرته^(٢) ؛ فحملت غلاماً ، ثم بلغ الغلام ثلاث سنين ؛ ثم ماتا وتركاه^(٣) ، أيصل إلى قلبه الأمر بالصلاة والصيام وجميع الفرائض بلامخبر له ولا معبر ؟!

ونحن ، فلم ندر ما الكتاب ولا الإيمان حتى^(٤) أوحى الله ، عز وجل ، إلى رسوله ، صلوات الله عليه وعلى الأخيار من ذريته ، فبلغ إلينا ما أمره الله ، عز وجل ؛ به من طاعته وفرائضه ؛ ونهانا عن معاصيه ؛ فإن فعلنا المعاصى كنا قد فعلنا كفعل الشيطان ؛ وكنا مطيعين له ؛ لأن ذلك إرادته وأمره ؛ وكذلك إذا فعلنا ما أمر الله ، عز وجل ، كنا قد أطعناه وفعلنا ما أراد منا . . .

* وقال آخرون : إنه ماكان من مشروب وملبوس ومنكوح ، فهو من فعل النفس ، وما كان من قتل وعقوق الوالدين فهو من إبليس .

١٣٥ و / وقد أكذبهم الله ؛ عز وجل ، حيث قال : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .^(١)

وقال فى ذكر موسى ، ﷺ : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾^(٢) ، فقال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾^(٣) ، يعنى كعمله .

فمت مسائل أبى إسحق : أكرمه الله

(١) عطب وفسد .

(٢) كناية عن الجماع .

* هذه القصة مشهورة فى تاريخنا الفلسفى ، حيث تناولها ابن سينا وابن طفيل والسهورردى المقتول وابن النفيس ، وعرفت بقصة «حى بن يقظان» . وهى ذات طابع فلسفى ملخصه : هل يمكن أن يعمل الإنسان إلى المعرفة بنفسه ، وهل يمكنه إدراك معرفة الله وتوحيده بلا وحي ولا رسالة ؟! . . .

(٣) فى الأصل : حنا .

(٤) سورة المائدة آية ٣٠ .

(٥) سورة القصص : آية ١٥ .

لا يؤخذ الدين بالظن ،

الجواب : قال أحمد بن يحيى ، صلوات الله عليه :

اعلم - أكرمك الله - أن هذه المخاطبة قد كثر فيها اختلاف الناس وقولهم ، وذهب كل منهم إلى مذهب ، على قدر عقله وظنه وخرصه ، والدين لا يكون بالظن ولا بالخرص ، وقد ذم الله ، عز وجل ، قوماً في كتابه إذ أخبر أنهم على الخطأ والجهل ؛ فقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦) ﴿^(١) ، وقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (٢٢) ﴿^(٢) وقال آخرون : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ (٢٢) ﴿^(٣) ، ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٢٨) ﴿^(٤) .

ينبغي الرجوع للكتاب والسنة ،

وذلك - أكرمك الله - أن الخلق تركوا معدن الهدى ، واتبعوا الهوى ؛ فخالفهم الردى ^(٥) ودانوا بالخطأ ، ومالوا إلى الدنيا وتقليد الرؤساء ؛ وقد قال الله ، عز وجل : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ ﴾ (٦) ، وهذا قول الله ، عز وجل ، الذي لا يشوبه فساد ولا طعن أهل العناد ، وقد أخبر الله ، عز وجل ، أنه لو ردُّوا إلى حيث أراد وافترض لعلم ؛ ولم تقع خُلُفَةٌ ولا مرء ولا جهل ولا خطأ .

واعلم - أكرمك الله - أن القوم الذين ذكرت عنهم الكلام في أول كتابك ؛ الذين اعتقدوا أن إبليس ، عليه لعنة الله ؛ يقدرُ على أن يلقي ويوصل العدة والامر بالفحشاء إلى قلوب بني آدم ، فقد أخطوا وغلطوا وضلوا عن سواء السبيل ، وأن القوم الذين ردوا عليهم وعابوا جهلهم ، أهل الصواب والرشد .

وقد فهمت ما احتجوا به ، وقد أحسنوا ، إلا أنهم لم يشبعوا المسائل ، ولم يقووا الاحتجاج ، حتى يشتفى السامع ويُقطع المخالف .

(٢) سورة النجم آية ٢٣ .

(٤) سورة النجم آية ٢٨ .

(٦) سورة النساء آية ٨٣ .

(١) سورة الانعام : آية ١١٦ .

(٣) سورة الحائث آية ٣٦ .

(٥) في الأصل : الردا .

قواعد ينبغي تقيدها ،

واعلم - اكرمك الله - ان كل قول يعتقد قوم إذا انكسر بعضه وبان كسره ، وجب ان آخره ينكسر ، كما انكسر أوله ؛ لأنه لا يجوز ان يكون لله ، عز وجل ، حق فيه باطل ، ولا باطل فيه حق ؛ ولا يجوز ان يكون الحق ينكسر بعضه ويثبت بعضه ؛ وقد يجزى ان يرد عليك على ما شك فيه الجهال ، من الآيات التي ذكرت فيها إبليس ، في غير موضع من القرآن .

التأويل حسب معاني العربية وتصريفيها :

فإذا صح كسرنا لذلك ؛ لزم أن آخره على مجرى أوله ؛ وإلا طال الكتاب ومأله ١٣٥ ط / القارئ والمستمع ؛ وما اجزا قليله ، وبان القطع لمن خالف في أول مسألة منه ، لزم أن آخره كأوله من المعنى ، والتأويل في اللغة على مثل ما أنا مفسره لك إن شاء الله .

أثر الهوى في هلاك الإنسان ،

فافهم جوابي ، وقف على معانيه - أرشدك الله ووفقك - واعلم ان عامة الآيات ، التي اعتلوا بها ، تخرج على الهوى - وهو القائل ^(١) للإنسان لكل خطأ وردى ^(٢) وبلاء وظلم ، ولذلك قال الله ، عز وجل : ﴿ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ﴾ ^(٣) .

فأخبرنا ، عز وجل ؛ أن الهوى هو الذي يُوقع في المهالك ؛ ولم تصح دعوى ^(٤) من ادعى الوسوسة إلا بالكابرة ، وما لا يصح بحجة .

وقال (عز وجل) ^(٥) : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَفْلُحُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ ^(٦) .

(٢) في الاصل : ردا .

(٤) في الاصل : دعوا .

(٦) سورة ص آية ٢٦ .

(١) أي الذي يدعو ويجعل الإنسان ، وهو من ، قول - أو قيل .

(٣) سورة النازعات آية ٤٠ .

(٥) ليست في الاصل .

ومما كان ينبغي للقوم الرادين على أهل الخطأ أن يقولوا لهم ، فى صفة الغلام المولود فى الجزيرة ، الذى لم ير^(١) أحداً قط ، ولم يصل إليه أمرٌ بطاعةٍ ولا معصية ، ولا معرفة خير ولا معرفة شر .

أخبرونا : هل يقدر إبليس يغويه ويضله ، أم لا يقدر (على) ^(٢) ذلك ؟
فإن قالوا : إنه لا يقدر على أن يضله . لزمهم لنا عجز إبليس وضعفه ، وأنه لا يقدر أن يغوى أحداً من الخلق ولا يضله ، ورجعوا عن قولهم ودعواهم فى إبليس أنه قادر على إضلال الخلق وإغوائهم .

وإن قالوا : إنه قادر على إضلال ذلك الغلام وإغوائه .

قلنا لهم : فأخبرونا عن إبليس مخيرٌ فى ذلك الفعل أم مجبرٌ عليه جبراً ؟
فإن قالوا : إنه مجبورٌ عليه . لزمهم أن الله ، عز وجل ، البرئ من قولهم ، أنه أجبر إبليس على إضلال ذلك الغلام ؛ وقد أخبرنا فى كتابه أنه لم يخلق إبليس إلا لطاعته لا لمعصيته ؛ إذ قال ، عز وجل ؛ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٣) .

* * *

يرسل الله الرسل لإقامة الحجة،

فكيف انتقض قوله ، وجبر إبليس على إضلال ذلك الغلام ، من قبل أن يبدأ بالخير ، ومن قبل أن يلزمه الله ، عز وجل ، حجة ، إذ قال : ﴿ لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ^(٥) !

فتراه قد عذَّب هذا الغلام لإضلال إبليس له من قبل أن يبعث إليه رسولاً ، ومن قبل أن يلزمه حجة واضحة ، وتراه قد بدأ بالشر قبل الخير ، وبالنقمة قبل النعمة ، وبالضلال قبل الهدى ؛ وبالسوء ^(٦) قبل الإحسان ١٩ ..

وليس هكذا ^(٧) وصف نفسه ، عز وجل ؛ إذ قال : ﴿ اللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ^(٨) ، وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(٩) .

(٢) زيادة ليست فى الأصل .

(٤) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٦) فى الأصل : بالسواية .

(٨) سورة البقرة آية ٢٠٧ .

(١) فى الأصل : يرى .

(٣) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٥) سورة الإسراء آية ١٥ .

(٧) فى الأصل : هكذى .

(٩) سورة البقرة آية ١٨٥ .

فأى عسر أعظم ، وأى بلاء أكبر من أنه أقدر إبليس على ذلك الغلام الذى فى
١٣٦ و / الجزيرة بلا ذنب ولا جرم ، فاضله وأغواه عن غير استحقاق !!

خلق الله إبليس لطاعته .. وهو من الجن :

وقد خلق الله إبليس أيضاً للطاعة ولم يخلقه للمعصية ، إذ قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ
الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) ^(١) ، وإبليس فهو من الجن ، يصدق ذلك قول الله عز
رجل : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ
عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٥٠) ^(٢) .

فتراه يخبرنا عن فسقه عن أمره باختياره ، ويلومنا عن اتخاذنا له أولياء ولذريته ،
وذلك الانخاذ هو اتباعنا لهم على معاصيهم ، وفعلنا للظلم كفعلهم .

عودة إلى قصة دحى بن يقظان :

رجع الكلام إلى إضلال إبليس للغلام الذى فى الجزيرة .
فنعول لهم : أخبرونا حيث خلق الله إبليس للطاعة ، اليس عليه الطاعة لله ، عز
وجل ، فريضة ١٩
فإذا قالوا : بلى ، قلنا لهم : فأخبرونا عن إضلاله للغلام أهو طاعة لله ، عز وجل ،
أو معصية ١٩

فإن قالوا : هو طاعة لله ، عز وجل . لزمهم - صُغْرَةُ أَقْمِيَاء - أن إبليس مطيع لله ،
عز وجل ، فى إضلال الخلق ، وأنه يوم القيامة ؛ (على طاعة) ^(٣) لا على معصية ؛
وفى هذا نقض القرآن ، والكفر بالرحمن والخروج من الإيمان .

وإن قالوا : إن إضلال إبليس للغلام هو معصية لله ، عز وجل . لزمهم أنه قد ترك ما
خلق له واتبع هواه ، وخالف خالقه ووجب عذابه بمعصيته ، وقالوا بالعدل .

(٢) سورة الكهف آية ٥٠ .

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٣) زيادة ليست فى الأصل .

ثم نقول لهم : أخبرونا ليس قد قال الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ^(١) ؟
فإذا قالوا : بلى ^(٢) .

قلنا لهم : فاعبرونا عن ذلك الغلام الذى فى الجزيرة ، كيف يغويه إبليس ، وكيف يضلّه ، وكيف يضل غيره من جميع الخلق – على أنه ما لزم فى واحدٍ لزم فى جميع الخلق ، إذ القصة واحدة ؟ .

فلا بد لهم أن يقولوا : إنه يبدو لهم . فيردون على القرآن ، ويضلهم على وجه من الوجوه .

فإن ادعوا أمراً لا تقبله العقول ، ولا تقوم لهم به حجةٌ سقط قولهم ؛ إلا أن يدعوا أنه يقدر على الخلق ، كقدرة الله ، عز وجل ؛ على خلقه . . . (فيوجبوا) ^(٣) خالقاً آخر قادراً قوياً مع الله . . . فيلزمهم الشرك والخروج من فيه الإسلام كافةً ، لابد لهم من ذلك ، أو الرجوع عن الجهل .

فإن قالوا : إن الله ، عز وجل ، أقدره على ذلك ، وجعل له إليه السبيل .

* * *

هل أقدر الله عدوه على ما لم يعطه لأوليائه ،

لزمهم أن الله ، عز وجل ؛ جعل لعدوه ، المخالف لأمره والعاصى له ، من القوة والمقدرة والسلطان ، ما لم يجعل لأوليائه ذلك ، وأهل طاعته من الأنبياء والمرسلين ؛ وأنه قد وصّل عدوّه وأمكنه من المنزلة الشريفة والمرتبة الرفيعة ، التى نال بها أولياء الله ، عز وجل ؛ رسّله ، عليهم السلام ، وبلغ بها مكروهمهم ، وأحرق بها قلوبهم ، على قود قولهم !

فكان له من الخطر العظيم والعطية النفسية والعلو والدرجة الكريمة / والقدرة ١٣٦ ط / القاهرة ما علا به على الخلق المطيع منهم والعاصى ؛ وبأن بذلك الفضل على

(١) سورة الاعراف آية ٢٧ .

(٢) فى الاصل : بلى .

(٣) زيادة ليست فى الاصل .

الأنبياء والمؤمنين إذ معه من عطية الله ، عز وجل ؛ وموهبته وخصوصه ما ليس مع
الأنبياء الله ، عز وجل ؛ ولا مع أوليائه ! .

فأى عطية أجل من هذه العظيمة ! .. وإى كبيرة أكبر من هذه الكبيرة (التي) ^(١)
نسبتموها إلى الله ، عز وجل ؛ أنه خص بها إبليس ، ولم يُعطاها رسله ولا أوليائه ولا
من يسمي في طاعته ، وأعطاه من كفر به واشرك واستكبر ، وقال : ﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ
لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَإٍ مُّسْتَوٍ ﴾ ^(٢) !

فهذا استاهل ، عندكم ، أن يجعل له المقدرة القاهرة والسلطان العظيم على خلقه
الضعفاء المساكين ، الذين افترض عليهم أن يحذروا عمله ولا يتبعوا معاصيه ولا
يقفوا آثاره ولا يفعلوا كفعله ! .. سبحانه الله العظيم عما قال المبطلون ، وعلا علواً
كبيراً .

* * *

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٢) سورة الحجر آية ٣٣ .. وجاءت في الأصل ﴿ .. خلقته من طين ﴾ وهو خطأ بين

الحجة الأولى

فى إبطال قدرة إبليس على الإغواء

ومن الحجة فى إبطال قدرة إبليس وما ادعوا فيه من آيات القرآن جميعاً ؛ التى فيها ذكره وسوسته لبني آدم ، أن ينصرف كله على الهوى الذى يهواه الناس مع شيطان بني آدم أيضاً .

وإنما الهوى شيطان ؛ لأنه رصاً للشياطين ، على مقدار قول موسى ، صلى الله عليه ؛ حيث وكز^(١) القبطى فقتله : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٥) ؛ أى إنه عدو لبني آدم ؛ عليه السلام . ونولده من بعده على العداوة الأصلية ؛ إن هذه المعصية من جنس عمل الشيطان الذى عمله ؛ فكان معصية .

لم يشارك الشيطان موسى فى قتل القبطى ،

ولو كان قتل موسى ، عليه السلام ، للقبطى عملاً للشيطان عمله هو ، دون موسى ، ﷺ ، لم يجز أن يقول الله ، عز وجل : ﴿ قَتَلَتْ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتْنَاكَ قُتُونَا ﴾ (٣) ١٩ .. وكان الواجب أن ينسب قتل القبطى إلى قاتله ، وهو إبليس ، ولا يرمى^(٤) به موسى ، وهو برى : ﴿ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ (١١٢) ؛^(٥) .

وكيف يدخل ، عز وجل ، فيما عاب ، أو يُنرم البراء قتل الشحناء^(٦) ١٩ .. وإن كان إبليس أعان موسى فى قتل القبطى ، بمقدار شعرة ، لزمه أنه شريك لموسى ، عليه السلام ، فى القتل ، ووجب عليه نصف الدية فى حكم الإسلام ؛ لأن الدية على من قتلوا^(٧) كلهم لا بعضهم دون بعض ؛ وكل من قتل رجلاً فلا بُدَّ أن يكون معه إبليس بالحضرة يقتل معه الناس أين ما كانوا . وكذلك الزناة واللاطه^(٨)

(٢) سورة القصص : آية ١٥ .

(٤) فى الأصل : يرمي .

(٦) الشحناء : الجعد والعداوة والبغضاء .

(١) أى ضربة بيده مضوم أصابعها فى صدره وهو لا يريد قتله .

(٣) سورة طه : آية ٤٠ .. والفتون : الإبتلاء ؛ وهو مصدر .

(٥) سورة النساء آية ١١٢ .

(٧) فى الأصل : قتل .

(٨) مفردا لوضي : أى من عمل عمل قوم لوط ، والمصدر منها لوط .

وشراب الخمر والسراق ، وجميع أهل المعاصي في البر والبحر والشرق والغرب والسهل والجبل ؛ فيكون معهم إبليس مشاركاً لهم في جميع المعاصي أين ما كانوا .

١- فإن قال من خالفنا بهذا القول الزمهم أن ليس بين ربهم القول العزيز المطلع ١٣٧و / على جميع الخلائق - فرق ، وين / إبليس الدليل العاجز الضعيف ١ .

في إبطال أن له أعوان

وإن قالوا : إن له أعوان يفرقهم في جميع البلدان ، فيضلوا ^(١) الخلق ؛ لزمهم أن يقال لهم : أخبرونا عن هؤلاء ^(٢) الأعوان والجنود لإبليس ؛ مجبورون على إضلال الخلائق وتفرقهم في جميع البلدان ، حتى لا تخفى ^(٣) عليه خافية سرّاً ولا علانية ، أم مخيرون تخييراً ؟ ١٩ .

إبليس هل هو مخير أم مجبور ؟

٢- فإن قالوا : بل هم مجبورون جبراً على إضلال الخلائق .

قلنا لهم : فما حيلة الخلائق ؟ ١٩ .. وإى قوة (لهم) على أن يخرجوا من تسليط ربهم عليهم ، ما لا يقدرّون على التخلص منه ١٩ ..

ويلزمهم أن القرآن قد انتقض في قوله ، عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ^(١) .

هل إضلال الشيطان للناس عبادة منه لله ؟

فإن زعموا أن إضلالهم للخلق هو عبادة لله ، عز وجل ؛ ألزموه ، عز وجل ؛ الجور والظلم والعذاب ، لمن عبده وأطاعه ؛ إذ قال في كتابه إنه يعذب المطيعين ، إذ

(١) في الأصل : فيضلون .

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦ .

(١) في الأصل : فيضلون .

(٢) في الأصل : تخفى .

قال : ﴿ وَجَنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ (١) ، وقوله ، عز وجل : ﴿ لَا مَلَأْنَا جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٥) ﴿ (٢) ...

فتراه سمى المطيعين له غاوين - على قنود قولكم !..

٣- وإن قلتم : مجبورون تخييراً لا قسراً لزمكم ان قولكم بالجبر باطل ، وإن أهل العدل أصوب قولاً منكم ، وإن الناس يقدرُونَ أن لا يطيعوا إبليس في قوله وأمره وفعله ووسوسته ، وأن لهم عن ذلك مندوحة ومعزلاً وغنى (٣) ؛ وأنه لا مقدرة له على معصيتهم ، ولا مقدرة له ولا لجنوده على إضلالهم جبراً أو قسراً ؛ لأنهم - أعني الجن - مخيرون تخييراً ؛ ولذلك لزمهم أن لا يضلوا عباد الله ، عز وجل ، إذ خلقوا كلهم للطاعة لا للمعصية .

من الذي قتل القبطى موسى أم الشيطان أم هما معا ؟

ودليل آخر ؛ أنه لا يجوز لموسى ، صلوات الله عليه ، فى عظمة وشرف مقامه وكمال ورعه وصدق لسانه وبارع علمه ، أن يلزم إبليس قتل القبطى ، وهو القاتل له وحده ؛ إذ قال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٤) فالزمه إياه كله ، ولم يقل : هذا من عمل الشيطان وعملى معه أيضا ، فيلزمه الكذب ها هنا . إذ كذب على إبليس إذ ألزمه القتل كله ؛ ولم يذكر نفسه !..

وهذا خارج من الحق ، والأنبياء لا يقولون إلا الحق ، صلوات (الله) عليهم أجمعين ؛ وإنما المعنى فيه الذى عنى (٥) الله ، عز وجل ؛ أنه - أى موسى ، عليه السلام (٦) - عنى أنه - أى القتل بلا ذنب ظلماً (٧) - من جنس عمل الشيطان وشكله ، إذ عمل إبليس المعصية فى بدء الأمر ، يوم غش آدم ، صلى الله عليه ؛ وكان إبليس أول من عصى (٨) الله ، عز وجل ؛ معصية عمد ، لا ما ذهب إليه الجاهل أنه

(٢) سورة ص آية ٨٥ .

(٤) سورة القصص آية ١٥ .

(٦) فى الأصل : عينا .

(٨) من وضعنا .

(١) سورة الشعراء : الآيتان ٩٥ - ٩٦ . ، ويختصمون : يتجادلون ويتنازعون .

(٣) فى الأصل : وهنا .

(٥) ليست فى الأصل .

(٧) من وضعنا .

(٩) فى الأصل : عينا .

يقدر على القلوب ولطائف الصنع ، كقدرة الله ، عز وجل ؛ وكذب العادلون بالله ،
وضلوا ضللاً بعيداً .

* * *

لقد ساوى المجرة بين إبليس وخالقه ،

ومن قال هذا ، فكيف بالله ، عز وجل ^(١) ، ساوى / بينه وبين خلقه فى القدرة
ولطائف الصنع ..!

فنعوذ بالله من العمى ^(٢) فى دينه والصد عن سبيله .

ولو كان إبليس يضلُّ الخلق بأمرٍ لا يعرفونه ، وسبب لا يرونه ، وبحيله لا يهتدون
إلى وصفها ولطائف تدق عليهم ؛ لوجب أن له من المقدر والقوة مثل ما لله ، عز
وجل! ..!

وهذا أعظم الفساد وأكبر الإلحاد وأشد العناد .

* * *

(١) أى كيف يكون ربه ؟ بعد أن وصف إبليس بما لا يكون إلا لله الواحد الاحد المقادر القاهر الخالق العزيز .

(٢) فى الاصل : العمى .

الحجة الثانية

إقامة الدليل على أن إبليس لا يعد أحداً أو يمينه

ومن الحجة عليهم ، فى دعواهم أن إبليس يعدهم بالفقر ويأمرهم بالفحشاء ؛ أنا ، نحن وهم ، لم نشاهد أحداً يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء إلا شيطان بنى آدم ، فكيف جاز لهم أن يقطعوا الشهاد على شيطان الجن دون شيطان الإنس ، وقد أعلمهم الله ، عز وجل ، أن فى الإنس شياطين وفى الجن شياطين ^(١) . . .

فَلَمْ يقطعوا الشهادة على الجنى دون الإنسى ، والإنسى ، بالمشاهدة (هو) ^(٢) ، الذى عمل بنا العمل ؛ والجنى لم نشهد عليه ، بالعبان ، كما شهدنا على هذا الآخر ؛ والله ، عز وجل ، فلم يُفرد واحداً منهما دون الآخر فى كتابه ^(٣) . . فكيف جاز لهم هذا القول ؟ . . .

ولو كان لإبليس من القوة والقدرة ولطائف الصنع ودقائق الأسباب ، التى لو اجتمع الخلق على أن يقفوا على كنه واحدة منها ما قدروا على ذلك أبداً .

فيلزم من خالفنا أن ليس بين قوة الله ، عز وجل ، وقدرته ولطائف صنعه ودقة أسبابه ، وبين قدرة إبليس وقدرته ولطائف صنعه ودقائق أسبابه فرق ، وبين الخالق - وهذه صفة الواحد الفرد الذى ليس كمثله شئ - والذى قالوا فى قدرة إبليس ولطائف معانيه ، يوجب فساد التوحيد ؛ وأن كمثله الله ، عز وجل ؛ حياً يقدر كقدرته ويفعل كفعله . . . عز عن ذلك القوى العزيز .

هل أقدر الله إبليس على ما يفعل ؟

فإن قال قائل : إن الله عز وجل ؛ أقدره على ذلك ، وجعل له السبيل والقوة على

(١) يشير إلى قوله ، عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجْرٍ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ الانعام آية ١١٢ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّاطِئِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ الانعام آية ١٢١ .

(٢) زيادة ليست بالأصل .

(٣) ويمكن أن نفرد هكذا : فلم يفرد . . . ٤٩ . . .

فعله . لزمه أن حكمة الحكيم ها هنا غير حكمة ؛ وحسن نظره لخلقه غير حسن نظر ، ورحمته لهم غير رحمة ؛ إذ أقدر عليهم عدواً يأتبهم من حيث لا يعلمون ، وقد أمرهم بمخالفته بعدما أقدره عليهم . . . فأي جور يكون أعظم من هذا الجور ، وأي ظلم يكون أكبر من هذا الظلم ، إذ كلفوا الحذر ممن لا يرون إلى معاني أسبابه الواقعة ، ١٣٨ و/ بعد ما قال في كتابه ، على لسان نبيه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ^(١) ؛ وقوله : ﴿ إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ ^(٢) ؛ وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(٣) ، وقوله : ﴿ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحيماً ﴾ ^(٤) .

الحق لا يختلف ولا يتضاد:

فهذا شيء يخالف بعضه بعضاً ، والحق لا يختلف ولا يتضاد ؛ إنما الذي يختلف ويتضاد الباطل . وإن لا ، فهل يوجدونا حجة نعقلها ، ويعقلها معنا الرجال ، ذروا الالباب ، حتى تصح وتلزمنا بها الحجة ؛ إن واحداً منهم ، أو من غيرهم ، وعده إبليس - منذ خلق - الفقر ، أو صده عن الطاعة ، أو وسوسه في صلواته أو في غيرها .

كيف وعد وسوس؟

كيف ذلك كله الذي كان من إبليس إليه !!

فإن جاء فيه بحجة قاطعة بيّنة تشهد عليها العقول ، ويفهمها أهل العلم والمعرفة بأمر واضح بيّن ، رجعنا عن قولنا إلى قوله ، وثبتنا عما كنا عليه .

أدوات المعرفة:

لأننا لا نعقل الوسوسة والأمر بالفحشاء ولا وعد الفقر ، إلا على قدر البينة التي نبأنا الله ، عز وجل ، عليها وما جعل لنا من الإدراك بالخواص الخمس وبخاطر العقل .

(٢) سورة الطلاق آية ٧ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٥ .

وهذا الشيطان - الذى ذكره مخالفونا - لم يلقانا قط فيكلمنا مواجهة ولم يكلمنا من وراء حجاب ؛ ولم يخاطبنا على لسان رسول بعثه إلينا ؛ فلم يأتنا منه كتاب نقرأ ونعلم ما فيه ، وليس البنية - التى نحن عليها - تعقل الأشياء ، ولا تصل إلى علمها إلا من هذه الجهات ، وهى الحواس الخمس - التى لا سبيل لبنى آدم إلى شئ مما يدركونه إلا بها - وقد سقطت كلها عما ادعوا ؛ وأن إبليس لم يأتنا قط من قبل الحواس الخمس .

فقد بان هذا وصح ، وبطلت فيه دعوى كل كاذب على الله ، عز وجل ؛ وعلى كتابه ؛ إذ جهلوا القرآن ومعانى اللغة العربية فيه .

نفى كون إبليس تأثير فى قلوبنا ،

فإن قالوا : إنما يأتى إبليسُ الناس من قبل أن يوقع ذلك فى قلوبهم لا غير ذلك .
لزمهم القول الأول ؛ أنه يجب له من القوة والقدرة الدقيقة اللطيفة ما يجب لرب العالمين العلى العظيم ؛ الذى لا يقدر على تصريف القلوب وتقليبها غيره ، عز وجل !

وإبليس أقل وأذل وأضعف من أن يكون بهذه المنزلة العالية الرفيعة ، التى لم يقدر عليها الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون ؛ وقد مدح الله ، عز وجل ، نفسه - فى غير موضع من القرآن - باطلاعه على القلوب وعلمه بالضمائر وقدرته على تصريفها وتقليبها ، فقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ ﴾ (٢٤) .^(١)

فإن كان إبليس يقدر أن يحول بين المرء وقلبه ، فقد لزمهم ووجب عليهم أن له قدرة كقدرة الله ، عز وجل ، وأنه قد ساواه فى هذه المنزلة التى مدح الله (عز وجل)^(٢) بها نفسه ولم يكن له عليه فضل .

١٣٨ ظ / وقد زعمتم أن إبليس يقدر أن يحول بين المرء / وقلبه . ومن قال بهذا فقد بان كفره وظاهر جهله ، وخرج من الإسلام كافة ، وقال الله ، عز وجل : ﴿ وَنَقَمْنَا مَا

(١) سورة الانفال آية ٢٤ .

(٢) ليست فى الاصل .

تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَتَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴿١﴾ ، فتراه - عز وجل - قد أضاف
وسواس النفس إلى النفس ولم يضيفه إلى إبليس .

الهوى هو الداعى ..

إذا الهوى ^(٢) هو ^(٣) الداعى إلى كل صواب وخطأ ووسواس وكل خير وشر ، وأنه لا
فاعل لذلك غير آدمي ؛ إذ لا قدرة لأحد على تصريف القلوب ، وإمالتها عن شئ إلا
الله الواحد الفرد القوى القادر اللطيف الصنع ، الذى عجز عن كنه لطائفه أهل
الغموض فى العلم ^(٤) ؛ وأهل التدقيق من أهل النظر ، وتاهت العقول والأوهام عن
إدراك ذلك ، وثبتت به الوجدانية ووجبت به على الخلق الطاعة .

فإذا كان موصوف آخر غيره تحب له هذه الصفة الشريفة الكريمة العظيمة فما الفرق
بينهما ... بينوه لنا إن كنتم صادقين ...

احتجوا بقوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ^(٥)

فإن قال قائل : قد قال الله ، عز وجل ، فى كتابه ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ الذى
يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ فقد أخبرنا بهذه فلا حجة لكم
فيها .

الرد عليهم فى احتجاجهم :

قلنا رادين عليه ، لجهله ، وناقضين عليه خطاه ، ومحتجين عليه بما يقطع - بمون
الله - على أداء الصواب ، والقول بالحق : إنما عنى ^(٦) الله ، عز وجل ، بهذه الآية -

(١) سورة ق : آية ١٦ .

(٢) فى الأصل : الهوا .

(٣) زيادة ليست فى الأصل .

(٤) لا أدري ماذا يقصد بهذه العبارة .. غير أنه ربما قصد علماء الطبيعة والرياضيات .. أو قريها من هذا .

(٥) سورة الناس الآيات ٤ - ٦ .

(٦) فى الأصل : عنا .

التي ذكرت - ما يتصور في قلوب بني آدم وفي صدورهم وما تجريه الخواص في الصدور^(١) ، من ذكرها للجنة والناس في الصلاة وفي غير الصلاة ؛ إن ذلك أمر غير مجهول لما تجده يوسوس في صدرك من ذكر الجنة والناس ؛ ولا موسوس وموسك ولا مكلّم كلمك ولا أحسست أحداً مازج قلبك .

هل هناك وسوسة من الأصل ؟

والدليل على صدق قولنا ، وثبوت حجتنا أنك - إذا كنت تصلي ثم خطر في صدرك خاطر - أن أحداً من الناس لا يكلمك في صلاتك ؛ إذ قد علم الناس أن ذلك شيء لا يجوز ؛ فاحد لا يكلم أحداً في الصلاة ، ولا يوسوسه ولا يساره إذا هو يصلي ؛ بإجماع الخلق معنا على هذا القول ..!

فإن وسواس الإنسان - الذي ذكره الله ، عز وجل ، حيث قال : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾^(٢) .

فأخبرونا الآن كيف وسواس الناس للناس في الصلاة إن كنتم صادقين ؟ .. فلا سبيل لكم إلى ذلك أبداً .

فإن قالوا : هو صياح من يصيح بي ، وكلام من يكلمني .

قلنا له : ليس ذلك يعني ، إنما يعني وسوسة دقيقة لطيفة ، كما ادعيتم ؛ لإبليس ؛ ١٣٩ و / فأما أصوات بني آدم ، وشغلهم للمصلي فهو كثير غير قليل . فبطل ما ادعيتم في وسوسة بني آدم لصاحبه في الصلاة وحدها .

(١) إنه يشير إلى الخواطر والتي قسمها الغزالي إلى دواعي خير وشر .. وسماها إلهامات ووسوس .. والداعي إلى الأولى الملك ، وإلى الثانية الشيطان .

(٢) سورة الناس آية ٦

يعني لا يخرج عن كونه حديث النفس وتردها بين خواطرها المختلفة ؛ ومن هذه الخواطر ما هو خير وما هو شر ؛ تنشأ من اشتغال الإنسان بالدنيا وما يبتازعه فيها من رغبات وأهواء وأماسي .

لهذه الآية تأويل لم يدركه المجرة :

ووجب أن له تأويلاً لم تعرفوه ^(١) ، وكذلك يلزمكم في وسواس الجن للناس ؛ أنه لا يعقل إلا بإدراك الحواس الخمس ^(٢) ، وقد صبح أن الحواس لا تدرك إلا ما كان محسوساً ^(٣) ؛ ولذلك سميت الحواس لحسها الأشياء كلها ^(٤) وإدراكها لها كلها ؛ ولذلك لزمها التأديب والأمر والنهي والثواب والعقاب .

أثر الإدراك الحسي في المعرفة :

فلما ما لا تدركه الحواس فلا حجة عليها فيه لله الواحد ، الذي لا يدرك بالحواس ؛ وبذلك وجبت له الوحدةانية ، واستحق الربوبية ، إذ لا يدرك بالحواس ولا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس .

إدراك التكليف شرط من شروط قبوله :

فإن كان ثم شيء نهينا عنه وحذّرنا عن مواقعتة ، وهو شيء لا تدركه الحواس ، فهذا تكليف ما لا يطاق ولا يعرف ولا يمكن الحذر منه ، لغموضه فإنه لا يدرك أبداً ؛ فهذا ما لا يجوز على الله ، عز وجل ، في حكمته وحسن فعله وعدله ، البعيد

(١) أي لهذا الوسواس الخناس .

(٢) في بيان أن الحواس خمس أو أكثر انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين ٢١ / ٣٠ .

(٣) في بيان أن الحواس لا تدرك إلا ما كان محسوساً ، انظر رأي علماء الأصول وخلافهم حول هذه المسألة .

الأشعري : المقالات ٢١ / ٥٩ .

(٤) في بيان معنى الإدراك انظر المرحماني : «التصريفات» ، ص ٢٥ حيث يقول : الإقوال : هو الإحاطة بالشئ بكماله . وهو حصول الصورة عند النفس الناطقة ، وتمثيل حقيقة الشئ وحده ، من غير حكم عليه بنفي أو إثبات ، ويسمى تصوراً ، ومع الحكم بأحدهما يسمى تصديقاً

أما كيف يحدث الإدراك الكلي من الحس المشترك ، فيقول عنه الأمدى في كتابه «المبين» ، ص ١٠٥ : وأما الحس المشترك ، ويسمى لفظاً : فعبارة عن قوة مرتبة في مقدم التجويف الأول من الدماغ ، من شأنها إدراك ما يتأدى إليها من الصور المنطبعة في الحواس الظاهرة

عن الجور والظلم أن يحذر العباد عن أمر لا يقفون له على كنه ولا يقفون له على صفة^(١).

العوام لا يدركون تأويل التشابه:

ولا يجوز أن يكون بهذه الصفة إلا الله الواحد القهار ، الذى ليس كمثله شئ وهو السميع العليم ؛ وفى القرآن (الكريم) ^(١) آيات متشابهات لها تأويل لا يحقله العوام ولا الغباة من الانام ^(٢) ؛ ولها أيضا معانى دقيقة فى لغة العرب تعرفها العرب فى كلامها ، ويجوز فى خطابها ، لما خاطبها رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله ، عن الله عز وجل ثناؤه ؛ بلسانها العربى المبين ؛ الذى لا عوج فيه ولا عماية فى نسقه ؛ ولا خفاء عنهم فى تصريحه ؛ ولذلك لزمتهم به الحجة ؛ إذ هو عربى لا يخفى عليهم منه حرف واحد فما فوقه ؛ لانه عربى مبين ، كما قال الله ، عز وجل .

الوسواس هو ما يخطر على قلب الأدمى من ذكره الجنة والناس:

فمن الشواهد على ما قلنا : أن الوسواس إنما يعنى به ما يخطر على قلب الأدمى^(٤) من

(١) هل يكلف الله عباده ما لا يطال .. أو يجوز فى حقه ذلك ؟

اختلف المقاتلون بالعدل والتوحيد مع التيار الجبرى ، الذى يمثل جهنم بن صفوان والأشعرى من بعد ، وغيرهما من الطوائف الإسلامية - والفرق بينهم فى الدرجة وليس فى النوع - فى هذه المسألة .. انظر الإيجى : للمؤلف ؛ ص ٣٢٠ ، والأشعرى : للمص ١ ص ١٠٧ وما بعدها ، والقاضى عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة ، ص ٣٩٧ .

(٢) زيادة ليست فى الأصل .

(٣) انظر الأشعرى : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ٢ / ١٠٣ .

(٤) فى بيان موقف المسلمون من الخواطر .. ومعنى الوسواس .. وكيف يوسوس الشيطان لبني آدم .. وكيف اختلفوا فى ذلك ، انظر الأشعرى : مقالات الإسلاميين ٢١ / ١٠١ ، ١٣٤ ... اما الخاطر فى المصطلح ، فقد ذكره المرحاننى فى التعريفات ، ص ١٠٧ .. فقال : الخار : ما يرد على القلب من الخطاب ، أو الولد الذى لا حمل للعبد فيه ، وما كان خطاباً فهو أربعة أقسام :-

١- وهائسى : وهو أول الخواطر ، وهو لا يخطئ أبداً ، وقد يعرف بالقرة والتسلط وعدم الاندفاع .

٢- وملكسى : وهو الباحث على مندوب أو مفروض ، ويسمى إلهاماً .

٣- ونفسانى : وهو ما فيه حظ النفس ، ويسمى هاجساً ، وشيطانى ، وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق ، قال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ سورة البقرة آية ٢٦٨ .

وهكذا نجد المرحاننى ، فى القرن التاسع الهجرى ، لا ينسب للشيطان فعلاً فى الإنسان ، لقد كان للمسلمون فعلاً على وحى .. لولا غلبة الخرافة على جهالهم .

ذكره الجنة والناس ، لا أنهم يوسوسه فى صلاته ، فاما غير الصلاة فإن شياطين بنى آدم توسوس إخوانها بكل شئ مما تأمرها به ، وتشير عليها من القتل والزنا والسرقه والشرب للخمر وجميع المعاصى .

* * *

شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض ، وكذلك شياطين الجن :

والدليل على ذلك قوله : ﴿ شَاطِئِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ^(١) فشياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض ، لا الجن توحى إلى الإنس ، ولا الإنس إلى الجن ؛ لانا لم نجد ذلك قط .

واما قوله - عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ ^(٢) فإنهم يقولون : لو شاء لحال بينهم وبين تلك المعاصى التى يوحى بها بعضهم إلى بعض ؛ حتى لا يقدرُوا على فعلها ؛ ولكنهم مخبرون غير مجبورين فافهم هذا الباب ، إن شاء الله ^(٣) .

* * *

أثر اللفظ ومعانيها فى فهم القرآن الكريم :

١٣٩ ظ / رجع الكلام إلى تفسير الشواهد على قوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ^(٤) .

(١) الشاهد الأول :

فمن ذلك قوله ، عز وجل : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ ^(٥) ، ثم قال فى ثمود ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ^(٦) ، فاخير عز وجل ؛ أن عاداً أهلكت بالريح الصرصر ^(٧) ، وأن ثموداً أهلكت بالرجفة ^(٨) ، ثم قال ، بعد

(١) ، (٢) سورة الأنعام آية ١١٢ .

(٣) اختلف المسلمون هل يخبر الجن الناس بشئ أو يخدمونهم ؟ .. انظر الاشمى : المقالات ، ٢ / ١١٠ .

(٤) سورة الناس آية ٦ .

(٥) سورة الحاقة آية ٦ .

(٦) سورة الاعراف آية ٧٨ .. وكذلك الآية ٩١ من السورة نفسها .

(٧) الريح الصرصر : شديدة البرودة .

(٨) الرجفة : الزلزلة الشديدة - يقال رجفت الأرض : أى اضطربت وزلزلت .

ذلك فى سورة حم السجدة ^(١) : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ^(٢)﴾ . ١

فجاء - ها هنا - أن الفريقين إنما هلكا جميعاً بالصاعقة بعد ما قال ما قال أنهما هلكا بالريح والرجفة ... ١

هذا من عجائب العربية ؛ لأن الريح عند العرب الصاعقة ^(٣) وكل عذاب هو عندهم صاعقة ؛ لا يشكون فى ذلك ؛ لما يعوا فى كلامهم وخطابهم ، والدليل على ذلك أن الصعق القيسى كان يقرى أضيفاً له ، واشتدت عليه الريح مآذنة فدعا عليها ، فسلطها الله ، عز وجل ، عليه فاهلكته فمات منها ؛ ولذلك لا يعرف هو ولا ابنه فى قيس إلا بعمر بن الصعق .

قال الشاعر :

وإن خويلداً فأبلى عليه قتيل الريح فى البلد النهامى

فسموه « الصعق » ورثوه بأنه قتيل الريح ، وإن الصعق عندهم - هو الريح ، فافهم هذا الباب ؛ إن شاء الله .

(٧) الشاهد الثلثى :

وشاهد آخر قوله ، عز وجل : ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ^(٤) والكفار لم يكونوا قط فى النور فيخرجوا منه ، وإنما هم فى الظلمة والعمى ^(٥) أهدأ ؛ وإنما المعنى فيه أن من مال عن الحق فهو خارج من النور ^(٦) .

(١) يقصد سورة فصلت ، وهو أحد أسمائها .

(٢) سورة فصلت : آية ١٣ .

(٣) الصاعقة : العذاب المهلك . قال تعالى : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ سورة الرعد / ١٣ .

والصاعقة كذلك : جسم نارى مشتمل يسقط من السماء فى رعد شديد .

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٣ ، وكذلك سورة الحديد آية ٩ . وقد وردت فى الأصل هكذا ﴿لنخرجهم ..﴾ وهو خطأ بين .

(٥) فى الأصل : العما .

(٦) يبدو أن المؤلف يقصد قوله تعالى : سورة البقرة آية ٢٥٧ .. لأن كلامه لا ينطبق إلا على هذه الآية .. وهو ما يؤكد أنه

كان يقصدها ، ولكن سبقه قلمه بذكر آية أخرى . وفيها يقول الزمخشري : (يخرجونهم) من نور البينات التى تظهر

لهم إلى ظلمات الشك والشبهة . الكشف ، ١ / ٣٠٤ .. وهو ما لا يفعله إلا شياطين الإنس .

(٣) الشاهد الثالث : (المقلوب في اللفظة) :

وقال الله ، عز وجل ، في صفة النار - نار الآخرة - ﴿ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧٥) ^(١) وأعلمنا أنه لا يفتر ^(٢) عنهم ؛ والذي لا يفتر هو الدائم غير المنقطع ، ثم قال : ﴿ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (٩٧) ^(٣) فأعلمنا - ها هنا - أنها تخبر ، و« الخبو » في لغة العرب ، التي يتجمد لهبها القوى ، ويعود إلى الجمود والسكون واللين بعد الشدة والحركة العظيمة ^(٤) .

قال الشاعر :

يسطع الضربُ بينهم لم يخبر كاخباء المقطع الأظباب .

وهذا يوجب الاختلاف ؛ وقد قال الله ، عز وجل ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) ^(٥) .

وإنما المعنى فيه وهو باب تسمية العرب المقلوب في اللفظة ^(٥) ، وكذلك تسمية المقلوب في لغاتها وأشعارها .

وإنما المعنى فيه أن النار كلما أحرقت جلودهم أعادها الله ، عز وجل ، على ما ١٤٠ / كانت عليه تاكلهم ، حتى يحترقوا ، ثم يعادوا ويبدأوا ، وذلك قوله ، عز وجل : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَثْمَهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ ^(٦) فقال - عز وجل - : كلما خبت زدنهم سعيراً ؛ يعني بالخبو ، خبو ما يحرق لا خبوها هي . وهذا الباب تسميه العلماء المقلوب في القرآن . وكذلك تسمية العرب في لغاتها وأشعارها .

قال الشاعر في نحو ذلك :

حتى لحقناهم تعدوا فوارسنا كأننا زغن قف نرفع الآلا ^(٧)

(١) سورة الزخرف آية ٧٥ .. والمبلس : الذي يأس من تخفيف العذاب ، من الإبلاس وهو الحزن المعترض من شدة اليأس .

(٢) لا يفتر : أي لا يخفف عنهم العذاب ولا يسكن .

(٣) سورة الإسراء : آية ٩٧ . (٤) انظر المعجم الوسيط ، مادة « خبو » ١١ / ٢١٦ .

(٥) سورة النساء آية ٨٢ .

(٦) انظر ابن فتيحة : تأويل مشكل القرآن ، باب المقلوب ، ص ١٨٥ وما بعدها .

(٧) البهت في الأمالي ٢٤ / ٢٨٨ ، وهو من بحر البسيط . (٦) سورة النساء آية ٥٦ .

فقال : نرفع الآل ، والآل ^(١) : السُّراب فى لغة العرب ، يريد أن الآل يرفع القف ، والقف : هضبة من الهضاب ، فيصير الآل يرفع المرفوع وهو الرافع .
وقال آخر :

ونركب خيلاً بعد خيل قواصداً .. وتعدوا الرماح بالضياطرة ^(٢) الحمر .

فصير الرماح تعدوا بالرجال ، والرجال هم الذين يعدون بها .

وفى ذلك يقول الله ، عز وجل : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ تَتَوَّاهُ بِالْغَصْبَةِ أَوْ لِي الْقُوَّةُ ﴾ ^(٣) والعصبة ^(٤) هى التى تنوء بالمفاتيح . فافهم هذا الباب ، إن شاء الله .

وقد قال الله ، عز وجل : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(٥) والعجل منه هو : وهذا حجة عليك فى قولكم : يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ، الا ترى قوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(٦) والعجل منه هو !!

ومن الشواهد على تصريف اللغة العربية ، قوله ، عز وجل : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ^(٧) والليل والنهار لا مكر لهما ، وإنما عنى ^(٨) ، عز وجل ، مكر الكفار ^(٩) بالليل والنهار ، فجاز ذلك فى اللغة ، كما تقول العرب : أكل الليل يضرنى .

(١) انظر المعجم الوسيط ، ٢٤/١ ، ٢٥ .

(٢) أى الفرسان العظيمة الضخمة المهابة .. والضبوطر : الضخم الاغناء عنده .. وقد نسب المبرد فى «الكامل» لحداد بن زهير ٢٧٤/١١ ، وكذلك ابن منظور فى «اللسان» ١٦٠/٦ ورواه هكذا : «وتشقى الرماح» .. وفى قصيدته التى رواها فى «جسمرة أشعار العرب» ، ص ١٠٨ .

وقال ابن قتيبة فى كتابه «تأويل مشكل القرآن» .. «ومن المقلوب ما قلب على الخطأ وذكره ، ثم قال : أى «نقصى الضياطرة بالرمح» وهذا ما لا يقع فيه التأويل لأن الرماح لا تنقص بالضياطرة ، وإنما يحصى الرجال بها ، أى يطعنون ، ص ١٩٨ . كما جاء فى «اللسان» : «ويجوز أن يكون عنى أن الرماح تشقى بهم ، أى أنهم لا يحسنون حملها ولا الطعن بها ، ويجوز أن يكون على القلب ، أى تشقى الضياطرة الحمر بالرمح ، يعنى أنهم يقتلون بها» .. وهو من بحر الطويل .

(٤) سورة القصص آية ٧٦ . (٥) العصبة : الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير ، والجميع عُصْبٌ .

(٦) سورة الانبياء : آية ٣٧ . (٧) سورة سبا آية ٣٣ .

(٨) فى الأصل : عنا .

(٩) ذكر ابن قتيبة فى «تأويل مشكل القرآن» باباً عن الحذف والاختصار قال فيه : «ومن ذلك أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له ، فذكر هذه الآية وما ذكره قوله تعالى ﴿ أَسْأَلُ الْغَفِيَّةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ يوسف ٨٢ - أى سل أهلها ، وقوله ﴿ أَشْرَبُوا بِقُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ البقرة ٩٣ - أى جب ، و «الحج أشهر مطهرات» البقرة ١٩٧ - أى وقت الحج - وغيرها فى القرآن كثير ، انظر ص ٢١٠ وما بعدها ، بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ، وقارن بهامشه ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ من «الصناعتين» للعالم البلاغى الكبير أبى هلال العسكري .

وهو لا يأكل الليل ، وإنما يريد : أكلى بالليل يضرنى .

قال الشاعر بمدح هوزة بن على الحنفى ^(١) :

خيلك فى الصيف فى نعمة تصان الجلال وتعطى الشعير ^(٢)

وإنما يريد تصان بالجلال ، فصير الجلال المصونة .

وقالت خنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية ^(٣) تصف ناقة بطلت ^(٤) ولدها :

ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت فإنما هى إقبال وإدبار ^(٥)

تعنى أنها مقبله ومدبرة ، لا أن فى صورتها إقبال وإدبار ، وهذا من عجائب العربية ، التى صرفوها إلى عقولهم واتباع أهوائهم هذا ، وإنما جربنا هذا الاحتجاج فى اللغة العربية وكيف تصريف معانيها فى القرآن ؛ ليعلم جميع من ^(٦) خالفنا فى إبليس وفى الجن أن ذلك كله له معنى يجرى فى اللغة العربية ، ويصرفها التأويل إلى ١٤٠ ظ / معنى ^(٧) غير الذى ظنوا ، ولكن لا معرفة للقوم بمعانى القرآن ، ولا معانى

(١) هوزة بن على بن ثمامة بن عمرو الحنفى ، من بنى حنيفة . من بكر بن وائل ، توفى سنة ٨ هـ / ٦٣٠ م : صاحب اليمامة (بنجد) وشاعر بنى حنيفة وخطيبها قبيل الإسلام وفى العهد النبوى .
وفيه يقول الأعشى (مهمون) قصيدته التى أولها : «بانت سعاد وأمسى حبيلها انقطعا» ومنها «من يلق هوزة بسجد غير متعب» دعاه الرسول ، ﷺ ، للإسلام .. فاشترط أن يشارك النبى فى أمره ، فلم يجبه ، فابى .. ومات بعدها بقليل .

(٢) البهت لأعشى بكر .. انظر ديوانه .. وكذلك فى الأمالى ؛ لآبى على القالى ١٤ / ٧٥ .

(٣) هى تخاضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، الرهاحية السلمية . من بنى سليم ، من قبس عيلان . من مضر ؛ توفيت سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥ م : أشهر شواهر العرب . وأشعرهن على الإطلاق . من أهل نجد ، عاشت أكثر عمرها فى العهد الجاهلى . وأدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله ، ﷺ ، مع قومها من بنى سليم فكان رسول الله ، ﷺ ، يستشدها ويحببها شهرها ، فكانت تنشد ، وهو يقول : «يه يا خنساء ! .. أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لاخبرها (صخر ومعاوية) وكانا قد قتلوا فى الجاهلية . لها ديوان شعر مطبوع ، فيه مابقى محفوظاً من شعرها . وكان لها أربعة بنون شهدوا حرب القادسية سنة ١٦ هـ فجمعت تخريضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً . فقالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ..

انظر ترجمتها بالأعلام للزركلى ٢١ / ٨٦ .. وبهامشه ما بلى : «شرح الشواهد ٨٩ - ومعاذ ١ / ٣٤٨ - والشعر والشعراء ١٢٣ - والدر المنثور ١٠٩ - والشرشى ٢ / ٢٣٣ - وفى أعلام النساء ١ / ٣٠٥ طائفة من أخبارها ، وحسن المحاضرة ، ص ٩٤ - وخزانة الأدب للبخداوى ١ / ٢٠٨ - وجمهرة الأنساب ١ ص ٢٤٩ - وفى القاموس : ويقال لها خناس - كغراب - أيضاً .

(٤) أى فقدت ولدها . (٥) البهت فى ديوانها ، ص ١١٢ .

(٦) فى الأصل ما . (٧) فى الأصل : معنا .

اللغة العربية التي خاطب الله ، عز وجل ، أهلها بكتابه المبين وجعله حجة عليهم إلى يوم الدين .

الهوى إله الكافرين .. وهو أعظم من إبليس :

ألا ترى إلى قوله ، عز وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ^(١) وإلا له عنده أعظم من إبليس ، أفلا ترى أن الكافر جعل إلهه هواه ، وكذلك يكون إبليس هواه ، إذ أثبتنا في كتابنا هذا الحجة الواضحة أن إبليس لم يغوينا بشئ وقعت عليه حواسنا ، وإنما كان إبليس عدواً لأبنائنا آدم ، صلى الله عليه ، وكل معصية من بني آدم منسوبة إلى تلك المعصية .

ألا تسمع إلى قوله ، عز وجل : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ ^(٢) ؛ فنحن نقول الآن ، لمن خالفنا : أخبرنا كيف يفتننا الشيطان إذ لانواجهه ولا نراه ولا نكلمه ولا يرسل إلينا ولا يكاتبنا ولا يقدر على قلوبنا ، لضعفه وذلته وعظيم عجزه ^(٣) ١٩

وأنا قد أوجبنا عليكم أنكم أثبتتم له أنه يقدر على القلوب ويوسوسها بلطفية لا نعلمها ، لزمكم أنه لا فرق بينه وبين ربكم ، الذي لا يعجزه شئ ، وأنكم إن قلتم : إنه أقدره على ذلك . وجب ظلمه لعباده وعذابه لهم على أمر أقدر عدوهم على فعله من حيث لا يعلمون ولا يقدررون على الحذر منه ..

وهذا خارج من العدل والرشد والرحمة وإرادة العسر لا اليسر ، لا مخرج لكم من هذا الباب ^(٤) .



(١) سورة المجاثية آية ٢٣ .

(٢) سورة الاعراف آية ٢٧ .

(٣) يقصد الإمام أحمد أن الذرية تفعل فعل أبيها حيث اتبع هواه ، حين سمع كلام الشيطان وترك كلام ربه - خافلاً وناسياً .. فالآية لا تفعلوا كفعله ولا تعصوا كما عصى ، واحذروا الهوى فهو شيطانكم ، حيث لا شيطان لكم غيره بضلكم ، وهو تفسير لطيف للآية بعيداً عن التصور المجرى لها .

(٤) اختلف الإسلاميون حول كيفية وسوسة إبليس لبني آدم على ثلاثة مذاهب .. انظرها في مقالات الإسلاميين ، للاشعري ٢ / ١٠٩ ، أما موقفهم من قضية هل يعلم الشيطان ما في القلوب ، فقد اختلفوا فيها على ثلاثة مذاهب كذلك ٢ / ١١٠ .

فإن قال قائل : فقد أراه أقدر بعضاً على قتل !

قلنا له : إنما جعل فينا استطاعة ^(١) ، وحرّم دمانا علينا ، ونحن نرى من يريد لنا ضرراً ، ونقدر أن نتقيه ونحذر منه ، وهذا الذي وصفتم لا يقدر أحد أن يحذره ، وهذا يخرج من العدل والحكمة .

وإنما إبليس ، الذي جرت عليه المخاطبة في جميع الآيات التي اعتلوا بها لا تخرج على شيء من جميع الأشياء إلا على الهوى المتبع والميل عن ^(٢) الحق والاقتداء في فعله ، فسمى ذلك كله لإبليس طاعةً وفعلًا له ؛ إذ الهوى صار إلى مراده وفي طاعته فنسب ذلك إلى إبليس ، فاعلم ذلك وقف عليه بأحسن الفكرة ، إن شاء الله .

كيف يروانا إبليس وذريته .. وما الرّدّ لك ذلك علينا ،

وأما قوله : عز وجل : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ^(٣) فهذا هو الصحيح من القول ، قد جعل الله ، عز وجل ، له ولقبيله أنهم يروننا من حيث لانراهم ، إذ هم في الهواء ^(٤) والملائكة في السماء ، ونحن في الأرض في الدنيا ، وليس لهم علينا مقدرة ولا كرامة لهم .

لَمْ يَصْرَفِ الْمَجْبُورَةَ كَلَامَهُمْ إِلَى شَيَاطِينِ الْجِنِّ دُونَ الْإِنْسِ ۖ

ومن جهل مخالفينا وعمى ^(٥) قلوبهم أن الله ، عز وجل ، ذكر شياطين الجن والإنس في كتابه ، فجعلوا جميع (همهم) ^(٦) وحجتهم ومخالفتهم واحتجاجهم ١٤١ /و/ علينا في شياطين الجن وحدهم ، ولم يذكروا ولم يحتجوا بشياطين الإنس - وهم أضر وأشدّ بلاء وبأساً وعلواً وإهلاكاً من شياطين الجن ١١ ..

(٢) في الأصل : من .

(٤) في الأصل : الهوى .

(٦) في الأصل بهاض

(١) الاستطاعة هنا بمعنى قوة وإرادة وقدرة ورغبة في الفعل أو عدمه .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٥) في الأصل : عما .

شياطين الإنس أخطر علينا من غيرهم ،

أفلا جعلوا بعض هذا الإغواء والضلال والفساد منسوباً إلى شياطين الإنس ...
كانهم لم يسمعوا الله ، عز وجل ، إذ يقول : ﴿ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُتَهَيِّئُونَ ﴾ (١) وهم شياطين الإنس خاصة (٢) .

من شيطانك أيها الإنسان ؟

ولأنهم لا يرون شياطين الجن ، بشاهدة القرآن ان شياطين الإنسان نفسه وظلمه
وهواه المتبع وعدوه من شياطين الإنس ، واقتداؤه بإبليس ، وإنما يسمعون ذكر
الشیطان في القرآن ، وما أخبرنا الله ، عز وجل ، عنه ، وله تاويل غير ما ظنوا تعرفه
العلماء ، ولا يشك فيه البصراء .

المثل في القرآن الكريم .. للتفهيم والتقريب ،

١ - ألا تسمع إلى قوله ، عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٣)
والسماوات والارض والجبال فإنما هي اجسام جمادية لا سميع فيها ولا بصير ولا
عقل ولا شفقة ولا طاعة ولا معصية ؛ وإنما مثل ضربه الله ، عز وجل ، للناس
يريد به ، أنها لو كانت تعقل - كما يعقلون - وتفهم - كما يفهمون - لما
حملت الأمانة ، كما حملتموها ولاشفقن منها (٤) .

(١) سورة البقرة آية ١٤ .

(٢) جاء في تفسير ابن كثير ان هؤلاء الشياطين هم رؤسائهم وكبرائهم وزعمائهم في الكفر والشرك وقادتهم كأبي جهل
وعتبة وشيبة وأمية بن أبي الصلت ، وكذلك اليهود الذين كانوا ينصرفون إليهم فيبشرون إليهم بعداء ، محمد
ﷺ ، ومحاربه ، والمنافقون الذين يهتلمون في الخفاء للكيد مع اليهود للإسلام ونبيه ، وقد كان ﷺ يتعمد من
شياطين الإنس والجن . ٥٥/١ ، ويقول الزمخشري : ماثلوا الشياطين فصاروا مثلهم ٦٥/١ .

(٣) سورة الاحزاب آية ٧٢ .

(٤) قارن ما ذكره الإمام هنا بما ذكره الطبري في تفسيره ، ٢٢ / ٣٨ - ٤٢ - فيوضح لك فرقاً كبيراً في التفسير والتاويل
وفيه دلالة على وعي هذا الإمام ومن جاء على نهجه ، من اصحاب التفسير البهائي للقرآن الكريم ، كالفاضل عبد القاهر
المرجاني والزمخشري وغيرهما .

٢- وقول الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١) فنقول لمن خالفنا : أخبرونا متى خاطبها الله أقبل
أن يكونا أو بعد ماكانتا ؟

فإن قالوا : قبل أن يكونا .

قلنا لهم : فكيف يخاطب الله ، عز وجل ، شيئاً لم يكون ولم يخلق ؟

وإن قالوا : خاطبهما بعدما كانتا .

قلنا لهم : فكيف يخاطب الله ، سبحانه ؛ شيئاً قد كان وخلقته ... فيقول له :

« ائت وكن » . وقد جاء وفرغ ؟

فلا يجدون حجة يدفعونها بها .

وإنما هذا على معنى أن الله ، عز وجل ، خلقهما (٢) وحيث أرادهما ، فجاءتا كما
أراد ، وليس ثم كلفة ولا اضطرار ولا قول « كن » لأنه الغنى لا يحتاج إلى شيء واحد
من جميع الأشياء كلها ، ولو احتاج لشيء واحد لاغيره بطل قوله : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ (٣) ؛
لأنه غنى عن عباده على الحقيقة لا على المجاز .

قاعدة في منهج الفهم :

وإنما هذه الأمثال والمعاني تحتاج إلى التأويل وطاعة العلماء والمستخلفين من أهل بيت
النبوة ، عليهم السلام ، وقد قال ، عز وجل : ﴿ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا
الْعَالَمُونَ ﴾ (٤) .

١٤١ ظ / فاعلمك (الله) ، عز وجل ، أنه لا يعقلها (٥) إلا أهل العلم ، ولا علم لمن
جهل معدن الحق وقدر النبوة وخيرة الأمة .

(١) سورة فصلت آية ١١ .

(٢) أى إنه تصوير ومجرد ضرب مثل لانفعالهما بالقدرة الإلهية ؛ ومجاز لا يؤخذ أبداً على حقيقته كما فعل بعض المشبهة
والكرامية حيث يرون أن اضراب هذه الآية لا مجاز فيها ، انظر ابن قتيبة : مشكل القرآن ١ ص ١٠٦ ، ١١٢ .

(٣) سورة لقمان : آية ٢٦ .. وهى جزء من آيات كثيرة . (٤) سورة العنكبوت آية ٤٣ .

(٥) العقل هنا بمعنى الإدراك .. عقل عقلاً : أدرك الأشياء على حقيقتها ، والمعاقل : المدرك ، والعقل : ما يقابل العزيرة
التي لا اختيار لها . ومنه : الإنسان حيوان عاقل .

وقوله - عز وجل : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ ﴾ (١) ؛ ومما عظموا به شان إبليس - عليه لعنة الله - ورفعوا به خطره وساروا بينه وبين الله ، جل الله عما قالوا وعلا علواً كبيراً .

الحشوية وروايات كاذبة ،

١- من ذلك ما روته الحشوية (٢) المبطلة أن إبليس - فيما زعموا - قال : « ما حمل بمحمول قط إلا وأنا أعلم متى حمل به ، ولا يولد مولود الا وأنا أعلم به إذا ولد ، إلا عيسى بن مريم فإنني لم أعلم به حين ولد » (٣) .

وهذا القول كفرٌ بالله العظيم ؛ ورد لكتاباه صراحاً والمساواة بين إطلاع الله ، عز وجل ، على علم الغيوب ، وبين اطلاع إبليس على علم الغيوب لا فرق بين ذلك عندهم !

وفى قولهم نزل قول الله ، عز وجل : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٤) إلا أن ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴿ (٥) .

(١) سورة النساء آية ٨٣ .

(٢) الحشوية : قوم تمسكوا بالظواهر ، فذهبوا إلى التجسيم وغيره ، واجروا تفسير القرآن على ظاهره ، وسموا بذلك لانهم كانوا في حلقة الحسن البصري ، فوجدتهم يتكلمون كلاماً ، فقال : ردوا هؤلاء إلى حشاء الحلقة ، فهم الحشوية بفتح الشين .

• وقيل : سمو بذلك لان منهم المجسمة ، او هم انفسهم المجسمة ، والجسم حشو ، وعلى هذا جاء قياس الحشوية نسبة إلى الحشو .

• وقيل : المراد بالحشوية طائفة - لا يرون البحث في آيات الصفات التي يتعذر إجراؤها على ظاهرها ، بل يؤمنون بما اراده الله ، مع جزمهم بان الظاهر غير مراد ، ويفرغون التأويل إلى الله ، وعلى هذا فإن إطلاق الحشوية عليهم غير مستحسن .

• وقيل : الحشوية طائفة يجوزون ان يخاطبوا الله بالمحمل ، ويطلقون الحشو على الدين ، فإن الدين يتلقى من الكتاب والسنة ، وهما حشواى واسطة بين الله ورسوله وبين الناس .

(٣) روى عبد الرزاق بسنده عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا معه شيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مسه إياه ، إلا مريم وابنها » . ثم يقول أبو هريرة : « اقربوا إن شئتم » ﴿ إني أعجلها بك وفريقها من الشيطان الرجيم ﴾ (٤١) سورة آل عمران ٣٦ .. وروى ابن جرير نحوه عن أبي هريرة .. كما روى عنه ايضا ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا وقد عصه الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم » .. وروى الفليث ابن سعد بسنده عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حيث تلده أمه إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن ، فطعن بالحجاب » رواه البخاري - ومسلم (انظر ابن كثير ١/ ٣٨٥ - ٣٨٦) . ونظر الدراسة فقد شرحناه وبيننا المراد منه باستفاضة .

(٤) سورة الجن الآيات ٢٦ ، ٢٧ .

نقد المجبرة في إكذابهم رب العالمين :

فنقول لهم : أخبرونا أيهما أصدق عندكم ، الذي روئتم عن إبليس في قوله في عيسى ، صلوات الله عليه ، وفي سائر الخلق ، الأنبياء من نوح إلى محمد ﷺ ، أنه علم بهم حيث حمل بهم ، وحيث ولدوا إلا عيسى عليه السلام ، أم قول الله ، عز وجل : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿ ^(٢) .
وقوله : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ ^(٣) .. وكذلك إبليس لا يحمل بمحمول ولا يولد بمولود في بر ولا بحر ولا سهل ولا جبل إلا وهو يعلمه ، ويطلع عليه - على قولكم - وفي مذهبكم الباطل المبطل !! ..

فأخبروني : أيهما أصدق عندكم روايتكم أم كتاب ربكم ١٩ فإن قلتم : روايتكم أصدق عندكم من قول الله ، عز وجل ، كفرتم بإجماع الأمة وخرجتم من الإسلام .

وإن قلتم : إن القرآن أصدق من روايتكم . رجعتم عن قولكم وفلجناكم وكان الحق معنا ، لا معكم ، بأوضح دليل وأبين شاهد .

وإن قلتم : إن كلا منهما صادق ، وروايتنا والقرآن كله صادق لا كذب فيه .
قلنا لكم : كيف يكون المتضادان المتنافيان المتخالفان صادقين جميعاً .. إذن لا يصح حق من باطل ولا يعرف صواب من خطأ أبداً ؛ وهذا ما لا يكون ولا تقبله العقول .

في نقد هذه الرواية الكاذبة ،

ثم نقول لهم : متى أخبركم إبليس ، عليه لعنة الله ، بهذه الرواية التي روئتم عنه في الأنبياء وفي العامة وفي عيسى ، عليه السلام ؛ ومن سمعه يقول هذا القول ^(١) ١٩

(٢) سورة الجن آية ٢٦ .

(١) سورة النمل آية ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٤) جاء في الاثر عن ابن عون عن محمد أنه قال : إن هذا العلم دين فليعذر الرجل عن يأخذ دينه . انظر الدارمي ١ / ١٢٤ . وقال ، ﷺ . من كذب على متعمداً فلينبأ مقعده من النار . رواه مسلم .

فإن قلتم : سمعه الصدر الأول ، الذي يجب أن يكونوا بعد عيسى ، صلى الله عليه ؛ ١٤٢ و / لأنه أخبركم - زعمتم أنه لم يعلم متى حمل بعيسى ، عليه السلام ، ولا متى ولد ، وهذا القول يوجب أنه أخبركم به بعد عيسى ، عليه السلام ، لا شك فيه .

فنقول لكم : كيف وجب إخباره لكم بهذا الخبر امواجهة بكلام منه ، إليكم

كان ١٩

فإن قلتم : مواجهة بكلام ، كذبكم قول الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ ﴾ ^(١)

وإن قلتم ؛ سمعوه سماعاً بأذانهم .

لزمكم أن تصحوا هذه الرواية ؛ مَنْ سمعها ومن يشهد عليها ١٩ .. حتى يلزمنا خبره وصحة حجته ، ولن تجدوا ذلك أبداً ؛ لأنه باطل ، وأنه لم يدع أحد من أهل الإسلام والعلماء والعارفين أنه سمع الجن سماعاً دون المعاينة إلا رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله ؛ فإن الله ، عز وجل ، أخبر عنه أنه قال في كتابه : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ^(٢) .

ولم يخبرنا - عز وجل - عن أحدٍ غيره أنه سمع الجن ولا رآهم .

وإن قلتم ؛ إن إبليس كتب إلى مشايخكم وفقهائكم كتاباً بهذا الخبر .

سالناكم عن الكتاب كيف كان ، ومن الرسول الذي وصل إليكم بكتاب إبليس ،

ومن قرأه .. حتى أعلمكم بهذا الخبر في عيسى ، عليه السلام ١٩ .

وإن كان قد ^(٣) قذفه في قلوبكم . قلنا لكم فما الفرق بين قذف الله ، عز وجل ، في

قلوب الأنبياء والملائكة المبلغين عنه الوحي إلى من دونه ، وبين قذف إبليس ومقدرته

على قلوبكم باللطيفة التي لا يقدر على مثلها إلا رب العالمين ١٩ ..

فهناك تبين فضيحتكم ، وبطل قولكم ، وتفلج حجتكم ، والحمد لله رب

العالمين .

(٢) سورة الاحقاف آية ٢٩ .

(١) سورة الاعراف آية ٢٧ .

(٣) زيادة ليست في الاصل .

هل إبليس مضطرب في وسوسته لبني آدم ؟

وإن كان إبليس - على قود قولكم - مضطرباً إلى القذف في قلوب بني آدم ، وهو مسلط عليهم وهم مضطرون أيضاً إلى ذلك من إبليس ، فقد وجب عذرهم وعذره ، ولا جناح عليه ولا عليهم ، لقول الله ، عز وجل : ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ^(١) فالله ، عز وجل ، لا يؤاخذ من اضطرب إلى شيء من جميع الأشياء !
وإن قلتم : إنه يؤاخذ المضطرب .

خالفتكم القرآن ؛ ومن يخالف القرآن كفر بإجماع الأمة ، والحمد لله رب العالمين .

هل لإبليس منقار كما تدعى الجبيرة ؟

وقد ذكر عن بعض من نظر في هذا الباب من أنه وصف إبليس بأن له منقاراً طويلاً دقيقاً ، يدخله في أذن آدمي فيوصله إلى قلبه فيوسوس بذلك المنقار !

نقد هذا الكلام السخيف ،

وهذا أحول المحال إذ جعل الله الحواس الخمس له على خلقه ليحسها ؛ فإذا غاب عن الحواس - مما لا تدركه - لم يلزمها فيه حجة ، وكل من دخل في أذنه شعرة فلا بد أن ٤٢ ظ / يحسها ، ويعلم بها ؛ إذ الحواس لا بد لها من أن تحس ما وقعت / عليه أو وقع عليها .

وانتم تعلمون وتشهدون لنا ، أن هذا المنقار لا علم لكم به ، إذا دخل في الأذن ولا إذا صار في القلب !

فإن قلتم : إن الله أقدره على ذلك .

لزمه الجور ، وأن لا قوة لنا على من فعل بنا هذا ، وأن حاجتنا عليه قائمة ؛ إذ كلفنا ما لا نطيق ؛ وقد نهانا أن لا نطيع إبليس ؛ فكيف ينهانا عن أمر قد ألزمناه بعد ما قال : ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ^(٢) و ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ ^(٣) ١٩ .. ولا يكون

(١) سورة الطلاق آية ٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٣) سورة الأنعام آية ١١٩ .

الجور إلا مثل هذا الذى وصفتم به خالفكم ، عَزَّ عن ذلك وتقدس وعلا علواً كبيراً^(١) .

المجبرة تبطل الشرع والعقل معاً ،

وهذا ، الذى قلتم ، يبطل درك الحواس ومعرفتها بممازجها ، وهذا مكابرة العقول ، ومن كابر العقول وجب أن لا يخاطب ، وما خرج من المعقول وجب إكذابه ، وما وجب إكذابه لم يكن بدين ، وما لم يكن بدين فهو ضد للدين ، وما كان ضد للدين أورث النار . . .

أسأل الله ، سبحانه ، النجاة من النار برحمته والسلامة من الخطأ فى دينه ، والقول عليه بما يخالف كتابه المبين من الجبر والتشبيه وإكذاب الوعد والوعيد ، وإزالة الحق عن معدنه ، والاحتجاج فى تقوية إبليس وجنوده ، والتسوية بينه وبين من ﴿ تَسَى كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٢) .

(١) يعتقد المجبرة : أن الله يأمر ولا يرهى أن يؤتى أمره . وينهى وهو يرهى أن يؤتى نهيه .

(٢) الشورى آية ١١ .

الحجة الثالثة

الله لا يفعل الجور ولا يضل العباد ولا يصددهم عن الرشاد

ومن الحجة لنا في إبطال مقدرة إبليس ، عليه لعنة الله ، على الخلائق وضعفه وعظيم عجزه ، أن الله ، عز وجل ، لا يفعل الجور ولا الفساد ولا يضل العباد ولا يصددهم عن الرشاد .

فإنه حذرنا عن إبليس ، في غير موضع من القرآن (الكريم) ^(١) ، وأمرنا أن لا نفعل كفعله ، من ذلك قوله ، عز وجل : ﴿ أَلَمْ آتِكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ^(٢) .

وأنتم - أيها المخالفون لنا - تشهدون وتعرفون أن أحداً لم يعبد إبليس قط ، ولم يصم ولم يرك (له) ^(٣) ولم يحج ؛ وإنما المعنى في ذلك يخرج على لغة العرب المعروفة بينهم ، وأن تلك العبادة ^(٤) هي طاعة إبليس في اتباع هواه ، والميل عن الحق إلى مراده ورضاه ، فسمى ذلك عبادة ، كما تقول العرب : فلان يعبد فلاناً . يعنون أنه مطيعه ويصير إلى أمره وقال الشاعر ^(٥) :

بجيش تظل البلق في حجراته .. ترى الأكم فيه سُجْداً للحوافر ^(٦)

يعنى أن الأكم مطيعه لحوافر الخيل .

وقال الله ، عز وجل : ﴿ وَأَدْخِلُوا الْبَابَ سُجْداً ﴾ ^(٧) ، والداخل لا يكون ساجداً ، ١٤٣ ط / وإنما المعنى فيه ادخلوا الباب مطيعين ^(٨) ؛ فجاز ذلك في / لغة العرب .

(٢) سورة يونس آية ٦٠ .

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٣) زيادة ليست في الأصل .

(٤) العبادة تعنى الخضوع للإله على وجه العظيم ، والعبودية : انقياد وحضوع ودول واستسلام .

(٥) هو زيد الخيل ، ٣٥٨ / ١ ، الكامل للمبرد .

(٦) هذا البيت من بحر الطويل ، ومعناه أن حوافر الخيل قد اقتلعت الأكم ووطفتها حتى خشعت . وانخفضت ، تأويل

مشكل القرآن ، ص ٤١٧ ، وقد روى (.. تضل البلق) في أغلب كتب اللغة ، انظر الاغانى ٥٢ / ١٦ ، والأضداد ،

(٧) سورة البقرة آية ٥٨ .

ص ٢٥٧ .

(٨) في صفوة التفاسير : سجداً : خضعاً متواضعين خاشعين ، شأن الثائب من ذنوبه .

من عدل الله خطاب الخلق بما يعقلون ويفهمون ،

وليس يجوز في عدل الله ، جل ثناؤه ، أن ينهى عن أمر لا يقدر أحد على دفعه عن نفسه ، ولا يجوز أن يحذرنا عن أمر لا نعقله ، ولا نقف على كیفیته ، ولا نهتدى إلى وصفه ، ولا ندرى حتى يقع بنا من لیل أو نهار ، لا فى سفر ولا فى حضر ولا فى بر ولا فى بحر ؛ لأن هذا ليس من صفة العادل الحكيم الرحيم المتفضل الحسن الفعل الذى لا يجوز ولا يظلم .

قصة من الإمام أحمد للتقريب والتفهيم ،

ثم نقول لمن خالفنا : هل يجوز لرجل من علمائكم وأهل دينكم وأهل الورع والنصفه والكف عن القبيح منكم ، أن يخرج برجل من إخوانه إلى رأس جبل مرتفع فى الهواء ، ثم يوقفه على حرف الجبل ويرديه الهوى البعيد ، الذى لو زلت فيه الطير لكادت أن تعطب مثلاً ؟

ثم يقول له : احذر فلان أن تسقط من هذا الرأس الطويل إلى هذا القرار البعيد فتهلك ، وتقطع قطعة قطعة .

ثم يتحیل عليه ثم يدفره ^(١) ، فإذا هو فى أسفل الحضيض ، فما يسمى ذلك الرجل أعادل أم غيرها عادل ، أظالم أم غير ظالم ؟
فإن قلتم : إنه غير ظالم ولا جائر .

خرجتم من حد من يكلم وكفانا جهلكم من مناظرتكم .

وإن قلتم : إنه جائر غير عادل ، وظالم غير منصف .

كان ذلك من الحق ، ولزمكم أن تنزهوا خالفكم العادل الحكيم البر الرحيم ، عن الأوصاف التى تليق بالجورة الظالمين .

(١) دفره : دفعه فى قفاه أو فى صدره .

لا يعقل أن يحترق النار وليس علينا إبليس لنقع فيها،

ونقول لكم : فهل يجوز - عندكم - على قياس هذا الكلام - أن ينزل ربكم العظيم الكريم العادل الحكيم على نبيه ، ﷺ ، يحذرنا عن النار ، وعن عمل يقربنا إلى الخلود فيها أبد الأبد ، فيقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ أَمْرًا مَأْمُورًا وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) ، ثم يدس عليهم إبليس وجنوده في خفاء ، فياتونهم من المواضع التي لا يقدرون على الحذر منها ولا الانتقاء لوقوعها ، ولا يدرون ما ينجيهم من ليل أو نهار ، فيدخلهم في الخطايا ويأمرهم بها ، ويقدرهم عليها وهو قادر عليهم ، لا حيلة لهم عن دفعه عن أنفسهم ، ولا الحذر عما حذروا منه .

فهو عند ذلك ؛ إن صح هذا القول هو الذى دفرهم فيجهم ، كما دفر ذلك الرجل العابد الصالح صاحبه من رأس الجبل إلى الأرض ؛ لا فرق بين ذلك بمقياس شعرة ، فميزوا ما قلنا ، وجانبوا الهوى ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، فإنه لا يجوز على الله ، عز وجل ؛ أن ينهى عن أمر ، ثم يوقع فيه ، عز عن ذلك ربنا وتعالى الرؤوف الرحيم .

النفس هي التي تؤسوس لا إبليس:

قال الله، عز وجل: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٤٣) ﴿١﴾
 ١٤٣ ا / فتجد النفس هي التي توسوس لا إبليس ، وقال الله ، عز وجل ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ (١) فنجد نفس هذا طوعت له قتل أخيه لا إبليس .
 - وقوله ، عز وجل : ﴿وَيَقُولُونَ لِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (٢) فنجد
 النفس هي الموسوسة .

- وقال ، عز وجل : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ^(١) فلمْ تجعلوا بعض هذا القول

(١) زيادة لبيت في الاصل .

(٢) سورة النجم آية ٦ .. وقد جاءت في الأصل هكذا ﴿ اتلوا النار التي وقودها ﴾ وهو خطأ .

(٤) سورة المائدة آية ٣٠ .

(٣) سورة في آية ١٦ .

(٦) سورة يوسف آية ٥٢ .

(•) سورة المجادلة آية ٨ .

الذى وصف الله ، عز وجل ، عن النفس ، كما جعله ، بل جعلتم ذلك كله من فعل إبليس ، وخالفتم القرآن ؛ لأن الله ، عز وجل ، أخبرنا بعظيم قدرته على الأشياء والقوة الباهرة التى بان بها عن ما خلق ، فقال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١) فزعموا أن إبليس يوسوس فى قلب آدمى !

* * *

من زعم قرب إبليس كقرب الله منا ساوى بينهما :

فصار إبليس أقرب إليه من حبل الوريد أيضاً .. فإذا لا فرق بينه وبين الله ، عز وجل ، فى القوة القاهرة ، والقوة الباهرة .

فإذا القوم يوجبون من التعظيم والتقوية والعز والسلطان ، لعدوهم إبليس الدليل الضعيف ، مثل ما أوجبوا الله ، عز وجل ، من عظيم القوة والسلطان .. وهذا غاية ما يكون من الجهل والعمى (٢) وقلة النصفة والذهاب عن طريق الحق ، الذى لا يساوى الله ، عز وجل ، قى قدرته وقوته ولطائف صنعه أحد من جميع خلقه ، حاش لله من ذلك وعز الله وعلا علواً كبيراً .

* * *

(١) سورة فى آية ١٦ .

(٢) فى الأصل : العما .

الحجة الرابعة

قال السامري : سولت لي نفسي

ومن الحجة عليهم أيضاً ، إخبار الله ، عز وجل ، عن السامري إذ قال لموسى ، صلى الله عليه : ﴿ كَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي ﴾ (١) ولم يقل وسوس إبليس .

وجوه تفسير ، وشاركهم في الأموال :

وأما ما ذكر الله ، عز وجل ، في قوله : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْنَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٢) ، فقد قالت العلماء فيه بوجهين :

أحدهما : أن هذا على طريق التهديد والتخويف ، مثل ما تقول العرب للرجل : اذهب اقتل فلانا . على طريق التهديد له ، لا أنهم أرادوا قتله !

ومثل قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، صلوات الله عليه ، حيث قال لطلحة والزبير : اذهبا اخرجاها . يعنى عائشة ؛ يريد بذلك التفريق لهما ، وهو لا يريد خروجهما بها تحاربه ، ولا أن تعصى الله ، عز وجل ، في خروجها من منزل رسول الله ، ﷺ ، وعلى آله وسلم ، الذي أمرها ، عز وجل ، أن تقر فيه (٣) ، وإنما هذا على حد التوقيف والتفريع ، ومثله كثير في اللغة (٤) .

والوجه الآخر : أنهم إذا زنوا صارت أولادهم أولاد حرام ، وكل حرام مشارك لمعصية إبليس ، وكذلك إذا تعاملوا بالربا صاروا مشاركين لإبليس في معصيته ، عز وجل .

(١) سورة طه آية ٩٦ . (٢) سورة الإسراء آية ٦٤ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِي يُوَفِّيَنِي اللَّهُ أَلْأُولَىٰ ﴾ سورة الاحزاب آية ٣٣ .

(٤) عقد ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » باباً سماه « باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه » من ص ٢٧٥ - حتى

٢٩٨ ، ذكر فيه تسعة وعشرين نوعاً من هذه الألفاظ ، أما ما خرج به الإمام أحمد آية الإسراء / ٦٤ ، فقد ذكره ابن

قتيبة فقال : « ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد ، كقوله : ﴿ اغْمُؤْا مَا شِئْتُمْ ﴾ سورة فصلت / ٤٠ .

ص ٢٨٠ .

وأما قوله ، عز وجل ، : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ۚ ١٤٤ / إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٤٥ ﴾ ^(١) .

ولا يخرج هذا عندنا إلا إنه الهوى ^(٢) الذى زين لهم وأطغاهم وسوّل لهم وأرداهم ؛ لأنه يلزمهم لنا أن إبليس لم يخرج إليهم مواجهة ، ولم يروه عياناً ؛ لقول الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ^(٣) فقد سقط هذا الوجه .

والوجه الآخر : أن ليس فى قوته ولا مقدرته أنه يوسوس فى صدورهم يوم بدر جميعاً ، وهم عسكر عظيم فى ساعة واحدة ؛ إذ ذلك أمر لا يقدر عليه إلا الله ، عز وجل ، القوى القادر ، هذا وجه قد سقط أيضاً ^(٤) وفسد .

والوجه الثالث : أنه - أى إبليس - لم يرسل إليهم رسولاً يخاطبهم عن نفسه .

والوجه الرابع : أنه لم يكتب إليهم كتاباً يقرؤنه .

فكيف لنا بتصديق من خالفنا ، ونحن نجمده ساقط الحجة داحض المقالة نازحاً عن الحق ؛ لأنه لم تصح دعواه ، ولم يخرج - فى واحد من هذه الوجوه التى لا يعرف الناس وصول الاخبار إلا بها ، ولا تدلّ نزل العقول إلا عليها .

زعم المجبرة أن لإبليس استطاعة على قلوب بنى آدم :

فإن قال قائل : إن الله ، عز وجل ، جعل له الاستطاعة على قلوب بنى آدم ، وجعل لهم الاستطاعة على دفعه عن أنفسهم .

(١) سورة الأنفال آية ٤٨ .

(٢) روى الدارمى فى سننه ١٤ / ١٠٣ عن الأوزاعى بسنده أنه قال إبليس لأوليائه : من أى شئ تاتون بنى آدم ؛ فقالوا : من كل شئ . قال : فهل تاتونهم من قبل الاستغفار ؟

فقالوا : هبّات ، ذلك شئ قرن التوحيد ، قال : لا بشئ فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه ، قال : فبئ فيهم الاهواء . وكان الشعيى يقول : إنما سعى الهوى ، لأنه يهوى بصاحبه ١٢٠ / ١

(٤) فى الأصل : أبهى .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٧

قلنا له : هذا ما لا يجوز على الله ، عز وجل ؛ لأن الله ، عز وجل ، خلق إبليس للعبادة لا للمعصية ، وكلف بنى آدم الطاعة ، وجعل لهم السبيل إليها ؛ ولو كان إبليس يقدر على وسوسة قلوبهم بلطفية لا يعلمونها ، لم يكن لهم إلى دفع ذلك سبيل ؛ لدقته عليهم !

فكيف يدفعون عن أنفسهم أمراً - زعمتم - أنه يدق ويلطف عن فطن الخليقة وأذهانهم ، ثم يعطون الاستطاعة على دفع ما لا تقع عليه الاوهام ، ولا تبلغه الظنون ولا تدركه الحواس ١٩ ..

وما لا تدركه الحواس فلا سبيل لاحد إلى معرفته إلا الله الواحد الذى دل على نفسه معرفته بآثار صنعه الدقيق اللطيف ، فما الفرق بينه وبين من خلقه ١٩ وإن قلتم : الله أقدره على ذلك .

قلنا لكم : فقد خلق إذاً رباً - على قولكم - يساويه فى القدرة والقوة والعز والسلطان وهو أعدى ^(١) الخلق له ، وقد قال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٢) ١

فلا مخرج لكم من هذه الحجج إلا بالمكابرة والمغالطة والتسوية بين الله ، عز وجل ، وبين إبليس فى القوة والقدرة ؛ لأن الله ، عز وجل ، يقول ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ السَّلَءَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ ^(٣) .. وزعمتم - أنتم - أن إبليس يحول بين المرء وقلبه ، فلا نجد فرقاً بين الله ، عز وجل ، وبين عدوه الذليل الضعيف العاجز المقهور !

فإن قلتم : إن الله أقدره على بذلك .

قلنا لكم : فابن قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

فإن قلتم : ليس هو مثله .

قلنا لكم : من كان قادراً كقدره الله ، عز وجل ، فقد ساواه .

(١) فى الاصل : احدا .

(٢) سورة الشورى آية ١١ .

(٣) سورة الانفال آية ٢٤ .

١٤٤ ظ / وأما قول إبليس ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ ^(١) فإنه كذب على الله ، سبحانه ؛ لأنه لم يغوه .

وقال بعض أهل العلم : إنه يخرج على أنه سماه غاوباً ، فقال : أغويتني ، أى سميتني غاوباً ^(٢) .

فأما ما خاطب الله ، عز وجل ، به إبليس فى بدء الأمر ، يوم عادى ^(٣) آدم ، فذلك له معانى يخرج عليها ، وقد يذكر بنى آدم وينسب بعض فعلهم إلى بعض ، مثل ما قال لقوم من بنى إسرائيل ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) يريد بذلك أباءهم ، وهم ^(٥) لم يقتلوا ، وإنما أخبر عن أبائهم - عز وجل - فهو مثله سواء . لا يد لكم من ذلك .

ولا مخرج لكم منه ، حتى ترجعوا إلى الحق فتقولوا أن ليس أحد من جميع الخلق - لا إبليس ولا غيره - يقدر على وسوسة القلوب ولا تصرّفها على مراده ، إلا الله ، عز وجل ، لا نظير له ولا مساو ولا مشابه ولا عدیل ولا مثیل ، بوجه من الوجوه ، ولا سبب من جميع الأسباب ، ومن لم يجبنإلى هذا القول فقد كفر ؛ لأنه إن خالفنا ساوى بينه وبين خلقه ... وهذا هو الشرك الأعظم والكفر الأفحش الذى لا كفر بعده .

(١) سورة الحجر آية ٣٩ .

(٢) انظر هذه المادة فى المعجم الوسيط ٢ / ٦٧٣ .

(٣) فى الأصل : عادا .

(٤) سورة البقرة آية ٩١ .

(٥) فى الأصل : هم هم

الحجة الخامسة

المجبرة تروى كثيراً من الأكاذيب عن الجن أو منهم !

ومن الحججة على من خالفنا ، أنا وجدناهم - جميعاً - إذا ذكروا الجن أو حدثوا عن أخبارهم ، لا يحدثون عنهم إلا بكلام نطقوا به ، وأخبار أخبروا بها ، لا وسوسة - كما ادعوا أنهم يوسوس - في صدورهم !

- من ذلك ما رووا عن حديث خفاف أيام مبعث النبي ، صلى الله عليه وعلى آله ؛ إذ أخبر - على زعمهم - أنه كان له صديق من الجن ، فكان يخبره بمبعث النبي صلى الله عليه وعلى آله ، وأنه كان يأتيه كل ليلة فيركضه برجله ، ويقول : انتبه ياخفاف فقد بعث رجل من بنى عبد مناف ، رجل أتى بالعدل والإنصاف فارحل إليه ياخفاف !..

وهذا خبر يطول ، وفيه أشعار للجن اختصر عامة ذلك ، فمما رووا من شعر الجن - زعموا - هذه الأبيات :

ورحلتها العيس بأحلاسها	عجبت للجن وإبلاسها
وما مؤمنوا الجن كأرجاسها	تمضى إلى مكة تبغى الهدى
واسم بعينيك إلى رأسها ^(١)	فارحل إلى الصفوة من هاشم

(١) قارن أي نعم : دلائل النبوة ، ص ٣١ - ٣٢ .

والحديث بتمامه ، روى أبو نعم بسنده عن محمد بن كعب القرظي قال : بينا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قاعد في المسجد ، إذ مر رجل في مؤخر المسجد ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، أتعرف هذا المار ؟ قال : هذا سواد بن قارب ، وهو رجل من أهل اليمن ، له فيهم شرف وموضع ، وهو الذي أتاه رثيه بظهور رسول الله ، ﷺ .

فقال عمر : على به ، فدعى .. فقال عمر .. أنت سواد بن قارب .

قال : نعم . قال : فانت الذي أتاك رثيك بظهور رسول الله ، ﷺ .

قال : نعم . قال : فانت على ما كنت عليه من كهانتك ؟

فغضب غضباً شديداً ، وقال يا أمير المؤمنين ، ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت .

فقال عمر : سبحان الله .. والله ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، أخبرني بإتيانك رثيك بظهور رسول الله ، ﷺ .

وهذه الأحاديث والأشعار ، التي ادعوها ، توجب المواجهة وتبطل الوسوسة .

وزعموا أن الجن يكلمونهم ويرونهم في مواطن من الأرض معروفة ، منها مواضع

- قال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينا أنا ذات ليلة بين النائم والميقظان ، إذ أتاني رئيس ، فضربنى برجله .
وقال : قم ياسود بن قارب ، فافهم واعقل ، إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم انشأ يقول :

عجبت للجن ونجاساتها .. وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبخى الهدى .. ما خير الجن كأنجاسها
فأرحل إلى الصفوة من حاشم .. وأسم بهينك إلى رأسها
فلم أرفع بقوله رأساً . وقلت : دعني أنام ، فإنني أمسيت ناعساً .

فلما أن كان الليلة الثانية أتاني فضربنى برجله .

وقال : ألم أقل لك ياسود بن قارب ١١٩ .. قم فافهم واعقل ، - إن كنت تعقل - إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، يدعو إلى الله وإلى عبادته . ثم انشأ الحملي وجعل يقول :

عجبت للجن وأخبارها .. وشدها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبخى الهدى .. مأمونوا الجن ككفارها
فأرحل إلى الصفوة من حاشم .. بين روايبها وأحجارها

فوقع في نفسي حسب الإسلام ورغبت فيه ، فلما أصبحت شددت على راحتي ، فانطلقت متوجهاً إلى مكة ، فلما كنت ببعض الطريق ، أخبرني أن النبي ، ﷺ ، قد هاجر إلى المدينة ، فأتيت المدينة . فسألت عن النبي ، ﷺ ، فقيل لي : في المسجد . فالتفت إلى المسجد ، فعقلت ناقتي ، وإذا رسول الله ، ﷺ ، والناس حوله . فقلت : اسمع مقالتي يا رسول الله .

فقال أبو بكر : أدنه أدنه ، فلم يزل بي حتى صرت بين يديه .

قال : هات .. فأخبرني بإتيانك رثلك .

فقلت :

أتاني بجنى بعد هدوء ورغبة .. فلم إكّ فيما قيد بلوت بكاذب
ثلاث ليلٍ قوله كل ليلة .. أتاك رسول من لؤى بن غالب
فشمزت من ذيل الإزار ووسط .. بي الذعلب الرضاء بين السباب
فاشهد أن الله لأرب غيره .. وأنتك ماسون على كل غالب
وأنتك أدنى المرسلين وسيلة .. إلى الله يابن الأكرمين الأطلاب
فمرنا بما باتيك ياخير من مشي .. وإن كان فيما جاء شب الذوالب
وكن لي شفيحاً يوم لأذو شفاعه .. سواك ، تغني عن سواد بن قارب .

قال : ففرح رسول الله ، ﷺ ، وأصحابه بإسلامي فرحاً شديداً ، حتى رؤى في وجوههم .

قال : فوثب إليه عمر فالتزمه . وقال : كنت أحب أن أسمع هذا منك .

وقد أوردناها لبتين القارئ بنفسه في أي فن من الفنون نضع هذه الروايات .

انظر أبو نعم : دلائل النبوة ١ ، من ١٣٢ ، ١٣٣ .

قد سموها ، وذكروها في أشعارهم منها ، البدئ وعبقر ودسمار ، وكل هذا - عند
١٤٥ / اهل العلم - باطل لا يجوز ؛ لقول الله ، عز وجل ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ^(١) وإنما أجرينا هذا لدعواهم / علينا الوسوسة ، وروايتهم في الجن
أنهم يكلمونهم كلاماً ، فلاندرى أيهما نصدقهم فيه الوسوسة أم الكلام مشافهة ؟ ! وهذا
ينقض بعضه بعضاً .

(١) سورة الاعراف آية ٢٧ .

الحجة السادسة إبليس الإنسان هو

ومن الحجة لنا في الهوى قول الله ، عز وجل : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ^(٢) ، وقوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) ، وقوله ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ^(٤) .

وآيات كثيرة يطول بها الشرح ، فوجدنا الهوى هو الذى يميل بالأدمنين عن الطاعة إلى المعصية .

لا أساس للدعوى المجبرة في الوسوسة:

وضح لنا ذلك ، ولم نجد الوسوسة - التى ادعوا - تصح ، ولا يقوم بها حجة إلا ما تعلقوا به من التشابه ، الذى له التأويل الذى جهلوه ، وغلطوا فى معانيه ، ولا حجة معهم يقهرون بها من خالفهم ، والحق أوضح من الشمس الطالعة .
وقد ذكرنا من الحجج ما فيه الكفاية - لمن أنصف من نفسه ورجع عن غلظه - والحمد لله رب العالمين .

احتج المجبرة بما حدث لآيوب:

وما احتجوا به على أهل العدل ؛ قول الله ، عز وجل ، فى النبی آيوب ، صلى الله عليه ، حيث قال ﴿ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ^(١) ، وزعموا فى رواياتهم أن الله ، عز وجل ، سلط إبليس على وليه ونبيه آيوب ، عليه السلام ، فافنى ^(٢)

(١) سورة محمد آية ١٤ .

(٢) سورة النازعات آية ٤٠ .

(٣) فى الأصل : فافنا .

(١) سورة ص : آية ٢٦ .

(٢) سورة القصص آية ٥٠ .

(٣) سورة ص : آية ٤١ .

أمواله، وقتل عياله ، ونفخ في بدنه فأصابه بالعلة التي مرض منها دهرأ من دهره ، حتى جرى الدود في لحمه ، وذكروا أن ذلك أصابه لخطيئة عصي الله ، عز وجل ، فيها، ورووا في ذلك أحاديث يطول شرحها اختصرناها لمعرفة الناس بها ^(١) .

وزعموا أن إبليس استأذنه في هلاكه ، فقال قد سلطتك على كل شيء إلا على عقله وقلبه ...!

وهذا نقض القرآن ، والذي روى الهادي إلى الحق ^(٢) ، صلوات الله عليه ، أنه قال : « إن أيوب ، صلوات الله عليه ، كان صاحب قراء وطعام للناس ، وكانت الاضياف تاوي إلى منزله ؛ لفضله وفعاله الجميل ، فلما كان في وقت من ذلك غاب عن منزله ، صلوات الله عليه ؛ ثم غدا راجعاً إلى أهله فلقيه رجل قد غدا من منزل أيوب ، فسأله : من أين خالفه ، وأين بات ؟

فقال : بت في منزل أيوب ، قال : فما كنت وما قرؤك ؟

قال : بت عنده ^(٣) بلا عشاء ، فاغتنم أيوب ، صلى الله عليه ، لذلك ، ومضى إلى

(١) انظر البخاري ، كتاب « الفسل » ، باب « التستر في الفسل عند الناس » ٤٦١ / ١ . وأحمد في مسنده ٢ / ٢٤٣ .. ومواضع أخرى .. والطبراني حديث ٢٤٥٥ . وابن كثير في تفسير الآية ذكر الأثر كاملاً ج ٤ / ٤٢ - ٤٣ . وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٨٢) سورة الأنبياء / ٨٣ - ج ٣ / ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسني العلوي الرسي : إمام زيدى ولد بالمدينة سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م . وكان يسكن « الفرع » من أرض الحجاز ، مع أبيه وأعمامه . ونشأ فقيهاً عالماً ورعاً ، فيه شجاعة وبطولة . وصنف كتباً ، منها « الجامع » ويسمى « الإحكام في الحلال والحرام والسفن والأحكام » و « المسالك في ذكر الناجي من الفرق والبهالك » وله رسائل كثيرة .

ورأسه أبو العتاهية الهمداني ، وكان من ملوك اليمن ودعاه إلى بلاده ، فقصدها ، ونزل بصعدة سنة ٢٨٣ هـ في أيام المعتضد ، وبإيمه أبو العتاهية وعشقره وبعض قبائل خولان وبنو الحارث بن كعب وبنو عبد المدان ؛ وخطب بأمير المؤمنين ، وتلقب بالهادي إلى الحق . وفتح نجران ، وأقام بها مدة .

وفاتله عمال بني العباس ، فظفر بعد حروب . وملك صنعاء سنة ٢٨٨ ، وأمتد ملكه ، فخطب له بمكة - سبع سنين ، وضربت السكة - باسمه . وفي أيامه ظهر في اليمن علي بن الفضل القرمطي ، وتلقب على أكثر بلاد اليمن ، وهصد الكعبة سنة ٢٩٨ ليهدمها ، فقاتله الإمام يحيى ، وعاجلته الوفاة بصعدة ، ودفن بجامعها ، وكان قوي الساعد ، يمسك الخنطة بيده فيطرحها ، واسم فرسه الذي يقاتل عليه « أبو الجماجم » وأكثر من ملك اليمن بعده من أئمة الزيدية هم من ذريته . ولعلي بن محمد بن عبيد الله العلوي ، كتاب في « سيرته » . انظر الزركلي : الأعلام ١٤١ / ٨ .

(٣) زيادة بالهامش .

أهله فسألهم عن ذلك الضيف ، ولا مهم ؛ حيث غفلوا عنه وحلف لمرته ، وكانت مرته ، رحمة بنت يوسف بن يعقوب ، صلوات (الله) ^(١) عليهم ، فحلف ليجلدنها مائة ضربة ، إذ قصرت في ضيفه ، فلما حلف ندم على يمينه ، إذ لم يلزمها ذلك / ١٤٥ ط / الأدب الذى حلف لها عليه ، فجعل يقول : قد حلفت بالله لأضربنها ، هل يجوز لى أن أحنث ، وقد حلفت بالله ؟ ١٩

ثم رجع إلى نفسه فيقول : ليس عليها لى ذنب وهذا أمر لا يلزمها ، فما زال كذلك يدير فكره ويروض أمره ، حتى أورثه ذلك غمّاً عظيماً داخل قلبه فمن شدة الغم لزمه المرض ، فمرض حتى نغل ^(٢) لحمه وجرى فيه الدود ، وضاعت أمواله ونادى به أهل البلد .

وقد ذكروا أن رجلاً كان يقول لأصحاب أيوب الذين أسلموا معه : لو كان الرجل على حق ودين ما أصابه كل هذا البلاء الذى أصابه ، ويأتى إلى القرية فيحذرهم ، وعن مرته أن تقرهم ، لحال ربحه وشدة مرضه ، فذلك الرجل الذى عنى ، صلوات الله عليه ^(٣) ، حيث قال : ﴿ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصَبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ﴾ ^(٤) ، فكان ذلك الرجل شيطانه الذى هو من شياطين الإنس .

والدليل على ذلك أن الله ، عز وجل ، أخبرنا فى كتابه انه قال لإبليس ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝٤٧ ﴾ ^(٥) وإيوب ، صلى الله عليه ، من خيار عباده الذين أثنى عليهم ، فقال فيه خاصة : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٨ ﴾ ^(٦) ولو كان أيوب عنى الشيطان الجنى حيث قال ﴿ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصَبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ﴾ ^(٧) للزمه أنه من الغاوين ؛ وأن ^(٨) لإبليس عليه سلطاناً .

(١) أى تغيرت رائحته وصارت نكته .

(٢) سورة صر آية ٤١ .

(٣) سورة صر آية ٤٤ .

(٤) فى الأصل : ولان .

(١) زيادة ليست فى الأصل .

(٢) زيادة ليست فى الأصل .

(٣) سورة الحجر آية ٤٧ .

(٤) سبقت قريباً

قاعدة القرآن لا يتناقض .. وكل معنى متشابه له تأويل

والقرآن لا يتناقض ولا يختلف ^(١) ، وإن لكل معنى من هذا الجنس تأويل يرده إلى الحق والعدل والحكمة والبراءة من التناقض والعيب والفساد .

وقد رووا عن امرأة أيوب ، صلوات الله عليهما ، أنها باعت إحدى ضفيري ^(٢) برغيف ، فاتهمها وحلف ليجلدنها مائة جلدة ، وليس الخبر على ما قالوا ، وإنما وجه الخبر على ما ذكرنا ، ولذلك قال الله ، عز وجل : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ^(٣) .

فكيف يجوز أن يجلدها مائة جلدة ، ولا يقع الجلد إلا من زنا ١٩ وكيف تُتهم طاهرة صديقة بنت نبي ١٩ .. وقد قال الله ، عز وجل ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(٤) وهذا هو القول ، لا ما قالوا من جهلهم وإسنادهم إلى أولياء الله ، عز وجل ، كل ظلم وكل بلية ، لا تحسن في اليهود فضلاً عن غيرهم .

(١) حثنا الإسلام على التفكير والتدبر والتعمق فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْلَالٌ .. ﴾ ، ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ، ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ ، فكيف ينهانا ، تعالى ، عن الهوى وترك عدم التعمق الفهم ثم تتناقض كلماته ! .. قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ^(٥) النساء ٨٢ .. لقد امرنا ، تعالى ، بتدبر القرآن وفقه معانيه ومقاصده ومراميه المحكمة العظيمة الجليلة ، واليقين انه لا اضطراب ولا تناقض ولا اختلاف بين آياته ، فالقرآن لا يتعارض ، ولو كان من عند غيره لوجدوا فيه التناقض والاختلاف وآثار التكلف والصنعة .

ولابد للمسلم من فهم المحكم منه ، ورد المتشابه إلى محكمه ، وسؤال أهل العلم الراسخين في فهمه عند جهل نفسه وتأويله بروى عنه ، رحمه الله ، انه خرج ذات يوم والناس يتكلمون في القدر ، فكأنما يفتأ في وجهه حب الرمان - من الغضب - فقال لهم : « ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، بهذا هلك من كان قبلكم » . قال : فما غبظت - أي الراوى - نفسى بمجلس فيه رسول الله ، رحمه الله ، ولم أشهده ، ما غبظت نفسى بذلك المجلس انى لم أشهده . وعن ابن العاصى عن رسول الله ، رحمه الله ، قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » . ولا يفهم القرآن على وجهه الذى اراده الله إلا أهل العلم والراسخين في تأويله ، قال تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، قال ابن كثير : أى إما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها ، أولوا العقول السليمة والفهم المستقيمة .

(٣) سورة ص آية ٤٤ .

(٢) في الأصل : ظفريتها

(٤) سورة النور آية ٢٦ . وقد ورد في الآية خطأ فاحش في الأصل صححه

نقد المجبرة في دعواهم أنه يجرى مجرى الدم

١- وما احتجوا به أن إبليس يجرى من الإنسان مجرى الدم ^(١) ، وهذا خبر لم يأت في كتاب ولا سنة ، ولا أجمعت عليه الأمة ، وما ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع ؛ فهو باطل ؛ لأن الله ، عز وجل ، يقول : ﴿ مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(٢) يعني من أمور الدين .

وقال : ﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(٣) وهذا فلم يخبرنا به الرسول ، ﷺ .

وقال (ﷺ) ^(٤) : « لا تجتمع أمتي على ضلالة أبداً » ^(٥) .

ومن كان يجرى منا مجرى الدم فكيف نحذره ونتقيه ؟!

وكيف يخرج هذا في حق العادل الحكيم الذي لا يجور على عباده ؟!

وما نقض العدل ووافق الجبر ، فقد صح فسادُه بلا شك :

كنههم في أنه ظهر ببدر:

٢- وقد رووا - أيضا - أن إبليس ظهر لقريش يوم بدر ^(٦) في صورة سراقبة بن مالك ^(٧) بن جعشم المدلجي ، حتى كلمهم . وقال : إني جاز لكم من بني بكر حتى لا يخالف على مكة بعدكم .

(١) سبق تخريج هذا الحديث ، وهذا الحديث رواه البخاري والدارمي وأحمد بن حنبل في مسنده فكيف قال الإمام أحمد (وهذا خبر لم يأت في كتاب ولا سنة ١٢) يدعون أنه لا يعترف بكتب الحديث التي جمعها أهل الحديث في عصره من غير أهل البيت أو أوليائهم أو أتباعهم .. أو من غير المعتزلة والزيدية .. لعدم تحميمهم من الحديث اتبعاً للمنهج الذي ذكره الإمام أحمد من قبل .

(٢) سورة الانعام آية ٣٨ .

(٣) سورة الحشر آية ٧ .

(٤) ليست في الأصل .

(٥) رواه ابن ماجه ٢٠ / ١٣٠٣ (كتاب الفتن - باب السواد الأعظم) ، وأبو داود في سننه والدارمي ، والترمذي

(٦) انظر معاري الراقي ، ص ٤١ - ٤٣ - ٥٤ ، ٥٥ ، وانظر ابن كثير في التفسير ٢ / ٣٥١ .

(٧) ليست في الأصل .

فإن كان - هذا الباطل عندكم - حقاً فلا يخلوا أن يكون ما رووه أصح وأصدق من القرآن الذى قاله الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ^(١) فلا بد من صدق أحد القولين ، وكذب الآخر بحيلة محتال .

* * *

نقد المجبرة فى أن إبليس يتصور فى صورته :

وقولهم : إنه تصوّر فى صورة سراقه . أعظم واجل - عند أهل العقول والافهام - لانه إنما كان يتصور إذا أراد فى صورة ويحوّل نفسه عن ما أحب من صورته ، فهو قادر قاهر ، إذ كان هذا فعله فى نفسه من نفسه ! ..

فلا بعد قدرة هذا قدرة ، وقد ساوى الله ، عز وجل ، فى قدرته على الأشياء ، ووجب أنه غير عاجز !

وإن قالوا : إنما الله الذى أقدره على أن يتصور كيف شاء .

قلنا لهم : فما الفرق فى روايتكم فى جبريل ، صلوات الله عليه ، أنه يتصور ، إذا جاء إلى النبى ، صلى الله (عليه) ^(٢) ، فى صورة دحية الكلبي ^(٣) ، وأن النبى ، ﷺ ، سأل أن يرى كيف صورته مع الملائكة فوعده إلى منى ^(٤) ، ثم جاءه ناشراً جناحيه ، حتى سد الأفق وغشى على النبى ، صلوات الله عليهما ، حتى رجع له فى صورة آدمي ، وامسك على قلبه ، حتى رجعت إليه نفسه بعد الفزع ^(٥) .

* * *

بين جبريل وإبليس :

فإذا كان الله ، عز وجل ، أقدر وليّة الكريم عليه - وهو جبريل ، صلوات الله عليه ،

(١) قبيلة من قبائل العرب تسكن قريهاً من مكة .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) كان سيدنا جبريل ، عليه السلام ، أشبه الناس بدحية الكلبي ، انظر طبقات ابن سعد ج ٣ / القسم الثانى ، ص ٥٢ ، والإمام أحمد فى مسنده ١٠٧ / ٢ - ٣٣٤ / ٣ والواقدي ١ ص ٣٦٠ .

(٤) فى الأصل : منا .

(٥) رآه النبى ، ﷺ ، على هيئته ، انظر البخارى ٧١ / ٣٦١ (كتاب بدء الخلق ، باب ٧) ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، والترمذى ، وأحمد ١٦ / ٣٢٢ ، والطحايسى ح ٣٥٨ ، ١٤٠٨ .

على هذه المنزلة الشريفة ، وفضله على غيره ، وأعظم عليه المنة ، لطاعته له وطول عبادته ، وأنه الروح الأمين ، والسفير الذى يجرى بينه وبين رسله ، عليهم السلام ، وأنه إنما يتصور فى تلك الصورة لطاعته ومكاملة رسله (عليهم السلام)^(١) فى البنية التى يسكنون إليها .

ثم يجعل لإبليس - الملعون - عدوه الكافر العاصى لأمره المفضى له ، من الدرجة ١٤٦ ط / والفضيلة والرفعة والمنزلة / الشريفة التى يتصور فيها إلى أوليائه الطاهرين ؛ ليضلهم ويغويهم ويعصيه فيهم ، ولا يفعل فيها له طاعة ولا رضى ، فما الفرق - عندكم - بين جبريل ، صلوات الله عليه ، فى شريف الدرجة وبين إبليس - الملعون - الفاسق عن أمر ربه ١٩ ؟

وقال الله ، عز وجل ، فى كتابه الصادق ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢٨) (٢) ... !

والله ، تبارك وتعالى ، أجل وأعظم وأكرم وأحكم وأعدل ، من أن يعطى معجزاته من كذب عليه .

شبيه بما سبق مقالتهم فى فرعون :

وهذا مثل قولهم فى فرعون أن الله عز وجل ، أرسل معه النيل يسير إذا سار ، ويقف إذا وقف^(٣) ، فما الفرق بين معجزة موسى ، صلى الله عليه ، فى العصا ، وفلق البحر ، وبين مجرى الماء يسير مع عدو الله فرعون إذا سار ، ويقف له إذا وقف ١٩ ؟ وكيف تلزم الأمة حجة موسى دون حجة فرعون ١٩ ؟ ومن يجب أن يكون التخليط آمن الناس أم ممن جعل مع موسى معجزة ومع فرعون معجزة ١٩ ؟ لا يدرى الناس أيهما أحق بالرسالة ؛ لأن كليهما قد جاء بمعجزة باهرة لعقول الخلق - على قود قولهم !

(٢) سورة من آية ٢٨ .

(١) ليست فى الأصل .

(٣) ربما فهموا ذلك - خطأ - من قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥١) الزخرف ٥١ .

فيا سبحان الله العظيم كيف ذهبوا عن كتابه ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢٨) ﴿^(١) فإى شئ أوضح من هذا الذى قالوا إفساداً، وإى أبطل منه ١١؟ .. ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾^(٢) ، ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١٠٠) ﴿^(٣) .

نقد المجبرة فى أن إبليس يعقد على المؤمن ثلاث عقد:

٣- وقد روي أن النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ قال : إن إبليس يأتى أحدكم فيعقده ثلاث عقد^(٤) ؛ وهذا من أعجب العجب أن رجلاً يعقد ثلاث عقد، أو يعقد عليه ثلاث عقد، وهو فى ذلك لا يعلم بها ولا يدري متى عقدت عليه؛ لقليل الحذر من إبليس ، وأن من حذره منه المحذر ، يلزمه أنه حذره من أمر لا يعرفه، ولا يدري كيف يحذر من يعقد عليه ثلاث عقد !!

وهذا كلام المجانين ، ومن ينبغي أن لا يخاطب لجهله ، أو لحاجته فى المغالطة ١٤٧و / تنكف عن الرجوع إلى الصواب فيها ، فالله المستعان .

آيات تخرج على معنى الهوى:

١- وأما قوله ، عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ﴾ (٩١) ﴿^(٥) فهذا يخرج على الهوى ، الذى هو رضا للشيطان وطاعه له .

(١) سورة ص آية ٢٨ .

(٢) سورة الأنعام آية ٩١ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٠٠ .

(٤) رواه البخارى ٦١ / ٣٨٦ (كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده) حديث (٣٢٦٩) ، ونصه عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم - إذا هو نام - ثلاث عقد ، يضرب على كل عقد مكانها : عليك ليل طويل ، فارق - فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح شيطناً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » . وكذلك مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والموطأ ، وأحمد

(٥) سورة المائدة آية ٩١

٢- وقوله ﴿رَجَسَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(١) فالشيطان لم يعمل الخمر ولا الميسر ولا الانصاب ولا الازلام بل كل ذلك عمل بنى آدم ، كما عملوا الطنابير^(٢) والملاهي ، وقد صح انه لم يعملها ، وهي منسوبة إلى معصيته .

العمل غير الوسوسة ،

٣- وزعموا انه يوسوس ، ثم وجدناها هنا عملاً أتى عمله ، والعمل غير الوسوسة ، ورأينا بنى آدم الذين عملوا الاعمال ، التي هي سخط لله ، عز وجل ، فكيف هذا الامر وهذا التخليط ؟ .. وإنما المعنى فيه انه من جنس عمل الشيطان ، كما قال موسى ، صلى الله عليه^(٣) .

لأننا لم نجد من عمل هذه الاعمال القبيحة غير بنى آدم ، وأنه لم يعمل الخمر ولا المعازف ولا غيرها من الباطل ، وكل ذلك عملهم لا يقدر أحد أن يدفعنا عن ذلك من هذا القول ؛ لأنه نظر العيان ، ومكابرة العيان لا تجوز ، ولا إبليس باضراً على الإنسان من نفسه ولا من عدوه من شياطين الإنس الذين صح فعلهم وضررهم .
وعمل إبليس - الذى قالوا - من الدقائق ولطائف الصنع ، إنما هو دعوى بلا بينة ، والرد عليهم ما قد ذكرناه فى كتابنا هذا ، وفيه الكفاية الشافية ، إن شاء الله .

(١) سورة المائدة آية ٩٠ .

(٢) جمع طنبور : آلة من آلات اللعب واللهو والطرب ذات عنق وأوتار .

(٣) يشير إلى قول موسى ، عليه السلام ، بعد أن قتل القبطى ، آسفاً متحسراً : ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الفصل ١٥ / ١٥
وهو يعلم أن الشيطان لم يشاركه فى قتل القبطى ولم يتفرد دونه بذلك .. وإنما قام به وحده ، وإنما قصد انه عمل من جنس عمل الشيطان .

الحجة الصابغة المقلوب من الكلام

ومن الحجة لنا على من خالفنا وصرف معانى القرآن ، على ما يظن هو ، قول الله ، عز وجل : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ^(١) .

فقال القائل : كيف خلق من عجل والعجل منه هو ؟

فعند ذلك يقال له : إن أهل اللغة واللسان العربى يقولون : إن مجاز ^(٢) ذلك مثل قولهم : عرضت الدابة على الماء ، معنى الماء على الدابة .

ومثل قوله - تعالى ﴿ لِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ^(٣) ، وإنما الوجه أن تكون العيشة مرضية ^(٤) .

كما تقول العرب للناقة : راحلة ، وإنما هى مرحولة .

(١) سورة الانبياء آية ٣٧ .

(٢) انظر ابو عبيدة : مجاز القرآن ١ / ٣٨ - ٣٩ (خلق العجل من الإنسان) .

(٣) سورة الحاقة آية ٢١ .

(٤) من باب اطلاق اسم الفاعل ، والمقصود اسم المفعول .

الحجة الثامنة

معنى أن إبليس يشاركنا في أعمالنا سقوط العدل

١٤٧ ط / ومن الحجة أيضاً قول الله ، عز وجل ، في ذكر إبليس ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبْرِكَ وَرَجِّبْكَ وَخَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(١) ، وكل معصية لا تجوز في عدل العادل الحكيم ؛ لأنه لا يأمر بالباطل ولا يقضيه .

وكيف يشارك الشيطان الناس في الاموال والاولاد ؟ .

فالجواب لهم في ذلك وبالله نستعين ، أن نقول لهم : إن ذلك جائز في العربية ، أن يخرج الكلام في لغة العرب من المتكلم مخرج الأمر ، ومعناه خلاف ذلك ؛ وإنما هذا عندنا - وعند أهل العلم والقول بالعدل - على الوعيد والتهديد ، كنحو قول الرجل للرجل : أجهد جهدك واجهد جهدك . كل ذلك على الوعيد والتهديد .

وقد تقول العرب للرجل : اذهب اقتل فلاناً ، واذهب اضرب فلاناً . على الوعيد له ، وهم لا يريدون قتله ولا يحبونه ، ولا يريدون ذلك من الرجل الذي أمره بفعله ، وهذا معروف في كلام العرب غير منكر ؛ وإنما نزل القرآن على لغة العرب وتصرفها فيما تعرف .

وأما ما ذكره من مشاركة الشيطان في الاموال والاولاد فإن ذلك ليس - عند أهل العلم - كمشاركة الآدميين ، وإنما هو كنحو قول السحرة لفرعون ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾^(٢) ، أى اصنع ما أنت صانع ، كل ذلك على التهديد والوعيد .

وأما قوله ، عز وجل ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾^(٣) في لغة العرب جائز أن يسمى الصانع للشئ قاضياً له^(٤) .

قال الشاعر^(٥) يصف درعين على رجلين فقال :

(٢) سورة طه آية ٧٢ .

(١) سورة الاسراء آية ٦٤ .

(٣) انظر معاني القضاء في اللغة ، لسان العرب ٢٠ / ٤٧ ، ومقاييس اللغة ٥ / ٩٩ . وهي تدور حول الحتم والأمر والإعلام والعمل والفراغ .. وهذا الإمام صاحب الرسالة وأباهؤه اهتموا بالتفسير اللغوي للقرآن الكريم اهتماماً بالغاً .

(٤) هو أبو ذؤيب الهذلي .

وعليهما مسرودتان قضاهما داودُ قدرها الحكيم وتبع^(١)

أى عملها « داود » .

وأما شركه لهم فى الأموال والأولاد ، فهو أن تؤخذ الأموال بغير حقها ، وأن يطاع الشيطان فى ذلك ، بطاعتهم له وفعلهم كفعله ، ومصيرهم إلى رضاه ، ومراده منهم ؛ لأنه عدوهم وعدو أبيهم من قبلهم ، فصارت طاعتهم ، فيما أراد ، سبباً للشركة فى أولادهم وأموالهم .

وروا عن جريح عن مجاهد فى قوله : ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾ ، قال ما أكل من مال بغير طاعة الله ، وأولاد الزنا^(٢) .

(١) البيت فى ديوانه ، ص ١٩ ، وفى لسان العرب لابن منظور ٤١ / ٣٧٩ ، ١٠ / ٧٧ وجاء فى شطره الثانى هكذا .. (داود أو صنع السوايخ تبع) وفى اللسان : سمع أن داود ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، كان سحر له الحديد ، فكان يصنع منه ما أراد ، وسمع أن تبعاً عملها ، وكان تبع أمر بعملها ولم يصنعها بيده ، لأنه كان أعظم شأناً من أن يصنع بيده . والتبابعة : ملوك اليمن واحدهم تبع ، سمو بذلك ، لأنه يتبع بعضهم بعضاً ، كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً فى مثل سيرته .

(٢) جاء فى تفسير ابن كثير ٣٤ / ٥٦ ، ٥٧ : « قال ابن عباس ومجاهد : ما هو ما أمرهم به من انفاق الأموال فى معاصى الله ، وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وانفاقها فى حرام . » وكذا قال قتادة .

وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما : أما مشاركته إياهم فى أموالهم فهو ما حرموه من انعامهم ، يعنى من البحائر والسوائب ونحوها ، وكذلك قال الضحاك وقاتدة ، وقال ابن جرير : والأولى أن يقال : إن الآية نعم ذلك كله ، وقوله : ﴿ والأولاد ﴾ قال المعنى من ابن عباس ومجاهد والضحاك : يعنى أولاد الزنا . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفاً بغير علم .

قال قتادة عن الحسن البصرى : قد - والله - شاركهم فى الأموال والأولاد مجسوا وهودوا وصبغوا على غير صبغة الإسلام وجزعوا أموالهم جزءً للشيطان ؛ وكذا قال قتادة سواء .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم عبد الحارس وعبد الشمس وعبد فلان . قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب ، أن يقال : كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله أو بالزنا بأمه أو بقتله ، أو واده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه ؛ لأن الله لم يخصص ، بقوله : ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصى الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة .

وهذا الذى قاله منجه ، وكل من السلف رحمهم الله فسّر بعض المشاركة فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عياض ابن حماد أن رسول الله ﷺ ، قال : « يقول الله ، عز وجل ، إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ ، قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله ، قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبداً » .

قاعدة، اعرضوا السنة على الكتاب،

١٤٨ و / وأما ما رووا من الأحاديث في الشيطان ، وما أكثروا الرواية في ذلك عن النبي ، ﷺ ، وغيبه فما أمكن التأويل في القرآن ، كان التأويل في الأحاديث أجدر وأحرى ، وليس كل حديث روى يجب أنه حق ، لما قد عرفنا من كذب كثير من الأحاديث مما يبطله القرآن .

وقد قال ، صلوات الله عليه وعلى آله وسلم : « ما أناكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق الكتاب فهو منى ، وأنا قلته ، وما خالف الكتاب ، فليس منى ولم أقله » (١) .

وليس ينكر أن الشياطين تقارب الناس في أسباب تدنوا منهم في مواضع ولا سيما مع الفساق الفجار ؛ لأنهم من حيث لا يرونهم .

(١) روى الدارمي بسنده عن أبي هريرة ، قال : كان إذا حدث عن رسول الله ، ﷺ ، يقول : قال رسول الله ، ﷺ : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . فكان ابن عباس إذا حدث قال : « إذا سمعتموني أحدث عن رسول الله ، ﷺ ، فلم تجدوه في كتاب الله ، أو حسناً عند الناس فاعلموا اني قد كذبت عليه » ١١٤ / ١٥٤ .

الحجة التاسعة

نقد المجبرة في زعمهم إن الاستطاعة مع الفعل

ومن الحجة على أهل الجبر والقول بالاستطاعة مع الفعل ، أن يقال لهم : ليس أول الخلق آدم ، عليه السلام ، وأول من خالفه وعصى الله ، عز وجل ، فيه إبليس - الملعون ١٩

فلماذا قالوا : بلى ^(١) .

قلنا لهم : فهل أمر الله ، عز وجل ، آدم بترك الشجرة ^(٢) ، وقد علم أنه قادر على تركها ، أم علم أنه ليس بقادر على تركها ؟ ..

فإن قالوا : علم الله ، عز وجل ، أن آدم لا يقدر على ترك الشجرة .

قلنا له : فهو إذاً قد كلفه ما لا يطيق ..

وقد قال الله ، عز وجل ، في كتابه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ^(٣) وإلا ما آتاهما ^(٤) وهذا خارج من الحكمة والعدل أن يأمر بترك ما لا يقدر على تركه ، فقد بطل هذا الوجه وصح فسادُه .

وإن قالوا : إن الله ، عز وجل ، أمر آدم بترك الشجرة ، وقد علم أنه يقدر على تركها .

بطل ما اعتقدوا من الجبر ، ورجعوا عن قولهم ، وصار القول قولنا بالعدل ، ولزمهم أن كل شيء جاء من بعد آدم ، عليه السلام ، يجري على ما قد خرج في هذا الباب ، وإن كل جبر قالوا به يبطل كما يبطل هذا .

(١) في الأصل : بلى .

(٢) قال تعالى آمراً عبده ورسوله آدم ، عليه السلام ، وزوجه حواء : ﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٥) البقرة ٣٥ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٤) سورة الطلاق آية ٧ .

وكذلك أمر الله إبليس بما يقدر على فعله فعصاه :

وكذلك إبليس نقول فيه : أليس قد أمر الله ، عز وجل ، إبليس بالسجود لآدم^(١) ؟
فإن قالوا : بلى :

قلنا لهم : هل أمره بما يعلم أنه يقدر عليه ، أو بما علم أنه لن يقدر عليه ١٢ .
فإن قالوا : أمره بما علم أنه لا يقدر عليه .

أكذبوا القرآن وردوا عليه قوله ، عز وجل ، ﴿ لَا يَكْفِيُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾^(٢) ،
﴿ إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾^(٣) ، وإبليس مأمور منهي ، وهذا خارج من العدل والحكمة ، ولزم
فيه ما لزم في آدم ، عليه السلام .

وإن قالوا : بل علم الله ، عز وجل ، أنه قادر على السجود .

رجعوا عن قولهم ، وصاروا إلى قولنا بالعدل ، وبطلت دعواهم في جميع الجبر .

* * *

الاستطاعة قبل الفعل :

ولزمهم - أيضا - في هذا الباب أن الاستطاعة قبل الفعل^(٤) ؛ لأن الله عز وجل ،
١٤٨ ط / في / عدله وحكمته لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، نطق بذلك الكتاب
وشهدت به رسله .

(١) هناك اجتهد في مفهوم السجود هل كان لآدم ، أم لله شكراً على خلقه آدم بعد أن جادل الملائكة ربهم في أمر خلقه -
وقد علموا ما سيكون منه ومن ذريته - فجاء هذا السجود خضوعاً وطاعة وامتناناً لأمر ربهم - وإعلاناً منهم أن له أن
يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء لا شريك له في خلقه ولا أمره معصى إبليس أمر ربه بالسجود له - ظناً منه أنه مهيمن من هو
أقل شأناً عليه .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .
(٣) سورة الطلاق آية ٧ .
(٤) انظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ١ ص ٣٩٠ وما بعدها . قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ
اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ آل عمران / ٩٧ .. هذا في الحج . وقال : ﴿ فَمَنْ لَمْ يُسْتَطِعْ لِإِطْعَامِ يَتِيمٍ مِثْلًا ﴾ المجادلة / ٤ .
وهذا في كسفرة الأيمان من الظهار .. وقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ دَعْوُهُمْ وَلَا يَنْصُرُونَهُمْ
يَنْصُرُونَ ﴾ (١٩٧) الاعراف / ١٩٧ .. ولو استطاعوا لنصروهم . وقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ
رِبَاطِ الْغَيْلِ ﴾ الأنفال / ٦٠ .. وهذا في الجهاد فإعداد العدة قبل القيام بمنازلة الأعداء ومواجهتهم وغير ذلك كثير ..
فالاستطاعة قبل الفعل ، وهي عرض يحل في النفس يستثمر به المرء قدرته على القيام بفعل دون غيره .

لقد أعطى الله آدم استطاعة يقدر بها على الفعل ،

فإن قالوا : قال مخالفونا : إنه أمر آدم بترك أكل الشجرة من قبل أن يعطيه
الاستطاعة التي يقدر بها على الترك ، لزمهم أنه قد أمره بأمر هو خارج من طاقته ،
وأنه قد كلفه (ما ليس في)^(١) وسعة ، وانتقض قوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا ﴾^(٢) ، و ﴿ إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾^(٣) .

ولزمهم أنه قد دانوا بإبطال القرآن ، وهو حجة الله التي لا ترد ولا تبطل ، وإن قالوا :
إنه أمره بترك الشجرة (و)^(٤) ركب فيه الاستطاعة قبل الفعل .

رجعوا إلى القول بالعدل ، وكذلك يلزمهم في إبليس قبل ذلك سواء سواء^(٥) .

* * *

وكذلك أعطى الله إبليس استطاعة ،

فنقول لهم : أخبرونا هل أمر الله ، عز وجل ، إبليس بالسجود لآدم وهو قادر على
السجود ، أم أمره بالسجود لآدم وهو لا يقدر على السجود ؟

فإن قلتم : أمره بالسجود لآدم وهو لا يقدر عليه .

الزمتكم الله ، عز وجل ، أنه كلف غير الطاقة وخرج في ذلك من العدل والحكمة ،
ولزم إبطال كتابه ، إذ يقول سبحانه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾^(١) ، و ﴿ إِلَّا مَا
آتَاهَا ﴾^(٢) ، وهذا كفر من قائله ، وهلك عند الله ، عز وجل ، من دان به ، وافتضح -
عند السامعين - من اعتقده .

وإن قلتم : إنه ، عز وجل ، أمر إبليس بالسجود لآدم ، وهو يعلم أنه قادر على ما
أمره به .

(١) زيادة ليست في الأصل

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٣) سورة الطلاق آية ٧ .

(٤) زيادة ليست في الأصل .

(٥) تركيب لغوي كان معروفاً في هذا العصر ويقابله في عصرنا ما اشتهر على السنة الناس : « سواء بسواء » .. أو « مثلاً
بمثال » والمقصود تساوي الشيئين وتمثيلهما في الفعل أو تطابقهما في الوصف .

لزمكم أنكم قد رجعت عن قولكم ، وصرتم إلى قولنا بالعدل ، وأن الاستطاعة قبل الفعل ؛ وهذا يلزمكم فى جميع الأمور كلها ، التى هى من هذا الجنس من بعد آدم ، عليه السلام ، ومن بعد إبليس ، فهو لازم فى جميع ما ادعيتم من الجور ، والقول بالاستطاعة مع الفعل إلى يوم القيامة ، وهما كانا أول من أمر وتُهى ، فما لزم فيهما ، لزم فيما يأتى بعدهما إلى يوم القيامة .

وهذا أصل قوى فائت عليه ، وخذهم به وضيق عليهم ؛ فإنهم لامخرج لهم منه ابداً ؛ لأن الحق لا يُغلب ولا تبطل حججه ، والحمد لله رب العالمين .

ذهبت المجبرة إلى أن الشيطان سبب كفر الإنسان

ومما يحتجون به قول الله ، عز وجل ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

لهذا يخرج على ثلاث معان :-

١- واحد منها : أنه يجوز أنه عنى (٢) شيطان الجن ، وما كان من خديعته لآدم ، عليه السلام ،

٢- والآخر : أنه يجوز أن يكون شيطان الإنس أيضا .

٣- والثالث : الهوى وهو أشرها على بني آدم (٣) .

الأمثال في القرآن ومقاصدها ،

١٤٩و / وقد قال ، عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٤) فاخبر أنه قد ضرب أمثالا لا يعقلها إلا أهل العلم بها (٥) ، وليس يجوز قولهم في الوسوسة على أحد له أدنى عقل ، إذ لا حجة معهم توجب قبول ذلك ممن (٥) خالفهم . والدليل على الخلق الاضطرار إلى قبوله ، وليس معهم في الوسوسة حجة تضطر أحدا إلى قبولها ، فافهم هذا الباب وأحسن فيه النظر ، إن شاء الله .

(١) سورة الحشر : آية ١٦ .
(٢) يقول الزمخشري : « كمثل الشيطان » إذا استغوى الإنسان بكيد ثم تبرأ منه في العاقبة ، والمراد استغواه في شيء يوم بدر ، وقوله لهم : ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقَضَاةَ تَكْفُرُ عَلَى ظُهُبِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ﴾ الانفال / ٤٨ - انظر الكشف ، ٤ / ٥٠٧ . أما تفسير تنوير المقاس فقد ذكرناه ﴿ كمثل الشيطان ﴾ مثل المنافقين مع بني قريظة حيث خذلوهم أو كمثل الشيطان مع الراسب ، ص ٤٦٥ . وبذلك فسرها لمن كثير ٤ / ٣٦٠ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٣ .

(٥) يقول ابن كثير في تفسيرها : « أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتعلمون منه » ، وروى أحمد في مسنده بسنده إلى عمرو بن العاصي ، رضى الله عنه ، قال : عقلت عن رسول الله ، ﷺ ، ألف مثلي . . . وعنه قال : « ما مررت بأمة من كتاب الله لا أعرفها إلا أحرزني ، لأنى سمعت الله ، تعالى ، يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ﴾ ٣١ / ٤٥٦ .

(٦) في الأصل : مما .

تزعم المجبرة أن إبليس قادر على نسيان الإنسان،

ومما يحتجون به في تقوية إبليس الضعيف - عليه لعنة الله - وتعظيم قدرته على وسوسة قلوب بنى آدم ، إذ زادوا - مع الوسوسة - أنه يقدر أن ينسى الخلق عن شؤونهم ويذهلهم عن حوائجهم ، حتى ينسوا ما يحتاجون إليه ، ويذهلوا عن ما لا غنى بهم عنه !

يجب النظر والتأويل وتنزيه القرآن عن التناقض :

واحتجوا بقوله ، جل ثناؤه ، في ذلك بقصة موسى ، عليه السلام ، وفتاه إذ قال : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ ^(١) فهذا قول يحتاج إلى جودة النظر ، وتنزيه القرآن عن الاختلاف والتناقض .

ونحن نقول - لمن خالفنا :

أليس قد قال الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَنِيَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝١٥ ﴾ ^(٢) ..

شيطان الإنسان نفسه وهواه :

فأى سلطان أقوى من أنه يقدر أن ينسى الصالحين الطاهرين عن مصالحهم ومرفقهم ، مع ما أدعيتهم له من القدرة على الوسوسة ^(٣) . وهذا ما لا يجوز ؛ لأنه قد

(١) سورة الكهف آية ٦٣ ... ولابن مسعود في هذه الآية قراءة هي ﴿ ... اذكره ﴾ . (٢) سورة الإسراء آية ٦٥ .

(٣) وتأمل ما يلي :

١- قال تعالى : ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢ ﴾ سورة يوسف ٤٢ ، يقول ابن كثير : فأنسى الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكائد الشيطان لعلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله ﴿ فَأَنسَاهُ .. ﴾ عائد على الناجي ، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد . ويقال : إن الضمير عائد على يوسف ، عليه السلام ، رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضا ، وعكرمة وغير واحد ٥٢٦/٢ .

وهذا الاتجاه يسلم أن للشيطان قدرة على أن ينسى الإنسان ، وهو كلام في منتهى الخطورة ، لأنه يهدم التوحيد ، ويلزمهم تناقض آيات الله ، فقد نسبوا للشيطان قدرة مساوية لخالقه على الفعل ، وهو باطل شرعاً وعقلاً .

٢- وقال تعالى : ﴿ وَإِن يَسْمُنْكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٨ ﴾ سورة الانعام ٦٨ .. انظر ابن

كثير ١٦١/٢

جاء فى الاخبار ان موسى وفتاه ، عليهما السلام ، إنما كان خبرهما ان شيطاناً من شياطين بنى آدم ، أراد قتلها ، واغرى الظالمين ، فلزمهما خوفه ان ينسيا حوتهما .

فهذا الذى جاء به الاخبار ، وليس لإبليس - ولا كرامة - قدرة يقوى بها على ان يوسوس فى الصدر ، وينسى الامور ، لان هذه القدرة لا يقدر عليها إلا اللطيف الخبير .

والدليل على ذلك قوله ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١) فقد نسب الله ، عز وجل ، الوسوسة إلى النفوس ، فى هذا الموضع ، فلم جعلتم كل ذلك إلى إبليس دون ما ذكر الله ، عز وجل ، الا قلتم : إن بعض ذلك من النفس وبعضه من إبليس .. ١١

وليس باعجب من ترككم لشياطين بنى آدم ان تضيفوا إليهم من افعالهم شعرة واحدة .. ١١

فإذا كان الله ، عز وجل ، اقرب إلى عبده من حبل الوريد ، واخبرنا بذلك ، دلالة منه لنا ١٤٩ ط / على وحدانيته وعظيم قدرته وعلو شأنه ، ولطائفه التى لا يقدر عليها أحد غير / ثم جعلتم لإبليس الدليل الضعيف من القرب إلى العباد مثل قرب رب العالمين ١١

ما الفرق بين القلوتين فى زعمكم ؟

وإبليس - على قولكم - اقرب فى الوسوسة إلى قلوبنا من حبل الوريد والله ، عز وجل ، اقرب إلى قلوبنا من حبل الوريد ، فما الفرق بين القدرتين ، وما الفصل بين المنزلتين ، وما فضل الواحد القادر على العبد الضعيف الكافر ١٤٩ . يقوم جعلوا لإبليس هذه المنزلة وناظروا عليها ، ولا سيما من ادعى انه موحد غير ملحد وكان اعتقاده - زعم - الذى يدين بهانه

- ٣ - وقال تعالى : ﴿ اسْتَحْذِرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ سورة المائدة ١٩ ، يقول ابن كثير : « أى استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم ان يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال ابراهيم : بسنده عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة ، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » ٣٤٦ / ٤ . والصواب فى هذه الآيات ما قاله الإمام أحمد ، إذ إن الشيطان أنساهم لما فعلوا كفعله ووافق مرادهم ، أو هذه الشياطين من الإنس الذين يوافقونهم على هواهم ، أو أن هذا الشيطان هو المبول عن الحق وإتباع الهوى والنفس ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ سورة يوسف آية ٥٣ ، والله اعلم .

(١) سورة ق آية ١٦ .

الله ، عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ ^(١) أفليس قولكم هذا يوجب أمثله شيء ، سبحانه الله العظيم ...!

ما أقبح هذا من قول ، واضل قائله عن التوحيد ، وأميله عن الطريق ، فالله المستعان .

ما نقوله الجبرة قدح في التوحيد :

فكذلك يلزم من قال بالعدل ؛ ثم زعم ان الله سلب إبليس على خلقه ، فقد رجع عن الحق وانتقض قوله .

وللقرآن العظيم معاني جهلها أكثر الناس وغلطوا في تأويلها ، مثل قولهم أن في الجن أنبياء منهم مرسلين إليهم .

واحتجوا بقوله ، عز وجل ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ ^(٢) فذهبوا إلى أن الرسل من الفريقين جميعاً .

الرسول لا تكون إلا من الإنس :

وقد قال في ذلك أهل العلم والتأويل ، ليست إلا من الإنس خاصة ، وشاهد ذلك أن آخر الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، صلوات الله عليه ، وهو خاتم النبيين من الله ، عز وجل ، قد أعلمنا أنه رسول إلى الجن ، حيث قال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ ^(٣) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ^(٤) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٥)﴾ ^(٣) .

فهذا يدل على إقرارهم بنبوة موسى ومحمد ، صلى الله عليهما ، وأنهما لهما نبيان ،

(١) سورة الشورى آية ١١ .

(٢) سورة الانعام آية ١٣٠ .

(٣) سورة الاحقاف الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

ولم يذكر ان لهم نبياً من انفسهم ، قوله ، عز وجل : ﴿ اَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ ﴾ يجوز في لغة العرب ، التي يخاطب بها الجميع بالشئ الذي هو في البعض دون الكل ^(١) .

ومثل ذلك انه لو كانت رجال عدنان وقحطان مجتمعين جميعاً في موضع واحد ، وهم ١٥٠ / العرب المعروفون بالعربية ، / فقال لهم رجل من الهند او من الروم او من غيرهم : يا معشر العرب اليس محمد ، ﷺ ، منكم ؟ .. جاز لهم ان يقولوا : نعم ، محمد منا . إذ هم العرب ، وقد علموا انه من مضر خاصة دون سائر القبائل .

ومن الحجة ايضا قول الله ، عز وجل ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يُخْرِجُ مِنْهُمَا الْمُلُوثُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) ﴾ ^(٢) ، وقد علمت العرب والعجم ان اللؤلؤ والمرجان لا يخرج إلا من أحد البحرين دون الآخر ^(٣) ، وقد قال الله ، عز وجل ﴿ يُخْرِجُ مِنْهُمَا الْمُلُوثُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) ﴾ ^(٤) ، وليس يخرج ذلك إلا من أحدهما دون الآخر . فافهم هذا الباب ، إن شاء الله .

جعل حكم وتسمية ،

واما قوله - عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٥) ، فهذا جعل حكم وتسمية لا جعل جبر ، وقد قال الله ، عز وجل ، في قصة إبراهيم ، ﷺ ، حيث قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ ^(٦) .

فقال القائل : اليس هو الآن وليا للشيطان ؟

قلنا : بلى ، ولكنه عني به أن يكون قريباً له في نار جهنم .

(١) عقد ابن قتيبة باباً سماه « مخالفة ظاهر اللفظ معناه » ، ص ٢٧٥ ، وما بعدها .. ذكر فيه : « ومنه أن يجتمع شيطان ، ولا أحدهما فعلٌ فيجعل الفعل لهما : كقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُرَّتَهُمَا ﴾ سورة الكهف / ٦١ ، وقوله . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ سورة الانعام / ١٣٠ ، والرسول من الإنس دون الجن ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) سورة الرحمن الآيات من ١٩ : ٢٢ .

(٣) انظر ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٨٧ ، ولبن فارس : الصحاح ١ ص ٣٦١ .

(٤) سورة الرحمن آية ٢١ .

(٥) سورة الاحراف آية ٢٧ .

(٦) سورة مريم آية ٤٥ .

الإنس تفعل فعل إبليس وتعصى الله كعصيانه ،

وما اتجوا به قول الله ، عز وجل ، يخبر عن إبليس يوم القيامة حيث قال : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٢) (١) .

وقد يخرج هذا القول (٢) ، والله أعلم ، أنه عنى بذلك من مال إلى المعاصي والخطايا كميله وفعل كفعله ، ومثل ذلك قول الله ، عز وجل ، في قوم من بنى إسرائيل حيث خاطبهم بفعل غيرهم : ﴿ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٣) ، وهم لم يقتلوا أنبياء الله ، وإنما الذين قتلوهم أبائهم ، وكانوا راضين بفعل آبائهم ، فالزمهم ، عز وجل ، مارضوا به وصاروا إليه ، من اتباعهم لأبائهم على سنتهم وكفرهم ، فسماهم قاتلين للأنبياء ، صلى الله عليهم ، وهم لم يقتلوهم فعلا .

هذا يخرج قول إبليس لهم إذ كانوا على سنته ومنهاجه وطاعته في مراده . وهذا يخرج على التوقيف لهم والتفريع .

وأما قوله : ﴿ إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ﴾ (٤) فهذا على أنه عنى بذلك آدم وحواء ، عليهم السلام ، إذ شاركاه فيما حكى الله ، عز وجل ، عنهما إذ قال ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ (٥) ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ﴾ (٦) فهذا يخرج على ما ذكرت (٧) لك .

فافهمه ، أرشدك الله ووفقك .

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

(٢) يذكر ابن قتيبة أن ما يحدث من الشيطان للإنسان يحدث بالدهاء والوسوسة . ٣٤٨/١ - ٣٤٩ ، وهو يصح إن توجه للشياطين الإنس .

(٣) سورة البقرة آية ٩١ .

(٤) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٩٠ .

قال المفسرون في قوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَبَرَأَتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهَا لَنْ آتِيَنَا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٨٩) سورة الأعراف ١٨٩ .

إن حواء لما أثقلت آتاهها إبليس في صورة رجل ، فقال لها : ما هذا الذي في بطنك ؟ وذلك أول حملها ، فقالت : ما أدري .

زعمت المجبرة أن لكل إنسان شيطان يغويه :

وقد ادعى من ادعى من مخالفينا أن لكل إنسان من بنى آدم شيطان يغويه موكل به^(١) ، لما أنكرنا عليهم أن إبليس يذل ويقل ويضعف ، عن ما ادعوا من إغوائه للخلائق في البر والبحر والشرق والغرب ، فقالوا : إنما له أعوان يغوون له الناس !

وقد أجمع معنا ، من تكلم في هذا الباب من أهل القول بالعدل ، أن الجن خلقوا ضربة واحدة ويموتون ضربة واحدة . فلزمهم ها هنا أن من مات من بنى آدم فقد بقى شيطانه بلا شغل ولا عمل ..

وقد زعموا أن لكل إنسان شيطاناً لا بد منه ، وليس كذلك أخبرنا الله ، عز وجل ، أنه خلقهم ، وإنما أخبرنا أنه خلقهم للعبادة لا للمعصية ؛ فأوجب من خالفنا أن ليس لهم عمل إلا الإغواء ..

= فقال لها : أرايت إن دعوت ربى فولدته إنساناً أتسمينه بى ؟

فقلت نعم

وقالت هى وآدم : ﴿ فَمِنْ أَتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

أى : لمن خلقته بشراً مثلنا ولم نجعله بهيمة . فلما ولدته آتاهها إبليس ليسألها الوفاء ، فقالت : ما اسمك ؟

قال : « الحارث » ، فتسمى بغير اسمه ، ولو تسمى باسمه ليرفته ، فسكت « عهد الحارث » ، فعاش أياماً ثم مات ، فقال

الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ الاعراف ١٩٠ .

وإنما جعلنا له الشرك بالتسمية لا بالنية والمقد .. وقال الطبرى : فى « الاسم لا فى العبادة » .. انظر ابن قتيبة ،

ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، والطبرى التفسير ٩١ / ١٠١ .

(٦) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

(٧) ذكر ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، ص ٢٥٦ ، وما بعدها بأنها فى « الكناية والتعريض » قال فيه : « الكناية

أنواع ، ولها مواضع ، فمنها أن تكنى عن اسم الرجل بالابوة ليزيد فى الدلالة عليه إذا أنت رسلته أو كتبتة إليه ، إذ

كانت الأسماء قد تتفق . أو لتعظيمه فى مخاطبة بالكنية ، لأنها تدل على الحنكة ، وتخبر عن الاكتحال » .

(٨) روى مسلم عن أبى سفيان عن جابر قال سمعت النبى ، ﷺ ، يقول : « إن الشيطان قد آسأ أن يعبد المصلون فى

جزيرة العرب ، ولكن فى التحريم بينهم » ، ١٧ / ١٥٦ وكذلك رواه أحمد والترمذى ، انظر السيوطى : الجامع

الصغير ٨٢ / ١١

وعن جابر قال سمعت النبى ، ﷺ ، يقول : « إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم

عنده أعظمهم فتنة » .

وعن جابر أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ يقول : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فأدناهم منه

منزلة أعظمهم فتنة . يجرى أحدهم ، فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، قال : ثم يجرى أحدهم

فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال : فيدنيه منه ، ويقول : نعم أنت ، قال الأحمش : أراه قال :

فيلتزمه » .

وروى كذلك أنه سمع النبى ، ﷺ ، يقول : « يبعث الشيطان سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده منزلة

أعظمهم فتنة » .

فقد لزمهم أن من مات بقى شيطان بلا شغل ، وأن من كان يوسوسه وينال من قلبه ، مثل قدرة رب العالمين ، قد مات وفرغ وبقي بلا شغل ، وهذا فساد ولا يجوز . ونحن من بعد هذا كله نقول لهم إن جاءوا بحجة قاهرة ودلالة باهرة ، تشهد عليها عقولنا ، وعقول من سمعها من غيرنا ، سلمنا لهم .

وإن لم يأتوا بحجة توجب لهم علينا أن لإبليس اللعين الدليل الضعيف ، قدرة أقدره الله ، عز وجل ، كقدرته هو - تبارك وتعالى - الذى لا يقدر على مثل قدرته أحد غيره ، فالقول قولنا والحق معنا دونهم ، وليس قولنا هذا لشك داخلنا ، ولا يجوز أنهم يأتون بحجة^(١) .

منهج الإمام أحمد فى الإنصاف كمنهج الإمام على ، كرم الله وجهه ،

وإنما قلنا هذا من طريق الإنصاف ، كقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، صلوات الله عليه ، إذ غلبته أصحابه ومالوا إلى تحكيم الحكمين ، فلما عزموا على ذلك ، وهو له كاره ، قال : فاما إذا عزمتم على إيسالهما فيذهب فيحكما بكتاب الله ، عز وجل ، فإن وجدا معاوية فى القرآن أولى بالمقام منى فليسلما له ، وإن وجدانى فى القرآن أولى من معاوية فليسلما لى .

فاحتج عليه الخوارج^(٢) بهذا الكلام ، وقالوا : قد شككت فى نفسك فنحن فيك أشد شكاً .

(١) روى مسلم كذلك فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : قال : رسول الله ، ﷺ ، : « ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن » ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فاسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير . وقد علقنا على هذه الأحاديث فى الدراسة . . وبيننا معانيها من حيث الحقيقة والتأويل ، ومن حيث العقيدة والخرافات الشعبية أو الأساطير والروايات الموروثة .

(٢) الخوارج : فرقة من كبار الفرق الإسلامية ، وهم سبع : الهكمية والبهسية والأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية والمجاردة .

ومن عقائدهم تكفير مخالفينهم من أهل القبلة ، ومواراتهم وقتالهم وغنيمة أموالهم حلال . كما قالوا بتكفير الرعية إن كفر إمامها ، الغائب منهم والشاهد وأوجبوا قتاله ، وتوقيع الحد عليه ، وعلى من رضى بحكمه ، أو طعن فى دين الخوارج ، أو صار دليلاً للسلطان . وجوزوا التقية فى القول والعمل ، والتوقف فى دار التقية فلا يقاتل أهلها حتى يذهبوا إلى دين الخوارج ، فإن امتنعوا قوتلوا . وعدوا خروجهم من ديار أهل القبلة هجرة ، وأنها فرض وفضيلة ، وتبرأوا ممن يرجع من دار الهجرة إلى القعود ، وجوزوا قتل القاعدين عن حرب الذين كفروهم .

فقال لهم ، صلوات الله عليه : إنما قلت هذا من طريق الإنصاف . وقد قال الله ، عز وجل ، لنبيه ، الله ، ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٩) ﴿ (١) .

وقد علم ، صلوات الله عليه ، أنهم لا يأتون بكتاب أهدى من كتابه أبداً ، وإنما ١٥١ / هذا لحد الإنصاف .

فافهم / ما شرحنا لك ؛ من الاحتجاج فاعمل فيه نظرك .

واعلم أن ليس مع أحد من الخلق حجة قاطعة ، يلزمنا بها إيجاب قدرة إبليس على الوسوسة في صدور الخليفة ، ولا يقع على كيفية ذلك ولا على تحديده وتوصيفه أحد أبداً (٢) .

إلا الدعوى التى لا تقوم ولا تقع عليها الاوهام ، بل تشهد عليهم بالإلحاد فى صفة الله ، عز وجل ، فلا يبعد الله الا من ظلم ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢٢٧) ﴿ (٣) .

* * *

(١) سورة القصص آية ٤٩ .

(٢) الوسوسة فى حق آدم وحواء حقيقة ، وفى حق ابنائه وذريته مجاز قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيَدِيَهُمَا مَا يُورِي عَنْهُمَا ﴾ سورة الاحراف ٢٠ ، وقال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلَّةِ ﴾ سورة طه ١٢٠ . . . ويلاحظ أنه ، تعالى ، ذكر وسوسته للزوجين فى الآية الاولى ، ولآدم منفرداً فى الثانية ، وذلك لان إغراءات الشبهة تجمعهما فى الاولى ، وفى الثانية لا يطلع إلى إغراءات الخلود سوى الرجل ، فذكره ، تعالى ، منفرداً ، لانه لم يحدث إلا له وحده ، والله اعلم .

(٣) سورة الشعراء آية ٢٢٧ . .

الحجة العاشرة

هل قدرة إبليس أكثر من قدرة الملكين الموكلين؟

ومن الحجة عليه أن نقول لهم : أخبرونا أيهما أولى في حكمة الله ، عز وجل ، وحسن فعله ورحمته لعباده وبفضله عليهم ، وقوله ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ^(١) حيث أقدر إبليس - زعمتم - بإقدار الله ، عز وجل ، له ، ثم وكل على كل عبد ملكين ^(٢) يكتبان الحسنات والسيئات ، وليس لهما من القدرة على القلوب ، فلا على إجراء الخواطر في النفوس ، مثل ما أقدر عليه إبليس العاصي اللعين المعاند ١٩ ..

أفليس كان أولى به ^(٣) ، عز وجل ، أن يجعل لهذين الملكين المؤمنين الطاهرين من القدرة ما يلقىان في قلوب بني آدم . من الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ما يردعهم عن الخطأ ، ويكون لهم فيه موعظة تكسر عنهم وسوسة إبليس ، فيكون ذلك أثبت للعدل ، وأدنى إلى الرأفة والرحمة ، ولا يفضل إبليس عليهما بهذه المنزلة التي هي أرفع من منزلتهما ، لأنهما لا يقدران على الخواطر في النفوس ، وإنما يكتبان ما ظهر لهما ، وأقدر إبليس على ما لم يقدر عليه ، وهما ملكان وليان الله ، عز وجل ، وإبليس عدوه ١٩ ..

لازم مذهب الجبرة :

وهذا يوجب عليكم أنا لم نؤت ذنوبنا إلا من قبل من أقدره (الله) ^(٤) على الشر

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ ، وقد جاءت في الأصل ﴿ يريد بكم .. ﴾ وهو خطأ .

(٢) روى الإمام أحمد بسنده عن بلال بن الحارث المزني ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ، ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ، عز وجل ، له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ، تعالى ، عليها بها سخطه إلى يوم يلقاه » قال الترمذي حسن صحيح وله شاهد في الصحيح . فقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمن يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة . قال له : أمسك ، فإن استغفر الله ، تعالى ، نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها . رواه ابن أبي حاتم . انظر ابن كثير في تفسيره ٤ / ٢٣٦ .

(٣) في الأصل : أولا

(٤) زيادة ليست في الأصل .

والضرر ، ولم يقدر الملكين على الخير والنفع . . . سبحانه الله العظيم ، ما أعظم ما جئتم به ، فنعوذ بالله من الجهل بتوحيده وعدله ، واتباع الهوى فيما خالف كتابه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الجن خلقوا مرة واحدة ويموتون مرة واحدة :

وأما قوله ، عز وجل ، : ﴿ اتَّخَذُونَهُ وَقُرَيْشَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ ^(١) ، فالذرية إنما هم الأولياء في هذا الموضع ؛ لأنه لا نسل له ، وقد قال ، عز وجل ، لجميع المسلمين ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٢) يجمع بينهم الناس كلهم ، وسماه أباً لهم ، وليس هو أباهم على الولادة ؛ لأن ولد إبراهيم ، ﷺ ، خاصة يعرفون بولادته ، وإنما هو أب المسلمين في الدين لا في الولادة .

١٥١ ط / وكذلك قال في قول لوط ، ﷺ : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ ^(٣) يعنى بناته في الدين / لا في الولادة ، ورووا أنه لم يكن له بنت ^(٤) .

كان العرب يعرفون معاني القرآن وتأويله :

وللقرآن معاني تحتاج إلى التأويل والمعرفة باللغة التي خاطب الله ، عز وجل ، بها رسوله ، صلوات الله عليه ، وخاطب بها رسول الله ، ﷺ ، العرب الذين عرفوا عنه ما تلا عليهم ، ولم يخف عليهم من ذلك حرف واحد في التلاوة ولا في التأويل ؛ لأنه لوعى عليهم حرف واحد ؛ لقالوا : هذا حرف لا نعرفه في اللغة العربية ، ولو جهلوا

(١) سورة الكهف آية ٥٠ .

(٢) سورة الحج آية ٧٨ .

(٣) سورة هود آية ٧٨ - سورة الحجر آية ٧١ .

(٤) قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَرْبٍ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْكُمْ وَجَلَّ رُشِيدٌ ﴾ (٧٨)

سورة هود / ٧٨ .. أرشدهم ، عليه السلام ، إلى نكاح نسائهم فالنبي لأمته بمنزلة الوالد لهم جميعاً ؛ فأرشدهم إلى ما

هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة .. ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٧١) سورة الحجر / ٧١ . قال مجاهد : لم يكن

بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ، وكذا روى عن قتادة وغير واحد ابن كثير ، ٤٩٦ / ٢ .

شيئاً من القرآن لم تلزمهم به حجة . وقد قال الله ، سبحانه : ﴿ يَخْرُفُونَهُ كَمَا يَخْرُفُونَ
أَتْنَاهُمْ ﴾ ^(١) .

والجن لا يناكحون ولا يتناسلون ، وإنما خلقوا ضربةً ويموتون ضربةً ، والدليل على
ذلك ما احتججنا به ، على من زعم أن الجن يحتاجون في كل عصر وزمان إلى إمام
هدى ، وأنه يلزمنا أن نقول : لا بد لهم في كل عصر من إمام يقيم لهم الدين ،
ويفرعون إليه ، كما يفرع الناس إلى الإمام في كل عصر وزمان .

فكان الرد ، على من ادعى هذا ، أن قلنا : إنما خلقوا ضربةً ، وليس فيهم تناسل ،
والدين ، الذي أخذوا عن محمد ، صلوات الله عليه ، هو الدين المفروض عليهم لا
يحتاجون بعد محمد ﷺ ^(٢) إلى أحد بعده ، لأنهم أخذوه جملة وهم أحياء لا
اختلاف بينهم ولا فرقة ، وهم على ما تركهم عليه ، صلوات الله عليه ، فمن أراد أن
يبدل أو يغير فذلك إليه ، لأنهم مخيرون مجبورين ، والسلام .

واعلم - أكرمك الله - أن جوابنا هذا فيه الرد على فرق شتى ، لأن فيه الرد على
الجهرة ، وعلى من قال بوسواس إبليس ، ممن يدعى القول بالعدل ، والرد - أيضاً -
على من يدعى القول بالتوحيد ثم أوجب لإبليس كقدرة الله ، عز وجل ، والرد
على من قال بالاستطاعة مع الفعل ، فهو على ضروب شتى .

فافهم ما في كل ذلك بعينه ولا تدخل شيئاً منه في شيء ، فإنك تفهم ذلك كله
عند تدبره وقراءته ، إن شاء الله .

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ،
وصلى الله على رسوله محمد بن عبد المطلب ، نبي الرحمة ،
وسراج الأمة ، وعلى آله ^(٣) وسلم تسليماً

(١) سورة البقرة آية ١٤٦ .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) في الأصل : وعلى آله وأهله ..

٨ - فهرس المراجع والمصادر

مسلسل	المراجع والمصادر
١-	الإبانة عن أصول الديانة ، لأبى الحسن على بن إسماعيل الأشعري ؛ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط مكتبة دار البيان ١٩٨١ م .
٢-	إحياء علوم الدين ، لمحمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ؛ أبو حامد ، طبع دار البيان العربى ، د . ت .
٣-	الآراء الكلامية والصوفية للفتشيري ؛ لإمام حنفي سيد عبد الله رسالة ماجستير ، ٢ ج ، بدار العلوم جامعة القاهرة .
٤-	الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد ؛ الإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني ، تحقيق أسعد تميم ؛ طبع مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، ط . أولى ١٩٨٥ م .
٥-	الأصمعيات ؛ اختيار الأصمعي ؛ طبع في مصر ١٩٥٥ م .
٦-	أصول الدين ، لعبد القاهر بن طاهر البغدادي ، استانبول ، ١٣٤٦ هـ .
٧-	الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ، لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق أحمد عصام الكاتب ، نشر دار الآفاق الجديدة ، ط . أولى ١٩٨١ م .
٨-	الأعلام ، لخير الدين الزكلى ؛ ط . ثامنة دار العلم للملايين ١٩٩٢ م .
٩-	أعلام النساء ، لعمر رضا كحالة ، طبع في دمشق ١٣٥٩ هـ .
١٠-	الأغاني ؛ لأبى الفرج الأصفهاني ، ط . دار الكتب المصرية .
١١-	الأمالي ؛ لأبى على القالي ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٢-	الإمامة والسياسة ، لابن قتيبة ، ط . مؤسسة الوفاء بيروت ١٩٨١ م .
١٣-	البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل ، لأبى بكر الباقلاني .
١٤-	تاويل مشكل القرآن ؛ لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، شرح ونشر السيد أحمد صقر ، دار التراث القاهرة ١٩٧٣ م .
١٥-	التعريفات ؛ لعلى بن محمد السيد الشريف الجرجاني ؛ وتحقيق د/ عبد المنعم حفنى ، دار الرشاد القاهرة .
١٦-	تفسير ابن كثير ، لعبد الدين أو الفداء إسماعيل ابن كثير ، طبعة دار الخير ، بيروت ١٩٩٠ م .
١٧-	تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق عماد الدين حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، ط أولى ١٩٨٧ م .

- ١٨- التمهيد لقواعد التوحيد ، لأبي المعين النسفي ، تحقيق حبيب ، الله حسن أحمد ، دار الطباعة المحمدية ، بالأزهر ، د . ت .
- ١٩- تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، جمع أبي طاهر بن يعقوب الفيروز ابادي ، طبع الانوار المحمدية القاهرة ، د . ت .
- ٢٠- التوحيد ، لأبي منصور الماتريدي ، تحقيق فتح الله خليف ، دار المشرق ، بيروت ١٩٧٠ م .
- ٢١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، طبعة بولاق ١٣٢٩ هـ .
- ٢٢- الجامع الصغير ، لجلال الدين السيوطي ، طبع مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني .
- ٢٣- جمهرة اشعار العرب ، لابن أبي الخطاب القرشي ، طبع دار بيروت .
- ٢٤- جمهرة الانساب ، لأبي محمد ابن حزم الاندلسي ، طبع بمصر ١٩٤٨ م .
- ٢٥- حسن المحاضرة ، لجلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفصل إبراهيم ، ط . أولى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٢٦- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الاصبهاني ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت د . ت .
- ٢٧- حي بن يقظان ، للدكتور يوسف زيدان ، هيئة قصور الثقافة .
- ٢٨- خزانة الادب ، ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي ، طبع بولاق ١٢٩٩ .
- ٢٩- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطي ، نشرة محمد أمين دمج ، دار العلمي العربي ، دمشق ١٩٤٨ م .
- ٣٠- دلائل النبوة ، لأبي نعيم الاصبهاني ، مكتبة المتنبي د . ت .
- ٣١- ديوان أبي ذؤيب الذلي ، دار الكتب العلمية ، د . ت .
- ٣٢- ديوان الخنساء ، دار بيروت ، د . ت .
- ٣٣- ديوان لبيد ، دار بيروت ، د . ت .
- ٣٤- ديوان المتنبي ، المكتبة الثقافية بيروت ، د . ت .
- ٣٥- الرائق في تنزيه الخالق، ليحيى بن حمزة العلوي ، تحقيق إمام حنفي عبد الله ، طبع دار الآفاق العربية ٢٠٠٠ م .

- ٣٦- الرد على الحسن بن محمد بن الحنفية ، للهادي يحيى بن الحسين ، تحقيق د / محمد عمار ضمن مجموع رسائل العدل والتوحيد جزءان فى مجلد واحد ، وطبع دار الشروق ، ١٩٨٣ م .
- ٣٧- الرد على الروافض ، للقاسم إسماعيل بن إبراهيم الرسى ، تحقيق إمام حنفى عبد الله ، طبع دار الآفاق العربية القاهرة ٢٠٠٠ م .
- ٣٨- الرد على النصارى ، للقاسم الرسى ، تحقيق إمام حنفى عبد الله ، طبع دار الآفاق العربية ٢٠٠٠ م .
- ٣٩- سنن ابن ماجه ، لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى بن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط . عيسى الحلبي ١٩٥٢ م .
- ٤٠- سنن أبو داود ، لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، دار الريان للتراث .
- ٤١- سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، نشر دار الكتب العلمية .
- ٤٢- سنن الدارمى ، لأبى محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى ، طبع دار الريان للتراث .
- ٤٣- السنن الكبرى ، لأبى بكر البيهقي ، حيدر آباد ١٣٤٤ هـ .
- ٤٤- سنن نسائي ، المجتبى ، لأبى عبد الرحمن بن شعيب بن على النسائي ، ومعه شرح الربى على المجتبى للسيوطى ، ط . الحلبي ١٩٦٤ م .
- ٤٦- شرح الاصول الخمسة ، للقاضى عبد الجبار الهمداني ، تحقيق د / عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة ط . ثانية ١٩٨٨ م .
- ٤٧- شرح النووى على صحيح مسلم ، لمحيى بن شرف النووى ، طبع دار الريان للتراث .
- ٤٨- شعب الإيمان ، لأبى بكر البيهقي ، دار الكتب العلمية د . ت .
- ٤٩- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، ط . الحلبي ١٣٥٠ هـ .
- ٥٠- الصاحبى . لابن فارس ، ط . المؤيد ١٣٢٨ هـ .
- ٥١- صحيح ابن جبان ، لأبى حاتم محمد بن حبان التميمى ، تحقيق احمد شاکر ، ط . المعارف القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٥٢- صحيح مسلم ، لأبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ط . عيسى الحلبي ١٩٥٥ م .

- ٥٣- صحيح البخارى ، محمد بن إسماعيل البخارى ، ط . الاميرية ١٣٤١ هـ .
- ٥٤- صراع بين النفس والعقل ، د / عبد الكريم دهينة ، المكتب الثقافى القاهرة .
- ٥٥- صفوة البيان لمعانى القرآن ، لحسين محمد مخلوف ، وزارة الاوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ، ط . ثالثة ١٩٨٧ م .
- ٥٦- الصناعتين ، لابی هلال العسكرى ، الأستانة ١٣٢٠ هـ .
- ٥٧- الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة ، لاحمد بن حجر الهيثمى ، دار الكتب العلمية ط . أولى .
- ٥٨- الاضداد ، لابن السكيت ، الكاقوليكية بيروت ١٩١٣ م .
- ٥٩- الطبقات الكبرى ، لابن سعد بن منيع البصرى ، ط . بيروت ١٩٥٧ م .
- ٦٠- طبقات المعتزلة ، لاحمد بن يحيى المرتضى ، تحقيق سوسنه ديثلد - فلزر ، ونشر مكتبة دار الحياة بيروت ، د . ت .
- ٦١- عقيدة التنزيه عند المسلمين ، إمام خنفي عبد الله ، دار الآفاق العربية القاهرة ، ط . أولى ٢٠٠٠ م .
- ٦٢- العلل المتناهية فى الاحاديث الواهية ، لابی الفرج بن الجوزى تحقيق خليل الميس ، ط . أولى دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣ م .
- ٦٣- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ، ط . السلفية القاهرة ١٣٨٠ هـ .
- ٦٤- فردوس الاخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب ، للحافظ شبرويه بن شهر دار بن شبرويه الديلمى ، قدم له وحققه ، فواز أحمد الزمرلى ، محمد المعتصم بالله البغدادى ، ط . دار الريان للتراث القاهرة .
- ٦٥- الفصل فى الملل والاهواء والنحل و لابی محمد بن حزم ، تحقيق د / محمد نصر ، وعبد الرحمن عميرة ، دار الجيل - بيروت .
- ٦٦- الفهرست ، لابن النديم ، ط . التجارية القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- ٦٧- فيض القدير ، وهو شرح على كتاب الجامع الصغير للسيوطى ، لمحمد عبد الرؤوف المناوى ، مصر ١٩٣٨ م .
- ٦٨- الكامل ، للمبرد ، ط . مصطفى محمد ١٣٥٥ هـ .
- ٦٩- كشاف اصطلاحات الفنون ، لمحمد على الفاروقى التهاونى ، ط . بيروت .

- ٧٠- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، محمود بن عمر الزمخشري د . دار الريان ، ثلاثة ١٩٨٧ م .
- ٧١- كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الحديث على السنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلوني ، ط . دار التراث القاهرة ، د . ت .
- ٧٢- كيف نصنع المستقبل ، لروجيه جارودي ، دار الشروق ط . اولى ١٩٩٩ م .
- ٧٣- كيمياء السعادة ، للغزالي ، تحقيق محمد عبد العليم ، مكتبة القرآن ١٩٨٧ م .
- ٧٤- كنز العمال في سنن الاقوال والأفعال ، لعلاء الدين على الهندي ، حيد آباد ١٣١٣ هـ .
- ٧٥- لسان العرب ، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفرقي ، ط . بيروت .
- ٧٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لعلى بن أبى بكر الهيثمي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .
- ٧٧- المحيط بالتكليف ، للمقاضي عبد الجبار الهمداني .. وجمع تلميذه ابن مشوية ، تحقيق عمر السيد عزمي ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٧٤ م .
- ٧٨- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨ م .
- ٧٩- المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، ط . الحلبي القاهرة ١٣١٣ هـ .
- ٨٠- المعجم الفلسفي ، د / عبد المنعم حفي ، دار ابن زيدون ، بيروت د . ت .
- ٨١- المعجم الكبير ، لسليمان بن أحمد الطبراني ، تحقيق حمدي السلفي بغداد ١٩٧٩ م .
- ٨٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .
- ٨٣- معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ط . اولى ١٩٩٣ م .
- ٨٤- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مطبعة مصر ١٩٦٠ م .
- ٨٥- المغازي ، لمحمد بن عمر الواقدي ، تحقيق مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت د . ت .
- ٨٦- المغنى فى أبواب العدل والتوحيد ، للمقاضي عبد الجبار الهمداني ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٨٧- مفتاح كنوز السنة ، وضع فنسنله ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ، طبع دار الحديث القاهرة .
- ٨٨- المقاصد الجسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، لشمس الدين السخاوى ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٩ م .

- ٨٩- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لابی الحسن الأشعري ، تحقيق محمد محیی الدین عبد الحمید ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- ٩٠- الملل والنحل ، لابی الفتح محمد بن عبد الكريم ، الشهرستاني . تحقيق أمير مهنا ، وعلى فاعور ، دار المعرفة بيروت ط . ثانية ١٩٩٢ م .
- ٩١- المواقف ، لعفشد الدین عبد الرحمن الإيجی ، ط . عالم الكتب بيروت د . ت .
- ٩٢- الموضوعات ، لابن الجوزی ، تحقيق عبد الرحمن عثمان دار الفكر ١٩٨٣ م .
- ٩٣- الموطا ، للإمام مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط . دار الشعب .
- ٩٤- نصره مذاهب الزيدية ، للصاحب بن عباد ، تحقيق ناجی حسن ، ط . أولى الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٨١ م .
- ٩٥- نهاية الاقدام فی علم الکلام ، لابی الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق الفرد جیوم ، لندن ١٩٣٤ - ومصورة عنها بمكتبة المتنبي .
- ٩٦- وفيات الاعيان وانباء انباء الزمان ، لابن خلكان حققه د / إحسان عباس بيروت ١٩٦٨ م .

٥	المقدمة
١٠	أولاً، الدراسة، إبليس في التصور الإسلامي بين الحقيقة والوهم
١١	المبحث الأول: في بيان حقيقة إبليس
٢٣ - ١٧	الفصل الأول : إبليس والمعصية
٣٠ - ٢٧	الفصل الثاني : خلق الله إبليس لطاعته
٤٣ - ٣٣	الفصل الثالث : كيد إبليس في الواقع
٣٥	١- كيد إبليس ٣٣
٣٨	٢- من إبليس ٣٥
٣٧	٣- نزع إبليس ٣٧
٣٨	٤- إبليس والرسول ٣٨
٤٢	٥- إبليس وعيسى ، عليه السلام
٦٢ - ٤٧	الفصل الرابع : في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم
٤٧	١- الجن وثوابهم وعقابهم
٥٨	٢- الجن قبل وبعد البعث
٦٧	المبحث الثاني، أحوال إبليس مع الإنسان :
٨٠ - ٦٩	الفصل الأول : أفعال إبليس بين الحقيقة والحجاز
٧١	١- هل سحر النبي ، ﷺ ؟ ١٩
٧٣	٢- هل يعقد الشيطان على قافية المسلم ١٩
٧٧	٣- هل يبول الشيطان في أذن المسلم ١٩
٩٦ - ٨٣	الفصل الثاني : والله خير حافظاً
٨٧	١- الاستعاذة من الشيطان
٩١	٢- الحرز من الشيطان
٩٤	٣- الشيطان والعلاقة الزوجية
١١١ - ٩٩	الفصل الثالث : وهم لا بد من رده
١٠١	١- الشيطان والصلاة
١٠٥	٢- الشيطان وصلاة الرسول ، ﷺ
١٠٩	٣- الشيطان والالتفات في الصلاة
١٠١	٤- المار شيطان

١١٥ - ١٤٤	الفصل الرابع : ليس لإبليس سلطان على الحياة
١١٧	١- الشياطين فى رمضان
١١٩	٢- صدقك وهو كذوب
١٢٢	٣- وصاح إبليس فى أحد
١٢٤	٤- إبليس والليل
١٢٩	٥- إبليس والنسيان
١٣٢	٦- إبليس والفتنة
١٣٥	٧- إبليس والوسوسة
١٣٧	٨- معرفة أسرار النفس عند الغزالي
١٤١	٩- كيف تحدث المخاطر المختلفة
١٤٧ - ١٦٤	الفصل الخامس : الشيطان يجرى مجرى الدم
١٥١	١- الشيطان والغضب
١٥٤	٢- الشيطان يجرى مجرى الدم
١٥٦	٣- بات على خيشومه الشيطان !
١٥٩	٤- الشيطان والتشاؤم
١٦٣	٥- الذى أجاره الله من الشيطان
١٦٧ - ١٩٧	الفصل السادس : دولة إبليس
١٧١	١- إبليس على عرش العالم
١٧٣	٢- قرنا الشيطان والشمس
١٧٩	٣- الشيطان وساعة الميلاد
١٨٢	٤- القرين II
١٨٩	٥- الشيطان والكهان
١٩١	٦- الشيطان والرؤى
١٩٦	٧- عمر والشيطان

المبحث الثالث : منهج الإمام أحمد بن يحيى فى نقد فكر المجرية حول

إبليس : ٢٠١ - ٢٧٠

الفصل الأول : أصل قصة « حى بن يقظان »

٢٠٣

٢٣٠ - ٢١٠	الفصل الثانى : أساسيات المنهج عند المسلمين
٢١١	١- مصادر المنهج الإسلامى
٢١٦	٢- موقف العلماء من تعارض النصوص
٢١٩	٣- المنهج واللغة
٢٢١	٤- عرض السنة على كتاب
٢٢٦	٥- المنهج والعقل
٢٢٧	٦- الحواس
٢٢٩	٧- المنهج وإنصاف الخصوم
	الفصل الثالث : التكليف
٢٤٣ - ٢٤٠	الفصل الرابع : عقيدة المجبرة فى إبليس
٢٥٤ - ٢٤٦	الفصل الخامس : إبطال مزاعم المجبرة فى إبليس
٢٥٨ - ٢٥٥	تصور ابن حزم الظاهرى لإبليس والجن
٢٧٠ - ٢٦٠	الفصل السادس : حول الرسالة :
٢٦١	١- ترجمة المؤلف ومصنفاته
٢٦٥	٢- وصف المخطوط
٢٦٩	٣- منهجى فى التحقيق
٢٧٠	٤ نماذج من المخطوط

ثانياً: النص :

٢٧٧	- حكاية موقف الناس من إبليس .
٢٨١	- قواعد منهجية ينبغى تقريرها
٢٨٧	١- الحجة الأولى : فى إبطال قدرة إبليس على الإغواء
٢٨٨	- هل إبليس مخير أم مسير ؟
٢٩١	٢- الحجة الثانية : إبليس لا يعد أحداً أو يمينه
٢٩٢	- أدوات المعرفة
٢٩٦	- إدراك التكليف شرط من شروط قبوله
٢٩٨	- أثر اللغة ومعانيها فى فهم القرآن الكريم

- ٣٠٥ - المثل في القرآن الكريم للتفهيم والتقريب
- ٣١٣ ٣- الحجة الثالثة : الله لا يفعل الجور ولا يضل ولا يصد العباد عن الرشاد
- ٣١٧ ٤- الحجة الرابعة : قال السامري : سولت لى نفسى
- ٣٢١ ٥- الحجة الخامسة : تروى المجبرة كثيراً من الأكاذيب عن الجن أو منهم
- ٣٢٥ ٦- الحجة السادسة : إبليس الإنسان هواه
- ٣٢٨ - القرآن لا يتناقض وكل معنى متشابه له تاويل
- ٣٢٩ - نقد المجبرة فى دعواهم أن إبليس يجرى مجرى الدم
- ٣٣٥ ٧- الحجة السابعة : المقلوب من الكلام فى اللغة
- ٣٣٧ ٨- الحجة الثامنة : القول بأن إبليس يشاركنا أفعالنا يعنى سقوط العدل
- ٣٣٩ - عرض السنة على الكتاب
- ٣٤١ ٩- الحجة التاسعة : نقد المجبرة فى زعمهم أن الاستطاعة مع الفعل
- ٣٤٢ - الاستطاعة قبل الفعل
- ٣٤٦ - يجب النظر والتاويل وتنزيه القرآن عن التناقض
- ٣٥٥ ١٠- الحجة العاشرة : هل قدرة إبليس أكثر من قدرة الملكين الموكلين ؟
- ٣٥٩ الفهارس
- ٣٦١ ١- فهرس الآيات
- ٣٦٩ ٢- فهرس الأحاديث
- ٣٧٣ ٣- فهرس الآثار
- ٣٧٥ ٤- فهرس الأعلام
- ٣٨٩ ٥- فهرس الطوائف والقبائل والفرق
- ٣٩٥ ٦- فهرس الدول والأماكن والأحداث
- ٣٩٩ ٧- فهرس الشعر
- ٤٠١ ٨- فهرس المراجع والمصادر
- ٤٠٧ ٩- فهرس الموضوعات
- ٤١١ التعريف بالمؤلف ومؤلفاته

التعريف بالمؤلف

الاسم : إمام حنفى سيد عبد الله

مواليد : القاهرة ٢ / ٩ / ١٩٦٢

- خريج : كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٨٤ .
- حصل على ماجستير الفلسفة الإسلامية ١٩٩٧ .
- كما حصل على دبلوم الخطوط العربية ١٩٩٠ .
- بالإضافة إلى دبلوم عام فى التربية ١٩٩٦ .
- وكذلك دبلوم خاص فى التربية ١٩٩٧ .
- هذا بالإضافة إلى دورات عديدة فى تحقيق التراث ، والقراءات ، وتعليم وتوجيه اللغة العربية والتربية الإسلامية .

العمل : - عمل المؤلف فى حقل التربية والتعليم مدرساً للغة العربية والتربية الإسلامية منذ وقت مبكر وحصل على العديد من شهادات التفوق والتقدير فى هذا المجال من مصر والكويت والسعودية .

- كما عمل المؤلف فى حقل تحقيق التراث والمراجعة العلمية ، وشارك فى إصدار العديد من الموسوعات الفقهية واللغوية ، من ذلك على سبيل المثال المغنى لاهن قدامة طبعة «هجر» والطبقات الكبرى فى رجال الشافعية للسبكي .

- للمؤلف إنتاج علمى وأدبى يعتز به ، حاز به إعجاب وتقدير العديد من الأساتذة المتخصصين

المؤلفات

أولاً الدراسات :

- ١ - الآراء الكلامية والصوفية للقشيري « رسالة ماجستير غير منشورة » ..
- ٢ - عقيدة التنزيه عند المسلمين .
- ٣ - نقد المسلمين للثنوية والمجوس .
- ٤ - الإمامة عند المسلمين .
- ٥ - دراسة في التحسين والتقبيح .
- ٦ - دراسة في موقف الزيدية من الصحابة .
- ٧ - مقدمة في الجهاد .
- ٨ - الخوارج طليعه التكفير في الإسلام .
- ٩ - إبليس في التصور الإسلامي بين الحقيقة والوهم .

ثانياً الأعمال المحققة :

* أعمال يحيى بن حمزة العلوي ت ٧٤٩

- ١٠ - الرائق في تنزيه الخالق .
- ١١ - الجواب الناطق بالصواب القاطع لعري الشك والارتباب .
- ١٢ - الجواب القاطع للتمويه عما يرد على الحكمة والتنزيه .
- ١٣ - الدعوة العامة .
- ١٤ - عقد اللآلئ في الرد على أبي حامد الغزالي .
- ١٥ - الكوكب الوقاد في أحكام الاجتهاد .
- ١٦ - الوصايا .
- ١٧ - خواتم الحكم « لعللى دده » .

* أعمال القاسم بن إبراهيم الرسى ت ٢٤٦ هـ

- ١٨ - الدليل الكبير في الرد على الزنادقة والملحدون .

١٩- الرد على الملحد ومناظرته .

٢٠- الرد على النصارى .

٢١- الرد على الرد على الرافضة .

٢٢- المسترشد .

٢٣- الرد على ابن المقفع .

* أعمال أحمد بن يحيى ت ٢٢٥ هـ

٢٤- النجاة .

٢٥- مسائل المجبرة عن وسوسة إبليس وسائر الشياطين .

٢٦- الرد على الإباضية .

٢٧- الخلاصة النافعة . لأحمد بن الحسن الرصاص ت ٦٥٦ هـ

* أعمال غير مطبوعة وتصدر قريباً :

٢٨- مصباح العلوم فى معرفة الحى القيوم

٢٩- الشمس الكاشفة لشبهة الفلاسفة الكاسفة

لعبد الله بن على الهادى إلى الحق

٣٠- التعليم عن بعد - مفهومه وآثاره فى التربية الرسمية

بحث حصل على امتياز فى مناهج التربية - غير منشور

بمعهد الدراسات التربوية ١٩٩٧

٣١- المعجز للمقاسم العيانى ت ٤٠٤ هـ .

* دواوين شعرية .

٣٢- أحلم بالقدس .

٣٣- بغداد صبراً .

٣٤- الأميرة التى سكنت بقلبي .

٣٥- ووقعت ببشر الاحزان .

